الدين

والسياسة

في التاريخ الإسلامي



خالد علي بورفيو

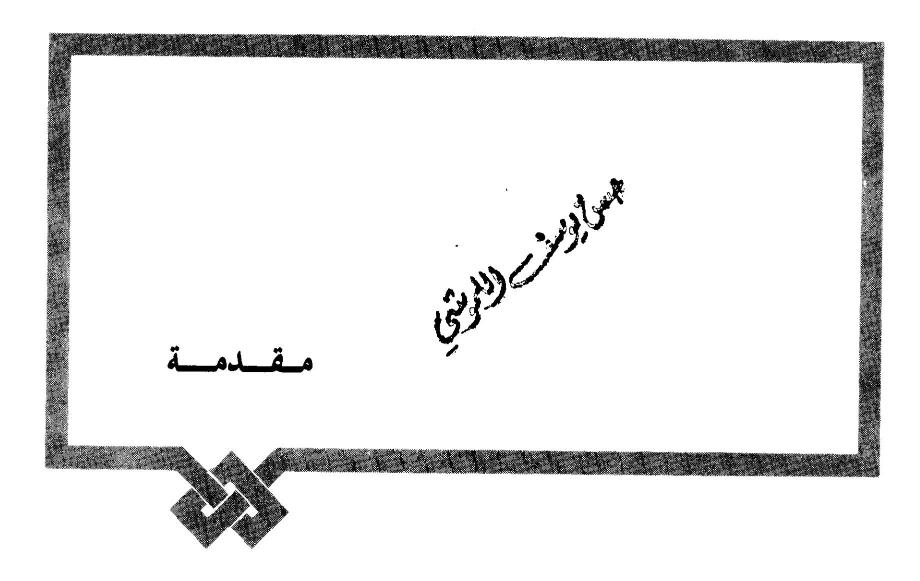
الدين والسياسة في التاريخ الإسلامي

عبد الرحمن شلقم

الطبعة الأولى 1991م
حقوق الطبع محفوظة
الناشر: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان
التصميم: مهندس محمد العتر
الطباعة: شركة انترجراف ـ روما
رقم الايداع بدار الكتب الوطنية بنغازي 1991 ـ 1112

خالد علي بورفيـق

الديـن والسياسة في التاريخ الاسلامي



مقدمة

★ العقيدة
★ التاريخ
★ التراث
★ السياسة

هي مكونات هذا الكتاب. وقد حاولت ان استخدم العرض التاريخي والتحليل الموضوعي، لفرز كل عنصر من هذه العناصر المتداخلة؛ الهدف، هو تبيان الضرر الذي يصيب الحقيقة التاريخية عندما توظف عمدا لتبرير هدف أو غاية سياسية، وكيف يتحول التراث الذي يُلّفُ حول الواقعة التاريخية إلى مادة ملونة تخفي جوهر الحقائق. اما الخطر الاكبر فيكمن في توظيف العقيدة الدينية لخدمة هدف سياسي.

هناك مدارس لمعالجة التاريخ، من ابرزها تلك التي تذهب إلى ان التاريخ هو سلسلة من افعال العظماء والابطال.. قد يكون الامر كذلك، ولكن الدين السماوي ليس من صنع البشر أو اختراعهم والاسلام هو دين الله، اما التاريخ فهو صنع البشر كبارهم وصغارهم.

وكل ما فعله الخلفاء والصحابة والفقهاء، هو تاريخ وسياسة وتراث، قد تفسر اقوال هؤلاء بعضا من نصوص القرآن الكريم، ولكنها تبقى في حدود التفسير. وقد خدمت افعالهم الدين الاسلامي في الدفاع عنه، وفي توسيع دائرة المؤمنين به، ولكنها ليست جزءاً من العقيدة الاسلامية. والمسلم هو انسان مثل كل انسان، له محيط اجتماعي، وله غرائز وعواطف ورغبات واماني، وهو يتحرك في دوائرها، ولا يمكن ان يلغيها بمجرد الرغبة في ذلك.

فباسم الدين تقاتل المسلمون، ولكن الاهداف كانت دائما سياسية أي من اجل الوصول إلى سدة الحكم.

وباسم الدين تفرقوا شيعا واحزابا وفرقا، ولكن الغايات دنيوية محضة.

ان المذاهب السنية الاربعة: المالكي، والحنفي، والشافعي، والحنبلي، تعبر عن اجتهادات تتعلق بالعبادات وتفسر بعض النصوص الدينية. ولهذا يمكن ان نقول عنها انها اختلافات باسم

الدين وللدين، وفي الدين. اما الفرق الاسلامية التي انطلقت من طروحات سياسية فلا علاقة لها بالدين بل هي الادوات الاخطر التي اضعفت الاسلام.. ويمكن القول ان الدين عندما يصبح مادة سياسية يتضرر الاثنان أي الدين والسياسة.

فالذي يختلف معك في امور الدنيا أي سياسيا لا يمكنك ان تصفه باكثر من انه مخطىء في نظرك.

اما الذي يختلف معك على اساس ديني فتذهب إلى دمْغه بالكفر، وهذا ليس بالامر الهين، وسيقود ذلك مباشرة إلى الاقتتال. وهذا ما رأيناه على مرّ التاريخ الاسلامي، فعند كل خلاف سياسي باسم الدين تتكرر عبارات ــ الكفر ــ الخروج الخ، ويصبح الاحتكام للسيف الطريق لحسم الخلاف.

فالفرق الاسلامية التي شهدها المجتمع العربي الاسلامي بعد الحرب الاهلية أو ما سميّ بالفتنة الكبرى، هي في مجملها أو أغلبها حركات سياسية بالدرجة الاولى، حاولت توظيف الدين، لما للدين من اثر وتأثير في نفوس الناس.

ومنذ القدم فان الدين عامل توحيد بين الناس، في حين تكون السياسة إلى التفريق اقرب، فالاخيرة أداة دنيا، اما الأول فهو للدنيا والآخرة، والسياسة أخذ والدين عطاء.

والسياسة هي التي حولت جزءاً من التراث إلى جزء من العقيدة، وحالت دون ايجاد تحديد علمي لكثير من المفاهيم والمصطلحات في الفكر العربي والاسلامي. فمفاهيم الدولة، ونظم الحكم، والشرع، والقانون، يشوبها الكثير من عدم الوضوح العلمي لأن كل باحث أو مفكر يستخدم وقائع تاريخية كأنها مسلمات دينية.

في هذا الكتاب احاول الاجابة على السؤال الذي طرح مررا، وسيطرح كثيرا، وهو:

هل وضع الاسلام صيغة محددة لنظام الحكم؟

وهل نظام الخلافة جزء من العقيدة الدينية، ولا يكتمل اسلام المجتمع الا بقيامه؟

وقد اخترت ان تكون مادة هذا الكتاب ما توفر من معلومات عن سنوات الاسلام الاولى، أي منذ البعثة المحمدية إلى نهايات عهد الخلفاء الراشدين.

المنهج الذي اتبعته هو محاولة تحليل المادة التاريخية، أي الوقائع والاحداث كما اوردتها المراجع المعروفة، في محاولة للفرز، أي فرز الجانب الديني العقيدي، والجوانب السياسية، أي معالجة الامور معالجة موضوعية بما يقود إلى نتائج عقلانية، ومن خلال ذلك محاولة كشف مادة «التراث» أي ما اضافه الخيال الشعبي الاسلامي والعربي لتلك الاحداث واولئك الشخصيات التي ساهمت في صياغتها.

هذا الموضوع المحفوف بكم غير هين من المخاطر، يزيده صعوبة وتعقيدا عدد من الحقائق التي كانت ولازالت تؤثر في موضوعية وعلمية البحوث والدراسات التي تعرضت لها، وأهمها:

1 ــ غياب التحديد في المصطلحات التي استخدمها المفكر والباحث الاسلامي، فمفهوم الدولة كما يستخدم في الفكر السياسي الاسلامي، يتغير من باحث لآخر ومن عصر أو مكان لآخر. وكذلك مفهوم الحكومة، والشريعة وغيرهما من المصطلحات.

2 ــ تداخل واختلاط الادوات العلمية وكذلك المادة العلمية التي تستخدمها «الاطراف» الاساسية في صياغة الفكر السياسي الاسلامي، فكثيرا ما نجد «الفقيه» يقوم بدور المنظر السياسي ويستخدم آيات من القرآن، ويورد احاديث منسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، دون إعمال القواعد الاساسية في تحديد مفهوم الكلمات، والاعتبارات الزمانية

والمكانية. والواعظ يتحول بسهولة إلى القيام بمهمة المفكر السياسي، ويستخدم المصطلحات الاخلاقية الدينية كضرورات أو مسلمات سياسية. وكذلك المتصوفة والدراويش.

3 ـ الشطط في تحميل بعض المصطلحات والكلمات القرآنية ما لا تحتمل، فقد فسر بعض الفقهاء والمفكرين كلمة «الحكم» الواردة في عدد من الآيات الكريمة، تفسيرا مقصودا دون تحديد المضمون السياسي، أو القانوني أي ـ الشرعي لتلك الكلمة، يتكرر ذلك في كلمات مثل «الامام»، «الخليفة»، «الامة».

4 ـ اضفاء الصيغة الدينية على مصطلحات اشتقها مفكرون اسلاميون في زمن متأخر عن البعثة المحمدية، مما اعطى الانطباع بل الاقتناع في كثير من الاحيان بانها جزء من المصطلحات المؤسسة للعقيدة الاسلامية مثل ـ الخلافة، وزارة التفويض ووزارة التنفيذ، والسلطنة، والامارة وغيرها. رغم ان تلك المصطلحات هي نتاج للفكر العربي الاسلامي وليست من مكونات القاموس الديني القرآني أو النبوي.

وقد رأيت ان عهد الاسلام الاول وما وقع فيه هو «الوعاء» الذي يحتوي المادة التي نستطيع ان نُعْمِلَ فيها ادوات البحث حتى نقف عند ما هو من قواعد واساسيات الدين وما هو سلوك بشري «سياسة» اقتضته المصلحة العامة للامة وفقا لظروف وطبيعة ذلك العهد.

هذه المحاولة لا تهدف إلى فصل الدين عن السياسة فصلا حَديًا، بل تهدف بالاساس إلى تحليل التاريخ من اجل ايجاد نور علمي نتسلح به ونحن نعالج امور ديننا ودنيانا.



1

الإسـلام عقيـدة في خضـم القـوة



1

الإسلام عقيدة في خضم القوة

عندما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يترعرع في مكة كانت الامبراطورية البيزنطية تشهد التطبيق الحازم والواسع لقوانين جستنيان بعد وفاته وكانت الامبراطورية البيزنطية من أكبر الامبراطوريات التي شهدها التاريخ اتساعا وقوة ولم يدر يوما في خلد قادتها أن هذه الامبراطورية ستهتز قريبا على يد قوة جديدة قوامها عقيدة سماوية جديدة هي «الاسلام».

ولا شك أن الرومان عندئذ كانوا سيعتبرون من يقول لهم أن دولتكم هذه ستضرب بيد العرب سيعتبرونه محض مجنون. فكما تقول لنا كتب التاريخ أن محمدا قد ولد في أسرة فقيرة وفي اقليم ثلاثة أرباعه صحراء مجدبة قليلة السكان، أهله من قبائل البدو، اذا جمعت ثروتهم كلها فانها لا تكاد تكفي لبناء كنيسة أيا صوفيا.. وقد أعتبر قياصرة الرومان وملوك الفرس أن ما يجري في أرض العرب مجرد أحداث محلية، بل يمكن القول أن الدولتين الفارسية والرومانية وقد كانتا القوتين الأعظم في ذلك الوقت.. يمكن القول أنهما لم يهتما بتفاصيل ما كان يجري في مكة فقد كان ذلك بالنسبة لقوتهما واتساع رقعتهما وضخامة جيوش كل منهما كان الذي يجري في بلاد العرب لا يستحق الاهتمام، ولكن قبل منتصف القرن السابع أصبح العرب المسلمون أصحاب دولة كبرى تمتد في آسيا الصغرى حتى البحر الأسود، وتضم فارس ومصر والشام وشمال افريقيا بالاضافة الى جزيرة العرب.

منذ ذلك الوقت أدرك الغرب المسيحي أن مواجهة العرب بقوة السلاح لم تعد مجدية، فقد كان العرب المسلمون قوة مقاتلة رهيبة لم يألفها الفرس والروم من قبل فقد كان المسلمون يجتاحون أعداءهم مثلما العاصفة مسلحين بقوة أجسادهم وقوة عقيدتهم وصلابة وحدتهم ولم تعد سهام الأعداء تتجه الى أجسام العرب بل وجهت الى عقيدتهم القوية ووحدتهم الصلبة.

وعوامل أخرى.. نبتت من وسط العرب نفسهم أضعفت شوكتهم وأوهنت قوتهم وحولت الدين الى مادة للسياسة وللدنيا.. ومنهم من حاول أن يبدّل في الدين ويغيره في سبيل مصلحة

دنيوية فنشأت الفرق والأحزاب الدينية، وكل يقول أنه وحده الذي يفهم الدين حق الفهم ويسفّه مخالفيه أو يكفّرهم.. وولدت الفرق فرقا والأحزاب أحزابا، وكل مولود جديد يلهث ويبحث عن تخريجات وتحويرات تسند ما يذهب إليه، وكان الخاسر الأكبر في كل مرة هو الدين الاسلامي وما يتبع ذلك من تفريق وتناحر بين المسلمين.. وقد امتص هذا الصراع الذاتي الاتلافي امتص جهد ووقت مئات من المفكرين وآلافا من الباحثين والدارسين ممن ينتمون الى فرق وأحزاب اسلامية كل واحد يعمل على جمع الحجج التي تؤيد وجهته وتضعف وجهة من يخالفه ولو كرس هؤلاء وقتهم وجهدهم ووظفوا قدرتهم للاجتهاد في أمور أساسية علمية، لكان وضع العرب والمسلمين غير ما كان وغير ما نرى.

وتداخل الخلاف النظري مع الخلاف العملي فتقاتلت الفرق وتحاربت الأحزاب بالسيوف بعد أن تجاوزت حرب الكلام والحجج وكان الدين هو الشعار الذي يرفعه كل طرف.. ومن المستحيل أن يكون الجميع على صواب ومن المستحيل أيضا أن يسوّغ الدين ما ذهب إليه هؤلاء وهؤلاء.. والفرق والأحزاب التي تدعي الارتباط بالاسلام ما قدمت للاسلام وللعرب على مر التاريخ سوى القتل والتخريب وشوهت الاسلام وهمّت بأن تجعله أديانا متعددة متباينة، متحاربة.. لقد كانت قوة الاسلام في بساطته ووضوحه التي جعلت الأميين العرب يفهمونه ويؤمنون به ويقاتلون في سبيله..

العبادات في الاسلام تجعل للحياة اليومية معنى وتجسد سمو الانسان ورقيه عما عداه من الكائنات، تهذب ارادته وتقويها بهذا التهذيب، عكس الديانات الوثنية التي تجعل ارادة الانسان تذبل وتضمر.

وفلسفة الحدود في الاسلام، تعالج قضية «الجسد» مضافا إليها «القيمة» بمعناها الاخلاقي أو مطروحا منها ذلك فأنظر الى حد الزنا والى حد القذف.. وحد السرقة وحد القتل.

وأنظر الى ما يمكن في جزاء الفساد في الأرض كما حدده الاسلام.

ان الاسلام كدين يبني انسانا يختلف في كيفيته عمن عداه من البشر ويختلف عن الحيوان المحكوم أبدا بقانون الغريزة وعن النبات والجماد ويجعل كل ما عداه أقل قيمة منه ويجعل من الانسان المسلم كونا عظيما هائلا يتناغم وينسجم مع الكون الأكبر الذي أبدعه الله ليكون دار الحياة للانسان.. وهذا الانسان الكون المسكون بالاسلام قادر بعد ذلك على التعامل مع كل موقف بشكل صحيح وسوى.

وأي خلل في تعامله مع أي موقف هو مؤشر لخلل داخلي في ذات الانسان وضع الله قواعد تقويمه واصلاحه.. وهدف الاسلام هو خلق انسان سليم سوي في كمه وكيفه، الانسان الجنس.. والانسان الكيف.

فالله لم يخلق الانسان ليبقي على الأرض جيلا أو مجموعة أجيال بل اراده أن يبقى فوقها الى مدى لا يعلمه الا هو، ووضع للانسان الأسس التي تجعله دائم الحياة فوق الأرض فحرم كل ما يضعف عوامل الاستمرار في الجنس البشري ـ مثل الزنا.. وزواج بعض الأقارب والمحارم لأن ذلك مثلما أثبتت الأبحاث البيولوجية وعلم الوراثة يضعف الجنس البشري وينذر بالقضاء

عليه عبر ملايين السنين.

وحرم السرقة.. لأنها تربك السارق والمسروق منه ولا تحسبن أن السرقة تقف عند المعنى البسيط الذي يتبادر الى الذهن من أن زيدا سرق مائة دينار من عمرو.. ولكن ذلك هو مجرد «وحدة» من «وحدات» السرقة.. فقد تسرق الأوطان مثلما تسرق الأموال.. والسرقة تجعل الفرد يعيش من مال غيره بصورة لا انسانية تقلل من قيمة البشر الى ما دون قيمة الحيوان.

وقد شكل الله الانسان بكيفية تجعله مكرما في هذا الكون متفوقا على غيره من المخلوقات بعقله وبالبعث والنشور يوم القيامة ومكافأته على أفعاله وبجعله حرا في هذه الحياة.. وكل ذلك متعة فريدة لا يتلذذ بها الا الانسان.

والاسلام زود الانسان بقيم ومعان أساسية رفيعة وتركه يتصرف على أساسها في هذه الحياة الدنيا.. ولم يجعله عربة مقطورة فوق قضبان صلبة لا يملك أن يحيد عنها يمينا أو شمالا.

والفِرق التي تحدثنا عنها والأحزاب التي وظفت الاسلام لأهدافها قفزت على الحقائق الأساسية للاسلام فأرادت أن تحوله الى مشروع سياسي وقتي.. وبعض الفرق والأحزاب التي تدعي الاسلام رأيناها في العقود الأخيرة تتخذ من الاسلام برنامجا انتخابيا للحصول على الكراسي في المجالس النيابية.. ولا شك أن ذلك جهلا بالاسلام وعدوانا عليه، لأن الاسلام أكبر من ذلك بكثير، انه قوة تبدع انسانا فريدا يعيش الحياة بكيفية سامية صحيحة خالية من الانحراف والخلل.. غير أن تلك الفرق تشكل خطرا مستمرا على الاسلام كدين، بما تقوم به من تحريف وتغيير لمجرد خدمة أهداف سياسية دنيوية متغيرة وهذا التحريف والتغيير كان أسلوب الفرق الاسلامية منذ بداية نشأتها.

- فالفرق السياسية التي رفعت شعارات الدين هي التي وضعت أحاديثا ونسبتها الى الرسول صلى الله عليه وسلم.
- وهي التي كتبت التاريخ من وجهة نظرها، وبما يخدم مصالحها وقلبت الحقائق وزورت الوقائع.
- وتلك الفرق جعلت التاريخ والتراث جزاء من العقيدة وذلك أمر باطل لا علاقة له بالعقيدة والدين، فالاسلام مصدره القرآن، والأحاديث النبوية الصحيحة وتصرف أي خليفة أو أمير أو وَالي ليس له علاقة بالعقيدة الاسلامية فهو تصرف ينسب الى فاعله خيرا كان أم شرا.. ولا نستثني من ذلك أحدا.

ونرى بعض الدارسين الى يومنا هذا يقعون في هذا الخطأ الكبير ومنهم من يرتكب ذلك وهو يحاول أن يدافع عن الاسلام أو يجتهد لايجاد قاعدة أو فتوى اسلامية ازاء موقف أو موضوع جديد فيورد أعمال أو تصرفات هذا الخليفة أو ذاك ويعتبر ذلك حجة دينية قوية تسند ما يذهب إليه وتقربه من الحق والحقيقة.

وبما أن السياسة وموضوع الحكم ومن له أحقية في الحكم؟ بما أن هذه الموضوعات كانت هي الرحم الذي ولدت منه الفرق الاسلامية ولا تزال تولد وتذهب كل فرقة الى احتطاب وقودها من غابة التاريخ.. خاصة مرحلة صدر الاسلام وتظن أو تعتقد أن ذلك يعطيها قوة

الحجة وقوة الحق لكل ذلك حاولنا في هذا البحث أن نذهب الى حيث يحتطب هؤلاء وأن نقلّب وننبش أكوم التاريخ والتراث التي يتخذون منهاوقودا لنيرانهم، لنرى ماهية المادة التي عليها يعتمدون.

2

آفاق الصعود للنموذج الإسلامي



2

آفاق الصعود للنموذج الإسلامي

كانت الحرب الأهلية العربية والتي أطلق عليها في التاريخ العربي الاسلامي الفتنة الكبرى هي الهزة الأولى التي أتت على الكثير من قوة العرب والمسلمين في صدر الاسلام وتركت آثارا خطيرة لا يزال بعضها حيا، كانت تلك الحرب ناقوسا مبكرا، كان من الواجب أن ينتبه العرب والمسلمون الى مكامن أخطار رئيسية في أساليبهم في الحكم والادارة، وكان حريا بهم أن يقفوا وقفة عقلانية يعرفون بها مكان العقيدة ومكان الحكم والادارة، لكن يبدو أن بريق السلطة طغى مرارا على نور العقيدة وزج بالدين في أمور ليست من الدين في شيء وكان النتاج هو الفتنة والتفرق والتشرذم وتشويه العقيدة.

وما من مؤرخ أو دارس يستطيع أن يتبوأ كرسي القاضي في تلك الفتنة فيدين هذا الطرف ويبرىء الآخر لأنها دارت تحت شعار ــ الدين ــ ولكنها كانت حربا من اجل الدنيا حركتها نزعات جاهلية موروثة في الخلاف بين بني هاشم وبني امية وكانت طعنة للاسلام جعلته يتأخر في الوصول الى كثير من الأقاليم وبعضها أغلق عليها فلم يستطع الاسلام الوصول إليها الا بعد ذلك بقرون أو لم يصل إليها.

يقول المؤرخ «ولز».. «لا شك أن الاسلام كان يستطيع انتزاع القسطنطينية حوالي القرن الثامن الميلادي والوصول الى قلب أوروبا بنفس السهولة التي وصل بها الى هضبة البامير. حقا أن الخليفة معاوية قد حاصر تلك العاصمة سبع سنوات وكذلك فعل سليمان، بيد أن الضغط لم يدم ولم يتواصل وظلت الامبراطورية البيزنطية ثلاثة أو أربعة قرون بعد ذلك حصنا منيعا يدفع الشرق عن أوروبا ولا جدال أن الاسلام كان يستطيع على التحقيق أن يجد في المتنصرين حديثا أو الباقين على الوثنية من آقار وبلغاريين وصربيين وصقالبة وسكسون ــ رجالا مستعدين للانضواء تحت رايته استعداد أتراك آسيا الوسطى ومع أنه بدلا من الاستمساك بالاستيلاء على القسطنطينية، دار الى أوروبا أولا بطريق افريقيا وأسبانيا الملتوى البعيد فانه لم يصادف الا في

فرنسا في نهاية خط مواصلات هائل البعد عن بلاد العرب قوة كافية البأس لا يقاف تقدمه» .(1)

تلك احد نتائج هذه الفتنة فلولاها لكان العالم ليس كما نراه اليوم وكذلك المسلمون وقد تكون الحضارة الانسانية اتخذت وجهة أخرى.

فلقد كانت تلك «الفتنة» التي نتجت عن الصراع المبكر على السلطة كانت هزة في وجه الاسلام الناصع الذي نظرت إليه أغلب الشعوب على أنه المُخلّص وكان أغلبها في انتظار الفاتحين المسلمين لتخليصهم من ألوان الاستعباد التي كانوا يرزحون تحتها في ظل الحكم الروماني النصراني أو في المجتمعات الوثنية الطبقية القاهرة.. وقد أعتبر المؤرخون والدارسون تلك الفتنة الخط الفاصل المبكر بين الاسلام في عظمته الأولى وبدايات الاضطرابات التي حلت بالمسلمين فيما بعد وبرغم الفتوحات الواسعة التي قام بها بنو أمية بعد أن وطدوا أركان حكمهم الا أنه يمكن القول أن تأثير الاسلام كان أفقيا أي كان جغرافيا ولم يعد عموديا عقيديا.. فالعرب المسلمون الذين شدوا أنظار الدنيا إليهم وهم يندفعون كالفجر ينشرون الديانة السمحاء الجديدة، انقلبوا يتقاتلون على الحكم والمناصب وهم الذين تنهى عقيدتهم عن التحكم وحب الزينة والطموحات الدنيوية البراقة.

وتجمعت السلبيات بسرعة غير متوقعة فهاهم الأمويون بعد أن ينتصروا على فريق من إخوتهم في الدم والدين ينقلون الخلافة الى دمشق ويقيم معاوية له بلاطا على شاكلة قياصرة الروم وملوك الفرس ويحيلها الى دولة ملكية وراثية.. ويخفت وميض المساواة بين جميع المسلمين ويركزالسلطة في يد الأمويين وحدهم ويوزع الهيّن من المناصب على غيرهم من العرب ويقنن احتكار السلطة في بيت معاوية ولا شك أن العرب غير الأمويين والمسلمين الآخرين غير العرب لم يرضهم هذه الاتجاه الملوكي ومنذئذ زرعت بذور الشعوبية وبدأ الموالي يفكرون ويخططون لمقاومة الأمويين فقد أدرك المسلمون أن انفراد الأمويين بالسلطة مخالف للاسلام الذي لا يقر الملكية أو الرئاسية أو القيصرية ولكنه يساوي بين كل المسلمين في فروض العبادة والجهاد في سبيل الاسلام وفي اقتسام الغنائم.

وقد وجد اليهود والنصارى الذين تدفقوا على دمشق بعد أن أصبحت العاصمة الجديدة للدولة الاسلامية بدلا من المدينة وجدوا في هذا الجو الجديد ما ينشدون فاندسوا بين الصفوف وشرعوا ينفثون سمومهم في الجسد الاسلامي الفتي.. بعد أن عجزوا عن طعن رماحهم وسيوفهم فيه.

وهكذا تلاشت صورة «المثل الأعلى» أو «النموذج الاسلامي» الذي كان يمثله أبوبكر وعمر وحل محله نموذج آخر وظهرت على المجتمع الاسلامي بوادر الترهل المبكر وأصبح مجرد نموذج آخر يضاف الى المجتمعات الشرقية القديمة مع بعض الفوارق.. فأين الملوك الأمويون الجدد وبلاطهم من أبي بكر الصديق الذي يقول عنه (ولز) «أنه أنشأ بذلك الايمان الراسخ الذي

---

(1) هـ ج. ولز، معالم تاريخ الانسانية، المجلد الثالث، ص 812.

يزحزح الجبال وتلك البساطة النقية والعقل الراجح ينصب نفسه لتنظيم اخضاع العالم بأسره لحكم الله وارادته بجيوش صغيرة يتألف كل منها من 3000 أو 4000 عربي أخذا بتلك الرسائل التي بعث بها النبي (ص) من المدينة في سنة 628 الى كل ملوك العالم وأوشكت هذه المحاولة أن تؤتي ثمارها» (1). لقد كان للتحول من المدينة الى دمشق أثر كبير في حياة المجتمع الاسلامي وكان لدخول أعداد كبيرة من غير العرب الى الاسلام تأثير أكبر فلم يعد المجتمع العربي الاسلامي ذلك المجتمع البسيط القليل العدد المحدود الطلبات وكانت تلك التطورات تستدعي تغييرات أساسية في نظام الحكم ونظام توزيع الثروة وفي أساليب التعامل، ولكن الذي حدث هو استعارة أساليب رومانية وفارسية في الحكم والادارة وأن أضاف لها الأمويون بعض الاضافات أو أدخلوا عليها تعديلات محدودة، فقد أصبح للخليفة قصر بل قصور تكتظ بحاشية ولم يعد وصول عام المسلمين إليه هينا مثلما كان الأمر في مجتمع المدينة وتكونت في داخل قصر الخليفة جماعات ضغط كل منها تعمل لتوجيه الأمور الى مصالحها، ورأينا ظاهرة البلاط تأخذ طريقها الى قصر الخليفة الأموي مثلما كان لدى القياصرة والأكاسرة، وترتب على انتقال العرب من الحجاز الى دمشق امتلاكهم للأراضي الزراعية ولما كان هؤلاء لا عهد لهم بحرفة الزراعة فقد استخدموا فيها عمالا من شعوب أخرى، واتسعت الملكيات الزراعية وترتب على الفتوحات التي قام بها الأمويون جلب الكثير من مواد الاستهلاك وأدوات البذخ والزينة من الأمصار الأخرى.. وبدأت تظهر الفوارق الاقتصادية والاجتماعية وبدأت من جهة أخرى الفوارق تزول بين أساليب الحكم الاسلامية والرومانية وقد علل البعض جنوح بني أمية الى الضخامة والصولجان والأبهة والبلاط والحاشية، عللوه باتساع رقعة الدولة وازدياد عدد سكانها وتباين ثقافاتهم وأمزجتهم وكذلك متاخمة الدولة لدول قديمة تقليدية تتخذ السلطة فيها مظاهر التقديس والضبط وأن ظهور المسلمين بمظهر البداوة والبساطة يغري بالانقضاض عليهم، ولكن الحقيقة عكس هذا فقد كانت قوة المسلمين في زهدهم وبساطتهم وترفعهم عن الشكليات البراقة التي ما انزل الله بها من سلطان.

فقد كانت قصة قدوم عمر بن الخطاب الى بيت المقدس من المدينة على ظهر ناقته دون أن يصحبه حرس أو حاشية وليس معه سوى رفيق واحد كانت تلك القصة تلهب مشاعر حتى غير المسلمين، وكان موقف عمر من والي العراق تردده الألسن عندما غضب من بناء واليه للقصور التي تحاكي قصور ملوك فارس واتخاذ حاشية وحجّابا يمنعون دخول المسلمين على الوالي.. لقد كان اتجاه الأمويين الى محاكاة الأنظمة التقليدية السائدة عندئذ اتجاها جانبه الصواب وبذر بذور التدهور والتشرذم في المجتمع الاسلامي، فبدأت بوادر الاتجاهات الشعوبية ووجد اليهود الفرصة ليعملوا عملهم فدخلت كثير من الاسرائيليات الى «التراث» الاسلامي.. وبدأ الموالى يتسللون الى البلاط ويبثون غبار الحقد والكراهية داخل صفوف العرب مستغلين الرواسب والضغائن التي كانت بين قبائلهم وبطونهم وأفخاذهم قبل ظهور الاسلام، وبدأ اخضاع تفسير

---

(1) ولز، معالم تاريخ الانسانية، م 3، ص 804.

القرآن للأهواء والأهداف السياسية بل أن تلك الفترة شهدت معظم الأحاديث النبوية المنسوبة الى الرسول كذبا وكانت الأمور تنبيء بتحول كبير في وجهة الممارسة الاسلامية، وقد أدرك عدد من المسلمين الذين حافظوا في أنفسهم على نقاء الاسلام الأول أدركوا ما لذلك من مخاطر.. فاتجه بعضهم الى النصح والتحذير من عواقب تلك التوجهات الملوكية واتجه آخرون يناصرون بني العباس باعتبارهم من آل البيت ليكونوا البديل لنظام الحكم الأموي وتحركت الأقليات الدينية والعرقية وسواهم من الموالي تؤسس الفرق الدينية التي لم تكن في حقيقتها الا طبعات جديدة من ديانات وثنية ونصرانية ويهودية وكانت تلك الفرق البذور التي أنبتت الحركات الباطنية التي عشعشت في الوطن الاسلامي فيما بعد.

3

مجتمع الإنسان والدين في يثرب

3

مجتمع الإنسان والدين في يثرب

في الوقت الذي كان فيه الأمويون يرسخون حكمهم في دمشق ويمدون سلطتهم وينشرون الاسلام بفتوحاتهم الواسعة كانت الدولتان الرومانيتان في الشرق والغرب تشهدان حلقات عاتية من حلقات الاضطراب التي لم تتوقف ويمكن القول أن الامبراطوريتين الرومانيتين في القرن السابع الميلادي قد وصلتا الى ما وصلت إليه الدولة الاسلامية في العهد العباسي الثاني.. فقد بدأت الشعوب التي غزت الامبراطورية تشكل القوة العسكرية وبعد أن تمثلت المسيحية وتشعبت في شؤون الدولة دخل عدد منها الى قصر الامبراطور وأصبح للموفرفنجيين والكارولنجيين تأثير خطير في الشعب والبلاط وأرتبكت الموارد الاقتصادية للدولة واستفحل الخلاف بين الكنيسة والقصر وانتشر الاقطاع وتذبذبت سلطة الأباطرة فحاولوا أن يعيدوا التوازن الى سلطتهم باستقطاب تلك الشعوب البربرية التي غزت الدولة وأصبح لها شأن كبير وجملة القول أن الدولة الرومانية بشقيها كانت أشلاء تغري بالطمع فيها من الداخل والخارج.. ولكن في رحم ذلك المجتمع المتباين المضطرب كانت تتحرك أجنّة التغيير، في داخل المجتمع الروماني وكانت بداية الروح التعصبية الدينية التي ستؤدي الى الحروب الصليبية بعد أربعة قرون والى الانقلابات الأساسية التي ستجتاز العصور الوسطى المظلمة الى عصر النهضة.

ان استقراء التاريخ يؤكد عدة حقائق:

أولا: ان احتكار السلطة وتركزها في مجموعة أو طائفة هو النذير الأول بتفتت الدولة وانهيارها.

ثانيا: ان احتكار الثروة وتركزها في طبقة أو فئة يجعل تلك الثروة غير اجتماعية وتصبح كمية قيمية ساكنة آسنة لا تلبث أن تتعفن وتذوى.

ثالثا: ان تجاهل العوامل الاجتماعية القومية والدينية يقود الى ارتباك شامل في الكيان الاجتماعي يستحيل معه التطور وينقلب المجتمع على عقبيه ويغدو عرضة للغزو.

ونحن نجد هذه الحقائق تفعل فعلها في المجتمعات القديمة والحديثة نجدها في المجتمع الفارسي القديم وفي الحضارة الاغريقية بشقيها المحلي «الهليني» والعالمي «الهلينستي» وفي مصر القديمة الفرعونية وفي الدولة الرومانية وكذلك الدولة العربية الاسلامية منذ مجتمع «المدينة» الى العهد الأموي والعصرين العباسيين، ويبدو أن معاوية عندما وجد نفسه حاكما للدولة الاسلامية اتجه الى الأسهل، ويبدو أن انتماءه الى الفئة الارستقراطية في قريش ونفوره من العامة كل ذلك جعل في نفسه ميلا الى الطقوس الملكية الدنيوية بل أن المرء يستغرب أن يكون لدى أحد العرب المسلمين حينئذ ذلك الاستعداد والتعطش الجامح الى السلطة، يطوّع نفسه لممارسة سلطة ملكية كاملة الطقوس والابهة والمظهر، والملكية والسلطة بمظهرها القديم والحديث ولدت أول ما ولدت في مجتمع فارس الوثني المجوسي ونقلها عنهم الرومان وقد كانت المجتمعات الزراعية عبر التاريخ هي الأرض التي تنبت فيها الملكية وتركز السلطة.. وهذا ما نجده أيضا في مصر القديمة الفرعونية وان كان يوجد فيها مظهر مخالف لذلك الذي كان في فارس حيث تداخل مفهوم الملك ومفهوم الاله في المجتمع المصري القديم، لسيطرة فكرة الخلود والتخليد على المصريين القدماء.

أما العرب فكانوا دائما مجتمعا بسيطا لا تعقيد فيه والروح البدوية الصحراوية تنفّر من التحكم والخضوع ونجد أن معايير الرجولة لدى العربي تختلف تماما عن معايير الفارسيين والمصريين القدامى، فالشجاعة والكرم والبلاغة والوفاء بالعهد تلك العوامل التي تشكل المثل الأعلى عند الانسان العربي، كلها عوامل ذاتية أي تأتي أو تنبع من داخل الفرد ولا يحتاج المرء كي يثبت وجوده الى مظاهر خارجية مثل الثروة أو السلطة أو قوة الجاه، كما أن بساطة الحياة في الصحراء العربية لا تدفع الى الخضوع من اجل الحصول على القوت كما أن روح الفروسية والغزو تجعل ضمان حياة وقوت الانسان على قدر شجاعته وقوة ارادته الشخصية، كل تلك العوامل جعلت امكانية فرص وصاية أو سيطرة سياسية على الفرد محدودة، وذلك ما أستنبط منه المؤرخون ودارسو علم الاجتماع ما أسموه «بالفردية» العربية وهذه الصفة هي امتياز وليس نقيصة، ولما بعث النبي (ص) وجد تقاليد ومتواضعات كثيرة عند العرب فأقر خيّرها ونها عن السيىء منها واستثمر ما هو خيّر، وقد أجمع المؤرخون على أن السلاح الأقوى الذي هزم به سعد بن أبي وقاص الفرس الذين كان يقودهم سيدهم رستم الجالس فوق سرج من الذهب أجمعوا أن ذلك السلاح هو الشجاعة الفردية عند العرب التي قوّاها الايمان وأصبحت قدرة أقرب الى الخوارق حتى أن اندفاع المسلمين وتكبيرهم قد أهاج فيلة الفرس وأرتدت عليهم تبعثر صفوفهم وتنشر الذعر بينهم، ولا شك أن القرآن قد أكّد هذه الفردية وزاد من اعتداد المرء بنفسه فقد قلل الاسلام من قيمة الملوك والفراعنة المتكبرين ولعنهم وهاجم الأثرياء وربط الثراء بالطغيان والفسوق والفجور.

وسنوات الاسلام الثلاث عشرة في مكة «قوّت الانسان» بالايمان بتأكيد وحدانية الله وجبروت الله وقوة الله وسنواته في المدينة قوت الانسان، الانسان المؤمن بالأخلاق الاسلامية وقومته بها وهذا سر قوة الفرد العربي المسلم الذي قهر الفرس والروم وكان هذا الانسان يستصغر

كل شيء ماعدا الله.

وكان الأجدر بالأمويين عندما واجهوا واقعا جديدا بعد انتقالهم الى الشام أن يجتهدوا ليستخلصوا قواعد جديدة للحكم والاقتصاد وشؤون المجتمع وتشكيل الحياة الجديدة، ولكنهم فضلوا استيراد النمط الروماني الجاهز في الحكم واعتبروا الاسلام مجرد وازع في نفوس الناس، يكفي الأمويين عناء ايجاد أعداد كبيرة من رجال الشرطة فاعتبروا الدين مجرد شرطي في داخل كل فرد يمنعه من ارتكاب الممنوعات.

وكانت تجربة «المدينة» أي «يثرب» كافية أن تقدم النموذج المطلوب فلم تكن هناك في مجتمع المدينة حكومة، ولا نجد في النصوص التاريخية ما يشير أو حتى ما يوحي بوجود حكومة فعدد سكان المدينة عندما هاجر إليها الرسول (ص) لم يكن يتجاوز (20) ألف نسمة وقد زاد هذا العدد عندما وفد إليها المهاجرون وبعد الهجرة تحقق تكافؤ بين أهل المدينة بشكل قلّ أن نجد له مثيلا عبر التاريخ.

فأهل المدينة الأصليون وهم «الأنصار» كان كل فرد منهم يعتد بنفسه فهو قد ساهم في نصرة الدين بايواء الرسول وباشتراكه في غزوات الرسول وأغلبهم جلس الى النبي وتحدث إليه وسمع منه.. فكان كل واحد يرى أن له الحق في أن يساهم في اتخاذ القرار وأن يكون مواطنا ممتازا.

ولم يكن هناك من يمكن وصفه بالوزير أو المساعد أو النائب للرسول.. وحتى الباحثون الذين يذهبون الى القول بأن «الامارة» مبدأ اسلامي لأن الرسول أمّر أناسا على الجيوش في الغزوات فان ذلك من قبيل المبالغة والمصادرة، فهؤلاء الامراء لم تكن وظيفتهم ثابتة وانما كانت مرهونة بالمهمة المكلفين بها وبمجرد انتهاء الغزوة تنتهي مسؤولياتهم وكان دورهم اداريا محضا ولا يرتب لهم أي امتياز أو تمايز عن غيرهم من المسلمين.

والشق الآخر الذي شكل مجتمع المدينة كان من المهاجرين وكان كل منهم يرى في نفسه ما كان يراه الأنصار فالمهاجرون هم أول من دخل الاسلام في مكة وتحملوا ألوان العذاب في سبيله وتركوا أموالهم وأولادهم وبيوتهم وهاجروا الى المدينة تلبية لطلب رسول الله، وكلهم جالسوا الرسول وتفقهوا في الدين وشاركوا في الغزوات وتعرضوا للأخطار وأستشهد بعضهم كل ذلك جعلهم متساويين فيما بينهم ومع الأنصار.

وهكذا كان تساويهم في المشاركة في شؤون الحياة اليومية وكان لكل منهم نصيب في اتخاذ القرار الا في القضايا التي يعود القول الفصل فيها للرسول بناء على ما يوحى إليه.

وفي المقابل كان المهاجرون في المدينة يعيشون حياة الكفاف لأنهم قد تركوا أموالهم في مكة وقامت قريش بمصادرة أغلبها وحتى الذين استعادوا أموالهم بعد فتح مكة أنفقوها على الفتوحات، فقد تكونت تلك الأموال لديهم قبل الاسلام ولكن بعد الاسلام نستطيع القول أن الغنى كان نقيصة أو فتنة يتحاشاها الصحابة الأتقياء، ولا نجد روح التطلع الاقتصادي الا في أيام حكم عثمان بن عفان الأخيرة حيث كان شيخا مسنا ووجد الذين من حوله الفرصة لاستغلال شيخوخته.. أما فيما عدا ذلك فقد كان مجتمع «المدينة» مجتمع المساواة في كل شيء

وذلك هو مصدر النقاء الاسلامي الذي وسم مجتمع المدينة.. وهكذا يمكن القول أن مجتمع دمشق أصبح «نقيض» مجتمع المدينة في كل شيء.

ولكن صورة مجتمع المدينة ظلت تشكل «المثل الأعلى» للمسلمين الذين وقر الايمان في قلوبهم وتمثلوا الاسلام وأعتنقوه اعتناقا حقا وكانت عداوة اليهود التي أعلنوها للرسول منذ شرع يؤسس هذا المجتمع الجديد على قواعد الاسلام دين جديد وقوي. وأنهم لن يجدوا فرصة فيه للربا والمضاربة وتوظيف الأموال والتحكم في الناس من خلال تحكمهم في الثروة كما أن الكتاب الذي أعلنه الرسول بين المهاجرين والأنصار وتنظيم مجتمع المدينة الجديد على أساس اجتماعي سليم، هذا الكتاب اعتبره اليهود اعلان حرب على سلوكهم الاستغلالي التحكمي رغم أن الرسول وادعهم فيه وأمّنهم في أموالهم ودينهم وشرط لهم وأشترط عليهم رغم ذلك أدركوا أن التنظيم الجديد الذي قرره محمد لمجتمع يثرب سيدمر القواعد الجاهلية الخاطئة التي كانوا يعشعشون على أساسها في مفاصل المجتمع ويتحكمون فيه فقد جاء في كتاب الرسول (ص): بسم الله الرحمن الرحيم «هذا كتاب من محمد النبي (صلى الله عليه وسلّم) بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم انهم أمة واحدة من دون الناس المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم ـ أي أسيرهم ـ بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى كل طائفة تفتدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو جشم على ربعهم يتعاقلون معاقلهم الأولى.. الخ» (1).

تلك هي القواعد الطبيعية الأساسية التي نظم بها الرسول مجتمع المدينة وقد كان ذلك الكتاب الذي أعلنه الرسول بعد وصوله الى يثرب اللائحة التي تدار المدينة على أساسها ولم ينصّب على أي مجموعة أميرا أو واليا أو رئيسا، ولكنه قسم مجتمع المدينة الى مجموعات اجتماعية تتولى كل منها ادارة أمورها وتسيير شؤونها بذاتها وهذا ما أغضب اليهود ولكن هذا ما كان في نفس الوقت سر قوة المسلمين التي تلاشت من بينهم مؤثرات الحقد وسمت نفوسهم التي هذبها القرآن وأصبحوا قوة رهيبة تدك معاقل الكفر والشرك في الشرق والغرب.

(1) السيرة.. لابن هشام، م 2، ص 147.

4

العقيدة تضع نموذجها

4

العقيدة تضع نموذجها

لقد توفرت في مجتمع المدينة على عهد الرسول عوامل عدة جعلت هذا المجتمع، مجتمع المساواة والتكافؤ وتلك العوامل هي:

- الفردية: أي اعتزاز الفرد العربي بذاته وهي صفة عربية أقرها الاسلام ونمّاها.
- تساوي مجموع المهاجرين والأنصار من الناحية السياسية حيث أنهم قاموا بدور هام في نصرة الرسول والاسلام وأشتركوا في غزوات الرسول.
- تفتت الثروة: ثروة الأنصار باقتسامهم ما يملكون مع المهاجرين وكذلك ثروة المهاجرين الذين تركوا ثروتهم في مكة أو أنفقوها على الفتوحات الاسلامية بعد فتح مكة.

وهكذا يمكننا القول بأن مجتمع المدينة كان كله مجتمعا ارستقراطيا أو نستطيع أن نقول عكس ذلك أي لم يكن أرستقراطيا على الاطلاق لأن تصنيف أي فئة اجتماعية أو مجموعة أو طبقة لا يكون الا في حالة وجود ما يقابلها في الواقع الاجتماعي من حيث الاختلاف والتفاوت.

وقد يقول قائل أن هناك ثروات كبيرة قد تكونت بعد الغزوات ومع الفتوحات وقد كانت الغنائم مصدرا للثروة هائلا.. وهذا صحيح، الا أن هذا المصدر لم يؤد الى تفاوت في الثروة يذكر حيث أن طريقة تقسيم الفيء لم تجعل هناك فرصا للتفاوت، وحتى عندما حاول آل البيت أن يمتازوا عن سواهم من المسلمين في نصيبهم من الغنائم عارضهم الخلفاء كما أن الزكاة منعت أي فرصة لوجود تراكم كبير في رأس المال أو أي تركيز له، واذا تصورنا حجم مجتمع المدينة حينئذ والاضطراب الذي حدث للتجارة في بداية العهد الاسلامي بسبب «حالة الحرب» التي كانت سائدة، اذا تصورنا ذلك لأمكن القول أن نسبة الزكاة على المملوكات كانت أعلى من نسبة الربح المتاحة، وهكذا يصبح رأس المال نفسه في تناقص أضف الى ذلك أن الثروة لم يعد

لها ذلك البريق الذي كان قبل الاسلام وأصبح العمل من أجل الدار الآخرة هو الذي يسيطر على جموع المسلمين أما الدار الدنيا فلم تكن تستحق أكثر من أن يعمل الانسان فيها ليجد قوت يومه.

هكذا كان المجتمع المدني الذي أقامه الرسول الكريم تأسيسا على القواعد الاسلامية.

ووجد العالم القديم نفسه لأول مرة أمام نموذج اجتماعي يختلف تماما عن المجتمعات التي ألفوها..

وقد تأكد للعرب الذين في مكة ولم يسلموا بعد كما تأكد للأمم الأخرى أن ما أتى به محمد ليس بالأمر الهين فها هو هذا الدين يتعرض لامتحانات عدة ولكنه يجتازها بنجاح إثر آخر، واذا كانت الحروب وهي حالات عسيرة يمر بها المجتمع هي النار التي تكشف حقيقة المعدن فلقد اتضح معدن هذا المجتمع الجديد، أنه مجتمع مؤمن صابر مصرّ لا يخاف ولا يتردد وقد كانت أيام الرسول في المدينة أيام غزوات متصلة يقاتل فيها المشركين وتتوج غزواته بفتح مكة ودخول من فيها الى الاسلام.. ولم تكن تلك الحروب اختبارا لمحمد ودينه بل اختبار للانسان الجديد الذي أنتجته العقيدة الجديدة وأثبت هذا الانسان أنه هو هو، في الحرب والسلم لا يخاف الا الله ولا تلهيه الدنيا عن الآخرة وأنه لا يتخلى عن سلوكه وخلقه الاسلامي حتى في أوج المعارك.. وهكذا بلغ الدين أشده وبلغ الانسان المسلم الجديد «نموذج المثل الأعلى».

وكان الرسول (ص) هو المشيّد لهذا المجتمع الاسلامي وفقا للأصول الاسلامية الواردة في القرآن وكان هو المعلم والقدوة وكان يرفض (ص) أي مظهر من مظاهر الفخامة فمنع أصحابه من أن يقوموا له اذا رأوه قادما.. وقال (ص) «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا» وكان لا يتسامح مع من يريد أن يلصق به صبغة سلطانية أو القابا ملكية وكان يكرر أمام أصحابه «لا تطروني كما أطرت النصاري ابن مريم انما أنا عبد الله فقولوا عبد الله ورسوله».

وما روى عن زهده في المال واللباس وبساطته العظيمة وتعففه عن المال حتى أنه (ص) مات ودرعه مرهونة من أجل قوت أهله وكان يقوم بنفسه على خدمة نفسه و يرقع ما تقطع من ثيابه و يصلح نعله ويخدم نفسه.

تلك اذن هي ملامح الدين الجديد الذي أطل على الدنيا بظهور الاسلام وأخذت راياته تزداد ارتفاعا ونوره سطوعا وأدرك المشركون واليهود أن النصر قد عقد لهذا الدين وبدأت حروب قريش ضد الرسول في تصاعد واستمرار.. أما اليهود فكانت خطتهم لمواجهة هذا الدين تأخذ ألوانا وضروبا شتى، حيث نقضوا عهودهم مع الرسول وشككوا في صحة رسالة محمد وبدأت «حرب جدل بين محمد واليهود أشد لددا وأكبر مكرا من حرب الجدل التي كانت بينه وبين قريش في مكة وفي هذه الحرب البشرية تعاونت الدسيسة والنفاق والعلم بأخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين اقامتها اليهود جميعا صفوفا متراصة يهاجمون بها محمدا ورسالته وأصحابه المهاجرين والانصار، دسوا من أحبارهم من أظهر اسلامه ومن استطاع أن يجلس بين المسلمين يظهر غاية التقوى ثم ما لبث الحين بعد الحين أن يبدي من الشكوك والريب و يلقي على محمد من الأسئلة ما يحسبه يزعزع في أنفس المسلمين عقيدتهم به وبرسالة الحق التي يدعو إليها وانضم

الى اليهود جماعة من الأوس والخزرج الذين أسلموا نفاقا أيضا ليسألوا وليوقعوا بين المسلمين» [1].

فأنظر ماذا يدور هذا اليوم بين المسلمين وأعدائهم وتمعن فيما يقوم به اليهود في القرن العشرين سيظهر أمامك النصف الثاني من القرن السابع الميلادي وستجد الحرب سجالا بين المسلمين واليهود وستجد نفس الأسلحة ونفس الأساليب في ادارة الحرب ضد الاسلام، فاليهود يجندون عربا مثلما جندوا أنذاك جماعة من الأوس والخزرج وأمروها بالدخول في الاسلام وان تبالغ في التقوى ظاهريا وتندفع من داخل الاسلام تقطع أحشاءه.

أن بذور الماسونية زرعت منذ ذلك اليوم وتلقفها عبد الله بن سبأ وتوالت الأيدي اليهودية تنشر تلك الخيوط وتنسج منها القيود للاسلام والمسلمين وقد اتخذ النسيج ألوانا شتى من حركات شعوبية واتجاهات باطنية الى التنظيمات الحزبية السرية الاسلامية التي نراها اليوم هنا وهناك فوق الأرض الاسلامية.

وهؤلاء القلة من العرب من الأوس والخزرج الذين جندهم اليهود في صدر الاسلام ليدمروا بهم الاسلام هم المنافقون الذين نزلت فيهم آيات كثيرة ووصف هؤلاء المنافقين الذين يظهرون الاسلام ويظهرون المبالغة في التقوى ويضمرون الشرك وصفهم بأنهم اخوة اليهود، اخوتهم في العداوة للاسلام وتحالفهم على محاربته وهذا ما كان على عهد رسول وما هو كائن اليوم قال تعالى في سورة الحشر:

«ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وان قوتلتم لننصرنّكم والله يشهد أنهم لكاذبون لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولُّن الأدبار ثم لا ينصرون لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون لا يقاتلونكم جميعا الا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم كمثل الشيطان اذ قال للانسان أكفر فلما كفر قال أني بريءٌ منك اني أخاف الله ربّ العالمين فكان عاقبتهما أنّهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين» [2].

«يخبرنا تعالى في هذا الآيات عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه حين بعثوا الى يهود بني النضير يعدونهم النصر من أنفسهم فقال تعالى «ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من اهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وان قوتلتم لننصرنكم».. قال الله تعالى «والله يشهد أنهم لكاذبون» أي لكاذبون فيما وعدوهم به اما لأنهم قالوا لهم قولا ومن نيتهم أن لا يفوا لهم به، واما لأنهم لا يقع منهم الذي قالوه ولهذا قال تعالى «ولئن قوتلوا لا ينصرونهم» أي لا يقاتلون معهم «ولئن نصروهم» أي قاتلوا معهم «ليولُّن الأدبار

---

(1) د. محمد حسين هيكل ـ حياة محمد، ص 234.

(2) الحشر ـ الآيات 11 ، 17.

ثم لا يُنصرون»، وهذه بشارة مستقلة بنفسها ثم قال تعالى «لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله» أي يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله كقوله تعالى «اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية» ولهذا قال تعالى «ذلك بأنهم قوم لا يفقهون» ثم قال تعالى «لا يقاتلونكم جميعا الا في قرى محصنة أو من وراء جدر» يعني أنهم من جبنهم وهلعهم لا يقدرون على مواجهة جيش الاسلام بالمبارزة والمقابلة بل اما في حصون أو من وراء جدر محاصرين فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة» (1).

ولقد بقي اليهود على ما كانوا عليه منذ عهد النبي وكذلك المنافقون ولم ينفصم ذلك الحلف غير المقدس الذي بينهما، بل أن طبيعة مواجهتهم للاسلام بقيت على طبيعتها الجبانة الحاقدة..

اذن بعد أن اتضحت معالم المجتمع الجديد في يثرب وهو مجتمع المساواة الخالصة المؤسس على الاسلام ظهر في المقابل أعداء هذا المجتمع وهم:

ـ اليهود ـ والمنافقون وقد تحالفا لتقويض هذا المجتمع الجديد وكان لليهود في ذلك دوافعهم وكان للمنافقين دوافعهم في هذه العداوة لله ورسوله والمؤمنين.

فقد كان اليهود يكرهون محمدا ويعادون الاسلام مثلهم مثل النصارى وفي ذلك قال الله تعالى: (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير الذين أتيناهم الكتاب يتلونه حقّ تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يَكفر به فأولئك هم الخاسرون).(2)

فقد كان موقف اليهود من الاسلام موقفا معاد له كعقيدة أولا ولما ترتب على هذه العقيدة من آثار اجتماعية واقتصادية.. والعامل الثاني أي الأثار المترتبة على هذه العقيدة هي النقطة المشتركة بينهم وبين المنافقين.

فالمنافقون رفضوا الاسلام لأنه دين العدل والمساواة ولم يكن موقفهم منه كعقيدة مماثلا لموقف اليهود، فالمنافقون من الأوس والخزرج وثنيين وكانوا يعادون الدين اليهودي ولكن اليهود بعد الاسلام أستثمروا معارضة بعض الأوس والخزرج لمبدأ المساواة الاسلامي وحرضوهم على محاربة الاسلام من الداخل.

---

(1) تفسير ابن كثير، م 6، ص 611.
(2) البقرة 120 . 121.

5

أعــداء الديــن
أعــداء الـمـجـتـمـع
الـذي أفــرزه



5

أعـداء الديـن أعـداء المـجتمـع الذي أفـرزه

لقد حرّف اليهود شريعة موسى التي جاءهم بها في التوراة وحوروها لتخدم أهواءهم واتخذوا منها تجارة يشترون بها ثمنا قليلا وعشعشوا في المجتمعات الضعيفة الجاهلة يمتصون دمها وكانوا يحاربون أي خطوة للاصلاح في أي مجتمع يعيشون فيه وهذا سر العداوة التاريخية بينهم وبين كل الرسل والأنبياء وقد بعث الله لهم رسلا وأنبياء كثر الا أنهم كانوا في كل مرة يصدون فأذاقهم ألوان العذاب والخزي في الحياة الدنيا ولكنهم لم يرتدعوا وقد فصل القرآن الكريم تاريخ عصيان اليهود وعدم طاعتهم لأوامر الله حتى وصلوا الى حد استحقوا معه الاذلال والاحتقار وفي ذلك يقول تعالى (وضربت عليهم الذّلة والمسكنة وباؤو بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يَكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) [1].

وقد كانت المعصية والعدوان سمتي بني اسرائيل على مدى التاريخ وبدت هاتان السمتان في كفرهم بآيات الله وقتل النبيين.. وكان عقاب الله لهم على ذلك أن غضب عليهم وجعلهم أذلاء ساكنين.

اذن، بعد أن أحْرز الاسلام في «المدينة» ملامح المجتمع الجديد الذي بني على قواعد الاسلام وتأكدت فيه العدالة والمساواة بعد ذلك تحدد أعداء هذا المجتمع الجديد من خلال الممارسة اليومية العملية وهم الفئات الثلاث:

(1) مشركو قريش الذين يقيمون في مكة ويشنون الحرب على المسلمين.

(2) اليهود.

(3) المنافقون من العرب الذين أظهروا الاسلام والتقوى وتحالفوا مع اليهود لضرب الاسلام من الداخل.

---

(1) البقرة ـ 61.

وهذه الفئات الثلاث وجدت نفسها وجها لوجه مع المجتمع الاسلامي الجديد لأنه يدمر القواعد الاجتماعية الظالمة التي كانت تحكم المجتمع قبل تأسيس المجتمع الاسلامي الجديد في المدينة.

وهكذا تحددت طبيعة المعركة فهي معركة دينية اجتماعية واقتصادية واذا كان اليهود قد حاربوا الاسلام بسبب ديني واقتصادي فان المشركين والمنافقين قد حاربوا الاسلام بسبب اجتماعي واقتصادي وقد كشف الاسلام دوافع هؤلاء المشركين والمنافقين لعداوة الاسلام فهم يرفضون العدالة والمساواة يرفضون العدالة كمبدأ اقتصادي والمساواة الاجتماعية.

فالمشركون عندما دعاهم الرسول الى الايمان رفضوا واستكبروا وقالوا كيف نؤمن بهذا الدين الذي آمن به السفهاء؟؟ وهم يقصدون الضعفاء الذين ليس لهم مال أو عصبية أو سلطة وأنهم أي المشركون اذا ما آمنوا بالاسلام فانهم سيفقدون امتيازاتهم الاجتماعية والاقتصادية وقد صورهم القرآن تصويرا شاملا جامعا صوّر نفسية هؤلاء الظالمين وأخلاقهم وما يدور في دخائلهم يقول تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون في قلوبهم مرض فزادهمَ الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون واذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا انما نحن مصلحون الا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء الا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شيطانهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزؤن الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين مثلهم كمثل الذي أستوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون).. (1)

هذه الآيات القرآنية الكريمة التي وردت في سورة البقرة وهي (مدنية) ترسم صورة أولئك الذين تجاوزهم التاريخ وتجاوزتهم الأيام وحاولوا السباحة ضد تيار القدر والتاريخ، لقد تحولوا الى مسخ، فهم أقل قيمة من الحيوان لأن من الحيوانات ما هو مفيد ولكن هؤلاء المشركين والمنافقين ليس فيهم الا الشر والضرر (في قلوبهم مرض، فزادهم الله مرضا).. لقد اختلطت عليهم المعايير فهم يدعون الايمان وما هم بمؤمنين ويحاولون أن يخدعوا الله والناس وذلك ما هو أتعس من الجنون فماذا نسمي من يظن أنه يستطيع أن يكذب على الله وليس على الناس فقط..

(واذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا انما نحن مصلحون الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون).. واختلاط المعايير عند أولئك المتكبرين الكافرين، اختلاط المعايير عندهم بالنسبة للعقيدة إنعَكس على معاييرهم الدنيوية فهم يدعون الاصلاح في حين أنهم يمارسون الفساد ولكن دون شعور وهذا يؤكد أنهم تجاوزوا حالة الكفر وحالة الفساد الى حالة

---

(1) البقرة ـ الآيات 8 ـ 18.

«اللاشيء» كل ذلك قادهم الى موقف طبيعي فما بعد أنهم بما خيّل لهم هوسُهم أعتبروا أنفسهم أرقى وأسمى وأعظم من البشر الآخرين (واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء).. لقد أعتبر المنافقون أنفسهم صفوة ممتازة عن الناس ولهذا رفضوا الاسلام الذي يساوي بين جميع المسلمين والذي آمن به المستضعفون المستعبدون وأصبحوا بنعمته يقفون في نفس المكان وعلى نفس المستوى مع من كان يترفع عنهم أو يمتاز عنهم قبل الاسلام.. (الا انهم هم السفهاء) وبموقفهم هذا أثبتوا أنهم هم السفهاء وليس أولئك الذين يصفونهم بهذه الصفة، فان السفيه هو الذي يظن أنه أفضل الناس وله حق استعبادهم والتحكم فيهم.

وهذا التحليل القرآني المتداخل لنفسية المنافقين يكشف لنا الشخصية المرضية التي نجدها في كل زمان ومكان واذا كانت كلمة النفاق في وقتنا هذا قد أخذت معان ومدلولات تختلف في استعمالها العام فاننا اذا رجعنا الى تعريفها القرآني لتكشفت حقائق عدة:

أولا: أن الذي يظهر خلاف ما يضمر هو مريض في قلبه وأن الله لن يشفيه بل سيزيده مرضا وهو منافق يشكل خطرا على المجتمع الاسلامي والذين يظهرون الايمان أمام الناس ويضمرون الشرك ويندسون بين صفوف المسلمين ويعملون من أجل أحداث الضرر لهم هم قوم مرضى، واذا استخدمنا مصطلحات علم النفس سنقول أن شخصياتهم غير سوية وكل الحركات السرية التي ظهرت في الاسلام وأتبعت أسلوبا باطنيا هي من هذا النوع، هي حركات دافعها مرضي.. و«التقية» التي يتذرعون بها ما هي الا تعريف للنفاق فقد اخترع هؤلاء المنافقون مبدأ أسموه التقية بأن أحلّوا لأنفسهم أن يظهروا شيئا ويضمرون عكسه وأن مبدأ التقية هذا لا نجده سائدا الا في أوساط المتآمرين على الاسلام باسم الاسلام وأن هؤلاء المنافقين الذين يتذرعون بمبدأ التقية الذي أخترعوه هم دائما وعلى مدى التاريخ الطابور الخامس لأعداء الاسلام.

ثانيا: أن المنافقين ديدنهم الافساد والتخريب وهم يمارسون الفساد في الأرض بدعوى الاصلاح يقول تعالى (واذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا انما نحن مصلحون الا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون).. وهم يمارسون الفساد بدون شعور أي من دافع اختلاط المعايير عندهم بين الافساد والاصلاح وذلك بسبب مرضي أو ما يسمى بلغة العلم اليوم «السادية» فهؤلاء المفسدون هم من المرضى الذين يتلذذون بكل أذى يلحقونه بالناس وذلك كان شرع الحركات الباطنية التي لبست ظاهريا ثوب الدين عبر التاريخ وأنظر في الآثار التي تركوها على مسيرة الاسلام والمسلمين فلن تجد فيها سوى الضرر والتفرقة والاقتتال وبث النزاع.

وهدفهم من كل ذلك أن يتنازع المسلمون فيفشلوا وتذهب ريحهم.. والله سبحانه وتعالى بعث نبيه محمد (ليظهره على الدين كله) وجعله خاتم النبيين وجعل الدين الاسلامي خاتمة الأديان فبوفاة محمد أنقطع الاتصال بين الانسان والله، فالله لا يتصل بالبشر الا وحيا أو من وراء حجاب عن طريق الرسل والأنبياء وكان محمد امامهم وخاتمهم ودين الاسلام امتاز عن

بقية الأديان بأنه متمم لها وبهذا يكون هو الدين الكامل وهذا الدين الكامل يخلق الانسان «النموذجي»..

يقول تعالى (لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين) وبلغة (الفلسفة) فان الانسان «بالقوة» يستطيع أن يرقى الى مستوى أحسن تقويم وان كان «بالفعل» يعاني من نقائص كثيرة تشده الى نوعه الحيواني وتصده عن الوصول الى الحالة الملائكية التي أرادها الله لسيدنا آدم عندما كان في الجنة هو وزوجته.

وقضت القوانين الالهية أن يكون لكل شيء مدى ولكل شيء حد أعلى وحد أدنى وهذان الحدان يعملان بشكل مضطرب أقرب الى الخبط العشوائي الطبيعي ولكن بالاسلام تحددت أسس القوانين البشرية والكونية وأنقشعت عوامل التخبط والخبط وأصبح لكل نشاط «دالته» وفي القرآن الكريم نجد لكل شيء في هذا الكون معنى و«دلالة» ودورا فالظواهر الطبيعة ليست مجرد ابداعات أنتجتها صدفة الحركات والتقلبات الطبيعية كما يزعم الماديون، ولم يعد الانسان مجرد كائن ألقت به الظروف والصدف وقوانين التطور والارتقاء الى وسط غابة الكون، والانسان نفسه عالمُ وسطَ عالمٍ له ضوابطه وتكويناته البيولوجية والنفسية والعاطفية وجعلها متسقة ومتناغمة مع حركة الكونً الشاملة وفي القرآن فان للشمس وللقمر والجبال والرياح والأمطار والسحب والانعام والنجوم لكل ذلك معنى ودور محدد ولكن ذلك كله يتحدد من منظور ما تؤديه نحو الانسان وأن نظرة الانسان وتقييمه لهذه المخلوقات وهذه الظواهر يؤثر في النهاية في قيمة وموقع الاثنين.

فقبل الاسلام كان الله تعالى يعاقب المشركين به والظالمين والمتكبرين وكل من يخالف قوانين العدالة والمساواة الالهية يعاقبهم مباشرة ويكلف الطبيعة بأن تكون الاداة لتنفيذ هذا العقاب فالزلازل والرياح والطوفان التي عاقب الله بها الأمم الكافرة كانت تعني تعبيرا محددا وهي أن الطبيعة التي خلقها الله كانت أكثر تقوي من الانسان فهي تطيع ربها ولا تعصيه عكس الانسان الذي كان جهولا وهكذا عاقب الله قوم نوح وعاد، وثمود ولوط وغيرهم أما بعد الاسلام فلم يعد للطبيعة هذا الدور لأن الاسلام قد أرتفع بالانسان الى مرحلة أخرى مرحلة أعلى وقضى الله فيه بأن يؤخر الناس الى يوم الحساب.

وكان هذا التأخير أو هذا التأجيل أحد النعم التي أنعم الله بها على الانسان وكانت هدفا من الأهداف التي كان الأنبياء والرسل يتمنون من الله أن يكتبها لهم يقول تعالى (أنا أرسلنا نوحا الى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم قال يا قوم أني لكم نذير مبين أن أعبدوا الله وأتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى إن أجل الله اذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون) [1].. وكذلك كان الأمر بالنسبة لابراهيم.

---

(1) نوح 1 ــ 3.

6

مجتمع
الإنسان الحق



6

مجتمع الإنسان الحق

وكان هناك على مر القرون أقوام يرفضون القوانين الإلهية يرفضونها في الطبيعة وفي أنفسهم وهؤلاء نجدهم من الأزل والى اليوم فالمشركون والمنافقون واليهود في مجتمع المدنية كانوا مثل من سبقهم من العصاة ومثل من بعدهم من هذه الفصيلة «يريدونها عوجا» ودافعهم الى ذلك أنهم لا يفقهون فهم كما وصفهم القرآن (صم، بكم، عمى) فهم لا يرجعون..

كان مجتمع «يثرب» في أيام الرسول مجتمع الدعوة الذي بنى من وحدة «الانسان الحق» مجتمعا يقوم على الحرية فلا عبودية الا لله فهو المعبود وهو المستعان مجتمعا بلا ملك، بلا امبراطور بلا وزراء وبلاط وذلك هو التطبيق العملي لقوله تعالى (إياك نعبد و إياك نستعين).

ويقوم هذا المجتمع القرآني الرسولي على المساواة فلا فرق بين فرد وآخر الا بالتقوى وفرق التقوى ينبع من الفرد ويقيمه الله، ويكون الثواب على هذا الامتياز يوم القيامة أما في الحياة الدنيا فالناس سواسية في نصيبهم من الغنائم ودورهم في معارك الجهاد وفي اقامة الحدود عليهم.

وبلغ كل انسان في نفسه مبلغا من السعادة والتألق عظيم لأن الازدواجية قد زالت من الفرد ومن المجتمع فالانسان ضعيف أمام ربه فقط وقوي أمام من عداه، وأصبح الفرد يشعر بل يؤمن ويعتقد أن جهده الخاص وجهده الاجتماعي يصب في غاية واحدة مع الغاية الكونية الشاملة ولم تعد مظاهر الحياة الصغيرة مثلما كانت تعني لمن سبقهم أو لبعض ممن جاءوا من بعدهم.

فما تعني الثروة، والثرى، والغنى، والغنيّ وماذا يعني الملك أو الامبراطور؟ لقد أصبح كل مسلم قويا بالايمان ولم يعد في نفسه أي مركب نقص يحاول أن يعوضه بالجاه أو المال أو ليس السعي وراء الثروة والجاه مجرد تعبير عن مركب نقص ومحاولة لتعويضه؟

والانسان المسلم هو الانسان الكامل الذي لا تشوبه نقيصة من النقائص الحيوانية التي تجوس في دخيلة الفرد غير المسلم فبالنسبة للمسلم فان الله أكبر، أكبر من كل شيء وأكبر من

كل فرد. والمشركون الذين تمكنت الدنيا من نفوسهم هم (أسفل سافلين) أختلت المعايير فيهم وأمامهم ومازالوا يقيمون الأمور بمقاييس جاهلية يقول تعالى في سورة ابراهيم: (الذين يستحبّون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجا أولئك في ضلال بعيد) [1]..

فهؤلاء المشوهون لا يطيب لهم ما استقام من الأمور لأنها لا تتسق مع نفوسهم المعوجة فهم لذلك يبغونها عوجا ولقد رأينا هؤلاء المشوهين رأيناهم في مجتمع المدينة وهم «المنافقون» وسنراهم على مر السنين والقرون في صور مختلفة يحملون أسماء وألقابا شتى ولكن هدفهم على مر الأيام واحد هو اعتراضهم على أن يكون الناس وأن تكون الدنيا كما أرادها الله، يحاولون أن يطفئوا نور الله بأفواههم.. وأن حاولوا أن يلبسوا أقنعة دينية ليخفوا وراءها وجوههم الشيطانية القبيحة.. (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون).

وقد حارب المنافقون التركيب الجديد للمجتمع الاسلامي وحاولوا تسفيه قاعدة المساواة وتعاونوا في ذلك مع اليهود فعندما حرم الله الاستغلال وحاربه في صورته البدائية المتوارثة وهي ـ الربا ـ شن اليهود والمنافقون حملة عدائية واسعة ضد هذا التحريم لأنه يدمر جذورهم وتمثل قصة «فنحاص» المرابي اليهودي حلقة من حلقات حرب اليهود والمنافقين لمبدأ العدالة ومنع الاستغلال في الاسلام فقد دعا أبوبكر الصديق أحد اليهود ويسمي فنحاص الى الاسلام.. فرد عليه الأخير بأننا لسنا في حاجة الى إلهكم الفقير الذي يطلب الاقتراض من الناس وأنه سيرد إليهم ما يقترض مع أرباح مضاعفة في حين يمنع هذا المبدأ عن الآخرين مشيرا الى قوله تعالى (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) [2] وهذا اليهودي لم يحرف القرآن عن جهل لأن اليهود أهل كتاب وهم قادرون على فهم القرآن ومعانيه، ولكن الدافع الواضح هو معارضة اليهود لما يدعو إليه الاسلام من عدالة ومنع للاستغلال.

وقد كان الرسول ومن معه من المسلمين يتسلحون في معاركهم ضد أعداء الاسلام من المشركين والمنافقين واليهود بقوة القرآن وبالتوجيهات الإلهية القرآنية التي تحرضه على الاستمرار في دعوته ويعده بالنصر فيما يستمر نزول الوحي يبين للمسلمين ويشرح لهم جوانب الدين ونجد في السور القرآنية المدنية تشريعات الطلاق والميراث والزواج وما أحل للمسلمين وما حرم عليهم وبدأت تتكامل المميزات التي تميز الاسلام على الأديان التي سبقته وجوانب التتميم التي يقوم بها الاسلام لغيره من الأديان وتكاملت حجج الاسلام ضد المشككين فيه من مشركين ومنافقين ويهود سواء من حيث ما يتصل بالعقيدة أو بالعبادات أو بالحدود وما إليها حيث أدرك أعداء الاسلام بمختلف فصائلهم أنهم فقدوا كل أمل في محاصرة هذا الدين وألقوا أسلحتهم العلنية سواء كانت في صورة جدل أو صورة سيف وبدأ الكثير من اليهود يتسلل في طائفة

(1) سورة ابراهيم ـ 3.
(2) البقرة ـ 254.

المسلمين في شكل من أشهر أسلامه وكذلك بعض العرب الذين بقي حقدهم على الاسلام في الصدور وأظهروا كلمات الايمان على الشفاه فقد قطع الاسلام على طريق القوة شوطا هائلا ولم تعد المواجهة المعلنة معه ذات جدوى وهكذا اختار الأعداء لباسا أو برقعا يسترون به وجه حقيقتهم وبيتوا النية على تدمير الاسلام من الداخل وهؤلاء الأعداء سنصادفهم دائما يرفعون رؤوسهم اشعالا للفتن أو تشويها للحقائق أوتآمرا مع العدو الخارجي فهم يتقلبون وينقلبون ولكن هدفهم دائما واحد وهو محاربة الاسلام وتدمير العرب عصب الاسلام وقلب قوته وصلب كيانه.

وحارب المنافقون والمشركون واليهود حاربوا المساواة وهي القاعدة القرآنية التي قام عليها مجتمع المدينة فحاولوا في حياة النبي النفخ في رماد الفتنة الجاهلية بين الأوس والخزرج وحاولوا بث الفرقة بين المهاجرين والأنصار وألّبوا القبائل العربية على المسلمين وأقاموا حلفا مع المشركين وهاجموا المدينة في تلك الغزوة التي عرفت بغزة الخندق ولم يتمكن المشركون واليهود فيها من الوصول الى هدفهم من ضرب الاسلام.

ولو حللنا الدوافع التي حركت اليهود والمشركين للاعداد لهذا التحالف والعدوان لوجدنا أن الدافع الأساسي هو ادراك اليهود أن الاسلام قد بدأ يبني قوته وأن هذا الدين سيدمر مجتمعهم بعد أن ظهر القرآن على عقيدتهم ودينهم فقد «آن للمسلمين بعد اجلائهم بني النظير عن المدينة وبعد بدر الآخرة وبعد غزوتي غطفان ودومة الجندل أن يركنوا الى شيء من الطمأنينة الى الحياة بالمدينة.. وذهبوا ينظمون عيشهم وكانوا من بعد أقلّ شظفا بما غنموا في غزواتهم هذه» [1].. فلقد ظن اليهود في البداية أن ما جاء به محمد ليس سوى نزعة أو دعوة من الدعوات الإلهية المماثلة لدعوة عدد من الأنبياء ولن تلبث أن تزول، ولكن بعد أن تيقنوا أن محمدا قد بدأ ينشر ويرسخ دينا قويا أحسوا أن الخطر على مصالحهم بدأ يتجسد في الدين القوي الخالي من النقائص والتناقضات عندئذ شرعوا في التخطيط لحرب واسعة لتدمير هذا الدين الجديد ولكن الله لم يمكنهم من غايتهم وردهم ومن معهم على أعقابهم خاسرين.

هكذا كانت أوضاع المدينة في عهد النبي الكريم.. فيها من ضروب السلم وضروب الحرب فقد تآمر عليه وعلى دعوته المشركون واليهود وبعد فتح مكة أخذت الدعوة الاسلامية بعدا جديدا فقد أصبح البيت الحرام وأصبحت مكة وهي منزل الوحي أصبحت في دائرة الاسلام وتوافدت القبائل العربية على محمد رسول الله (ص) تعلن اسلامها وتنظم الى قوة الاسلام وأنزل الله تعالى (اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا).

وقبل أن يلحق النبي (ص) بالرفيق الأعلى كانت أغلب القبائل العربية قد دخلت الاسلام ووجد العرب أنفسهم لأول مرة في التاريخ مرتبطين الى بعضهم في رابطة واحدة هي الاسلام بعد أن كانوا مجرد قبائل تتحارب وتتحالف على الحرب ويهادن بعضها بعضا في أشهر

---

(1) محمد حسين هيكل ـ حياة محمد، ص 327.

معلومات.. اذن وجدت في أيام النبي رابطة عربية جديدة وأصبح لهذه الرابطة هدف عقائدي إلهي، وكانت لغة القرآن العربية ذات البلاغة البليغة عاملا خطيرا في توحيد العرب بالاضافة الى وحدة الطبع والتراث والمزاج وهكذا أصبح العرب قوة واحدة ينشدّون الى مكان مركزي هو المدينة المنورة.

كما أن المعارك الهجومية والدفاعية التي خاضها الرسول جعلت العرب للمرة الأولى يبذلون الدم في سبيل مبدأ أو قضية بعد أن كانوا يحاربون أيام الجاهلية من أجل مغانم مادية أو لثأر شخصي.

وهكذا تماسكت القوة العربية وظهرت ملامح أمة صاعدة شدت إليها العرب الآخرين ممن هم خارج الجزيرة العربية فأحسّ عرب العراق وعرب الشام بأن أخوتهم في الجزيرة قد قويت شوكتهم فأنشدوا إليهم وانتظروا اليوم الذي تكتمل فيه حلقة القوة العربية في الجزيرة واليمن والشام والعراق.

وهذا الوضع الذي كانت فيه القبائل والعشائر العربية قبل الاسلام وضع بالغ الأهمية من حيث تقييم «الحضارات»، فقد نبه الاسلام العرب الى قوتهم كمجموعة ذات أصل مشترك ولغة مشتركة ومزاج واحد بعد أن نبههم الاسلام الى الايمان بالله الواحد الأحد.

فبالنسبة للعرب.. ترتب على الحقيقة الدينية حقيقة أخرى هي الحقيقة القومية وقد كانت الحقيقة الثانية محصلة «تلقائية» للأولى ومن قال أن الحقيقة الثانية أي «القومية» كانت هدفا مقصودا ومدروسا كان مصيبا.

ومن قال أنها كانت عفوية ترتبت مباشرة على قيام الحقيقة الأولى كان مصيبا أيضا. واذا رجعنا الى الفترة النبوية في المدينة لوجدنا شواهد كثيرة على ما سقناه.

وهذه الحقائق ستفعل فعلها لوقت طويل وعلى مدى بعيد وبشكل عميق في التاريخ العربي والاسلامي اللاحق، فكلما كان العرب أقوياء كان الاسلام كذلك وكلما ضعف العرب انعكس ذلك بشكل مباشر وسريع وواضح على وضع الاسلام نفسه، وهذا ما جعل أعداء الاسلام على مر التاريخ يوجهون هجومهم على العرب كلما أرادوا أن ينالوا من الاسلام.. وربما نبهنا الى هذه الحقيقة الدور الذي قام به عبد الله بن سبأ اليهودي الذي أدعى الاسلام وحاول أن يضرب الاسلام في العرب فكرس كل حياته وجهده لزرع الفتن بين الأطراف العربية وعمد الى اشعال نار الخلاف القبلي الذي كان بين الأطراف العربية قبل الاسلام لأنه يدرك وهو الذي عاشر العرب وفهم الاسلام وعاصر النبي أدرك أن لا قوة للاسلام الا بالعرب وأنه اذا تنازع العرب فسيفشلوا وتذهب ريحهم وتتضعضع بالتالي حركة الاسلام.

7

هجوم الدنيا

7

هجـوم الـدنيـا

في العام العاشر للهجرة قبض رسول الله (ص) بالمدينة بعد أن أنزل الله تعالى عليه في حجة الوداع «اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا».. [1] وتتعدد الروايات التاريخية حول اليوم الذي نزلت فيه هذه الآية وحول المكان ولكن يكاد يكون هناك شبه اجماع من الرواة على أنها نزلت في يوم الجمعة يوم الوقوف بعرفة في حجة الوداع، ويورد الرواة أن عمر بن الخطاب قد بكى بعد أن سمع هذه الآيات وفسر البعض بكاءه على أنه أحس أن الرسول الأعظم قد أكمل رسالته وفرغ من المهمة التي أختاره الله لها، وأن منيّته باتت قريبة.

وقد مات الرسول بعد حجة الوداع «وقد أخبر نبيّه والمؤمنين في هذه الآية أنه قد أكمل لهم الايمان فلا يحتاجون الى زيادة أبدا وقد أتمه الله فلا ينقصه أبدا، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدا «ولم ينزل بعد هذه الآية تحليل أو تحريم».. [2]

اذن توفي الرسول والمؤمنون مطمئنين الى أن دينهم قد اكتمل وقد أخبرهم الله بهذا التمام والاكتمال في سورة المائدة.. تلك حكمة إلهية عظيمة فلو مات الرسول الكريم (ص) قبل أن يُبلّغ المسلمون بأن الدين قد اكتمل وأن اتصال السماء بالأرض عبر الرسول قد توقف فمحمد هو خاتم النبيين والمرسلين وأن القرآن قد اكتمل نزوله وحياً من الله، لو لم يكن هذا لحلّت بالمسلمين فتنة رهيبة في دينهم أين منها تلك الفتنة الدنيوية التي شهدها العرب بعيد وفاة الرسول.. ولكن حكمة الله العظيمة ومشيئته ونصرته لدينه الحنيف كل ذلك أقتضى أن يُبلّغ المسلمون أن دينهم قد تم واكتمل وأنه لم يعد لمدعي مكان ولم تعد زيادة لمتزيّد فقد أكتمل الاسلام باكتمال القرآن.

---

(1) المائدة ـ آية 3.

(2) ابن كثير، التفسير، ص 488.

ولم تكد جفنا النبي تغمضان حتى هجمت الدنيا على المسلمين بكل ما فيها من صراع ونزاع على الحكم والسيادة والسلطان حتى كاد طوفانها أن يفيض فيطغى على ما زرعه النبي في نفوس المسلمين من حلم وتقوى.. فقد أنقضى عهد وبدأ آخر، انتهت مرحلة استثنائية في حياة المدينة وهي مرحلة النبوة وعادت الحياة الى سيرتها الأولى وان كان الناس الذين يمارسون الحياة فيها هم غير أولئك الذين كانوا قبل ظهور الاسلام، لقد غير الاسلام نفوسهم وعقيدتهم ولكن هناك فطرة انسانية في ذات كل انسان وان كانت العقائد تهذب تلك الفطر والطباع فانها لا يمكن أن تزيلها.. لقد كان محمد (ص) نبيا يوحى إليه وقد انقطع الوحي باكتمال القرآن وقد كان محمد نبيا مصطفا من الله أما بعد موته فان الذين بقوا من بعده ليسوا الا مجرد بشر مثلهم مثل غيرهم وان كانت نفوسهم قد تهذبت وقومها الاسلام وصحبةُ الرسول.

واذا قلبنا المصادر والمراجع التي صورت المشاهد التي تلت وفاة النبي دقيقة بدقيقة وحاولت كما يبدو من تقليبها تسجيل كل كلمة قيلت من أولئك الذين كانوا يقلبون الأمر بعد وفاة الرسول اذا فعلنا ذلك لأمكن لنا تحديد الاتجاهات التي أخذتها الأمور والمنظور الذي أنطلقت منه الأطراف في تخطّف السلطة والحكم، وهاك «سيناريو» تلك اللحظات أو الساعات كما ساقها ابن الأثير في كتابه «الكامل» في التاريخ:

«لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة فبلغ ذلك أبا بكر فأتاهم ومعه عمر وأبوعبيدة بن الجراح فقال:

ما هذا؟ فقالوا منا أمير ومنكم أمير فقال أبوبكر:.. منا الأمراء ومنكم الوزراء ثم قال أبوبكر قد رضيت أحد هذين الرجلين عمر وأبا عبيدة أمين هذه الأمة فقال عمر أيكم يطيب نفسا أن يخلف قدمين قدّمها النبي (ص) فبايعه عمر وبايعه الناس فقالت الأنصار أو بعض الأنصار لا نبايع إلا عليا قال: وتخلّف عليُ وبنو هاشم، والزبير، وطلحة عن البيعة وقال الزبير: لا أغمد سيفا حتى يبايع علي فقال عمر: خذوا سيفه وأضربوا به الحجر ثم أتاهم عمر فأخذهم للبيعة وقيل لما سمع علي بيعة أبي بكر خرج في قميص ما عليه أزار ولا رداء عجلا حتى بايعه ثم استدعى ازاره ورداءه فتجلله والصحيح أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ما بايع الا بعد ستة أشهر وقيل لما اجتمع الناس على بيعة أبي بكر أقبل أبو سفيان وهو يقول:

اني لأرى عجاجة لا يطفئها الا دم يا آل عبد مناف فيم أبوبكر من أموركم؟ أين المستضعفان؟ أين الأذلان؟ علي والعباس، ما بال هذا الأمر في أقل حي من قريش ثم قال لعلي أبسط يدَك أبايعك، فوالله لئن شئت لأملأنها عليه خيلا ورجلا فأبى علي عليه السلام» [1].

وسنعود الى مناقشة هذا المشهد المسجل في كتب التاريخ بعد أن نسوق إليك ما أورده ابن خلدون في تاريخه من تصوير ورواية لهذا المشهد يقول ابن خلدون: «لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أرتاع الحاضرون لفقده حتى ظن بعضهم أنه لم يمت وأجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة يبايعون سعد بن عبادة وهم يرون أن الأمر لهم بما أووا ونصروا وبلغ الخبر الى

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 221.

أبي بكر وعمر فجاءوا إليهم ومعهم أبو عبيدة ولقيهم عاصم بن عدي وعويم بن ساعدة فأرادوهم على الرجوع وخفّضوا عليهم الشأن فأبوا الا أن يأتوهم فأتوهم في مكانهم ذلك فأعجلوهم عن شأنهم وغلبوهم عليه جماعا وموعظة، وقال أبوبكر نحن أولياء النبي وعشيرته وأحق الناس بأمره ولا ننازع في ذلك وأنتم لكم حق السابقة والنصرة فنحن الأمراء وأنتم الوزراء وقال الحباب بن المنذر بن الجموح: منا أمير ومنكم أمير وأن أبوا فأجلوهم يا معشر الأنصار عن البلاد فبأسيافكم دان الناس لهذا الدين وان شئتم أعدناها جذعة أنا جذيلها المحكك وغديقها المرجب وقال عمر: ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصانا بكم كما تعلمون ولو كنتم الأمراء لأوصاكم بنا ثم وقعت ملاحاة بين عمر والحباب بن المنذر وابو عبيدة يخفضهما ويقول: اتقوا الله يا معشر الأنصار أنتم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدّل وغير فقام بشير بن سعد بن النعمان ابن كعب بن الخزرج فقال: ألا ان محمدا من قريش وقومه أحق وأولى ونحن ان كنا أولى فضل في الجهاد وسابقة في الدين فما أردنا بذلك الا رضى الله وطاعة نبيه فلا نبتغي به من الدنيا عوضا ولا نستطيل به على الناس، وقال الحباب بن المنذر نفّست والله عن ابن عمك يا بشير فقال: لا والله ولكن كرهت أن أنازع قوما حقهم فأشار أبو بكر الى عمر وأبي عبيدة فامتنعا وبايعا أبا بكر وسبقهما إليه بشير بن سعد ثم تناجى الأوس فيما بينهم وكان فيهم أسيد بن حُضير أحد النقباء وكرهوا أمارة الخزرج عليهم وذهبوا الى بيعة أبي بكر فبايعوه وأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر وكادوا يطأون سعد بن عبادة فقال ناس من أصحابه: اتقوا سعدا ولا تقتلوه فقال عمر: أقتلوه قتلة الله وتماسكا فقال أبوبكر: مهلا يا عمر الرفق هنا أبلغ وأعرض عمر ثم طلب سعدا في البيعة فأبى وأشار بشير بن سعد بتركه وقال: انما هو رجل واحد فأقام سعد لا يجتمع معهم في الصلاة ولا يفيض معهم في الحديث حتى هلك أبوبكر.[1].

وما سقناه من تاريخ ابن الأثير وابن خلدون يختلف في تفاصيل صغيرة ويختلفان مع غيرهما من كتب التاريخ بما لا يزيد عن ذلك الصغر.. ولكنها كلها تلتقي في المجمل وهو ان خلافا خطيرا وحادا وقع بين المسلمين بعد دقائق أو ساعات على الأكثر من وفاة الرسول وما هو دافع هذا الخلاف الخطير الذي كاد أن يؤدي الى حرب بين المسلمين لا تبقي ولا تذر؟ لسنا في حاجة الى كبير عناء لكي نتوصل الى أن ذلك الخلاف كان حول من يكون الحاكم على المسلمين ولم يكن حول فتوى من الفتاوى أو حول مبدأ من مبادىء الشرع أو أسلوب في العبادات وكان عنوان ذلك الخلاف هو: من له أحقية الحكم؟ وهناك انقسم المسلمون في سقيفة بن ساعدة وانقسم المنقسمون.

أنقسم المسلمون الى قسمين المهاجرون ـ والأنصار.. وكان الأنصار هم السباقون الى اعطاء الحق لأنفسهم فأعلنوا مرشحهم للحكم وهو سعد بن عبادة وذكروا من الأسباب والمبررات ما أعتقدوا أنها تؤهلهم للحكم كطائفة ومن بين تلك الأسباب والمبررات ما قاله على لسانهم الحباب بن المنذر بن الجموح أنه بسيوف الأنصار دان الناس لهذا الدين.

(1) ابن خلدون، التاريخ، المجلد الثاني، ص 853 ـ 855.

والمهاجرون أعتبروا أن الحكم لا بد أن يكون لهم لأنهم كما قال أبوبكر: (أولياء النبي وعشيرته وأحق الناس بأمره وأنهم في ذلك لا ينازعوا) والأمر لم يقف عند هذا الحد بل انقسم المهاجرون الى قسمين.. كذلك انقسم الأنصار فالمهاجرون يريدونها لهم ولكن أبا سفيان أستكبر أن يكون هذا الأمر في بني تيم أي الى أبي بكر بن أبي قحافة وتيم لم تكن من البطون الهامة في قريش ولا عهد لها بالسلطان والحكم واذا كانت حجة المهاجرين أنهم أولياء النبي وعشيرته فان بني هاشم أول الأولياء وأقرب الأقربين ولهذا بادر أبو سفيان الى علي بن أبي طالب ليبايعه وهو يقول: إني لأرى عجاجة لا يطفئها الا دم يا آل عبد مناف فيم أبوبكر من أموركم؟ أين المستضعفان؟ أين الأذلان؟ علي والعباس ما بال هذا الأمر في أقل حي من قريش؟ وأنقسم الأنصار أيضا الى قسمين الأوس والخزرج فقد بادر الأوس الى مبايعة أبي بكر ليس حبا فيه ولكن كرها في الخزرج.. لقد كانت اذن معركة على الحكم والسلطة سمعنا فيها الملاحاة وكلمات الدم والسيوف والقتل والتهديد بالاجلاء اجلاء المهاجرين عن المدينة حدث كل هذا والنبي مسجى في منزله ولم يدفن بعد، لقد أطلت السياسة برأسها بعد أن كان الوهج النبوي يضيء بقوته كل شيء فلا يكاد يوجد مكان لما هو محض دنيوي وهكذا نرى عليا بن أبي طالب يتأخر عن بيعة أبي بكر ستة أشهر كاملة في حين يعتزل سعد بن عبادة المسجد ولا يصلي خلف أبي بكر ولا يغشى مجالس المسلمين بعد أن هدده عمر بن الخطاب بالقتل في السقيفة لا لشيء الا أنه رفض أن يرتضي سلطة أبي بكر.

ونرى أبا سفيان يستكبر على أبي بكر بن أبي قحافة أن يصبح على رأس العرب نقول أن السياسة طفحت وبدأت قوانينها تفعل فعلها، ألم نر أبا قحافة فما بعد والد أبي بكر الصديق يستكثر على ابنه أن يرفع صوته على أبي سفيان فيرد عليه ابنه أن الاسلام رفع قوما وأذل آخر، ونرى السياسة وفعل قوانينها في أن معاوية بن أبي سفيان يحارب عليا بن أبي طالب على ذلك المنصب الذي سبق ان رشحه له أبو سفيان يوم السقيفة.. وقد تحدث الكثيرون في أمر الخلافة.

فمن قائل بأن الخلافة كمنصب نص عليه الرسول ويوردون عددا من الأحاديث تأكيدا لوجهتهم.. بل أن من بينهم من يشتط في التأويل والاجتهاد ويحاول أن يفسر بعض الآي الكريم للتدليل على ما يظن أو يريد.

وهناك من قفز قفزات أخرى فقال أن القرآن والحديث لم يتوقفا عند حد النص على منصب الخلافة بل هما وصلا الى النص على اسم الخليفة وعلى توارث هذا المنصب ومن هؤلاء من يعطي هذا الحق لعلي بن أبي طالب ومن بعده الى أبنائه من فاطمة الزهراء وهؤلاء عرفوا أو عرفوا بأنهم أهل «العاطفة وعرفناهم في التاريخ الاسلامي بالعلويين وأما الذين ذهبوا الى «العصب» فانهم يقولون أن الخلافة لعمومة الرسول وأبناء عمومتهم وأولاهم بذلك كما يذهبون هم العباس وأبنائه وهؤلاء الذين عرفوا في التاريخ. الاسلامي «بالعباسيين».

نقول أن الكثيرين خاضوا في موضوع الخلافة ووضعت فيها مؤلفات مجلدة وغير مجلدة وانحازوا وتحيزوا وقد ذهب البعض في ذلك الى قول شطط وسنناقش ذلك بشيء من التحليل انطلاقا من الايمان والعقل والتاريخ.

8

نحو السياسة



8

نحو السياسة

لقد خرج أبوبكر منتصرا يوم السقيفة وهكذا أنتصرت معه قريش وأن شئت الدقة فقل بعض قريش لأن أبا سفيان أعلن سلفا عدم قبوله لتولية أبي بكر وكذلك علي بن أبي طالب الذي لم يبايع الا بعد ستة أشهر. وكان عمر بن الخطاب أكبر المنتصرين بعد أبي بكر ويمكن أن نقول أن المسلمين قد انتصروا جميعا لأنهم تجاوزوا هاوية الفتنة والاقتتال وأن الأمور ما كان بالامكان أن تصل الى أحسن مما وصلت إليه خاصة أن العرب وجدوا أنفسهم لأول مرة في وضع يتطلب قواعد سياسية وذلك ما لم يكن لهم فيه خبرة من قبل، فقد كان العرب يعيشون قبل الاسلام في قبائل صغيرة مشتتة ولم تكن بهم حاجة الى قواعد سياسية منظمة والى ادارات أو دواوين ولم يكن لهم اطلاع واف على أحوال الممالك التي من حولهم ولم تكن في بلاد العرب ممالك كبرى مثلما كانت لدى الفرس أو الروم، واذا كانت كتب الحضارات تقول لنا أن المجتمعات الزراعية وبالذات المجتمعات النهرية هي المهد الذي ولدت فيه السلطات فأن أهل الجزيرة العربية كانوا بدوا يترحلون في الصحراء ولم يعرفوا الحكومات المركزية، ولكنهم بعد الاسلام وقيام رابطة جديدة بين القبائل العربية تحت راية الاسلام وجدوا أنفسهم أمام وضع جدّ جديد، ولا يمكن أن نطلق على مرحلة وجود الرسول في المدينة أنها كانت مرحلة سياسية بل كانت مرحلة نبوة وشتان بين السياسية والنبوة، أما الذين يذهبون الى تسمية مجتمع يثرب في عهد الرسول بأنه كان جمهورية اسلامية أو مملكة اسلامية ويقولون أن هذا المجتمع تحول بعد الفتوحات في عهد الخلفاء الى امبراطورية عربية أو اسلامية باعتبار أنها ضمت شعوبا وأقاليم متعددة ومتنوعة، فأنهم لم يقوموا الا بتطويل الحقائق أو تقصيرها لكي تخدم أهدافا حددوها سلفا ولا يستحقون الوقوف عندهم ولا تستحق طروحاتهم حتى المناقشة.

قال تعالى: (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل) الذين يذهبون الى أن محمدا قد كان ملكا مثلما كان داوود فانهم يقولون على الله ورسوله شططا فلو كان ملكا أو رئيسا لوجدنا

هذه الصفة في القرآن والحقيقة المؤكدة والثابتة والتي يؤمن بها كل مسلم هي أن محمدا (ص) كان رسولا ونبيا وقد شكل مجتمع المدينة ليكون مجتمعا رسوليا تبليغيا ولا علاقة لذلك من بعيد أو قريب بضروب التشكيلات السياسية التي شهدها العالم في السابق واللاحق.

وما يمكن قوله هو أن المسلمين أصيبوا بحالة من الارتباك بعد وفاة الرسول فهم كما ذكرنا ليس لديهم قواعد سابقة أو تجارب سابقة في الحكومات وكيفية اختيار الحكام فهم لا يعرفون الانتخابات ولا نظام الوراثة لأن المجتمع العربي القبلي لم يكن بحاجة الى مثل تلك الأنظمة ولم تكن لديهم دساتير أو لوائح يتبعونها لإختيار حكامهم، والذين يقولون أن القرآن هو الدستور لا ينطقون الا جهلا وقصورا وخطأ لأن القرآن هو القرآن وهو شيء يختلف عن الدستور فهو أعظم من أي دستور وأكبر وأخلد من أي دستور فهو ليس قابل للخطأ ولا للتعديل أو الاضافة أو التنقيص، أولئك الذين يتقولون هذا القول لا يختلفون عن الذين يصفون الرسول بأنه ملك أو رئيس أو امبراطور وكل الصفات التي وصفها بها الله الرسول تناقض وتخالف صفات الملوك والرؤساء والأباطرة، فالقرآن ينفي عن الرسول صفة السيطرة والتجبر والتكبر وتلك هي صفات الملوك والرؤساء في كل زمان ومكان.

ولنعد الى ما دار في سقيفة بني ساعدة وهي تستحق أن نعود إليها دائما لأنها شهدت كما نقول بلغة عصرنا دقائق أو ساعات تاريخية وتلك السقيفة تتكرر دائما في حياة المسلمين على مر التاريخ.

في تلك السقيفة وفي ذلك اليوم وجد المسلمون أنفسهم أمام وضع جديد عليهم واجهوا موقفا بالغ الصعوبة ولكن الله أراد بهم خيرا وقشع ديم الفتنة التي كادت أن تمطر دماء وسنرى أن تلك الديم ستمطر دماءها في غير ذلك الوقت والمكان.

فأختير الحاكم وهو أبوبكر بالطريقة التي أوردناها نقلا عن المؤرخين ولم يعرف المسلمون بماذا يدعون حاكمهم الجديد فلا هو ملك ولا رئيس ولا أمبراطور، فلقب أحدهم أبا بكر بخليفة الله ولكن أبا بكر لم يستمرىء هذا اللقب فأنكره وقال بل أنا خليفة رسول الله وهذا ما يؤكد حالة الارتباك هذه أو المفاجأة التي وجد المسلمون أنفسهم عندها فهم يختارون حاكما ولا يعرفون ما هو لقبه الرسمي وهذا شيء طبيعي لأنهم في حقيقة الأمر أمام «البداية» البداية في نظام جديد واستمر هذا الأمر حتى عندما وصل عمر بن الخطاب الى الخلافة فها هو المغيرة بن شعبة ينادي عمر بن الخطاب: يا خليفة الله.

فيقول عمر: ذاك نبي الله داوود.

فيقول المغيرة: يا خليفة رسول الله.

فيقول عمر: ذاك صاحبكم المفقود.

فيقول المغيرة: يا خليفة خليفة رسول الله.

فيرد عمر: ذاك أمر يطول.

وهناك ناداه المغيرة: يا عمر.

فرد ابن الخطاب قائلا: لا تبخس مكاني شرفه أنتم المؤمنون وأنا أميركم.

فقال المغيرة: يا أمير المؤمنين.

والحقيقة الهامة التي غابت عن الذين يقولون بالخلافة وبوجودها بالنص عليها في القرآن والحديث هي: أننا لم نسمع في السقيفة أحد يحتج بنص قرآني أو بحديث ليؤكد حق هذا الطرف أو ذاك بالحكم فهل كان أبوبكر وهو من هو في علاقته بالرسول ومن حفظه وفهمه للقرآن. هل كان يفوته مثل ذلك في مثل هذا الموقف؟ وهل كان عمر بن الخطاب وهو من الصحابة الملاصقين الخلصاء للرسول (ص) ومن القرآنيين الأفذاذ هل كان يسهو أو يكبو في ايراد حديث أو نص قرآني يقوي حجة أبي بكر وحجته في وجه الذين طالبوا بالحكم من الأنصار؟.

ولا تتجاهلن وجود أبي عبيدة بن الجراح الذي لقبه الرسول (ص) بأمين الأمة ولم يكن عيا عن الاستشهاد بقول من أقوال الرسول في مثل ذلك الموقف الجلل.

وهل كان علي بن أبي طالب بعيدا عن المدينة حتى لا يُبصّر الناس فيما استشكل عليهم من ذلك الأمر الهام؟ وقد كان له موقف متحفظ من اختيار أبي بكر..

اما اذا خرجنا من السقيفة الى أي مكان آخر في المدينة فان الصحابة لا شك كثر ومنهم الكثير من حفظة القرآن ومفسريه ومن العارفين للحديث فكيف لم يقولوا قولا فصلا انطلاقا من نص قرآني أو حديث نبوي شريف؟.

لا شك أن موضوع الخلافة والاختلاف فيها قد كان قضية الساعة بالنسبة لمجتمع المدينة كان ذلك شهورا بل سنوات وبالتأكيد فانه هذا الموضوع قُتل نقاشا وجدلا لكن برغم كل هذا لا نجد قولا فصلا يعود الى تلك الأيام.

وهل هناك من يشكك في اسلام سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري وهو الذي كان بعد اسلامه يحطم أصنام بني ساعدة وشهد العقبة وكان أحد النقباء الاثنى عشر.. وقيل أنه كان تهيّأ للخروج الى بدر وأنه كان يحرض الأنصار على الخروج إليها غير أنه نهش قبل أن يخرج، وأن رسول الله (ص) ضرب له بسهمه وأنه شهد أحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله وأنه كان يبعث الى رسول الله كل يوم جفنة فيها ثريد وكانت جفنة سعد تدور مع الرسول (ص) في بيوت أزواجه [1].

هل هناك من يشكك في اسلام سعد هذا لأنه تقدم ورشح نفسه للحكم وهل هو جاهل بنصوص حول الخليفة والخلافة اذا كانت هناك نصوص؟ وهل هناك ما يدعو الى تهديده بالقتل لأنه أنس في نفسه الكفاية ليسير دفة أمور المسلمين؟.. هذه الأسئلة وكثير غيرها تستحق أن تُسأل لنصل أو نلتمس على الأقل بعضا من الحقائق التي لا نجدها أو قلما نجدها بين طيات كتب التاريخ.

ولنا أن ننظر الى موضوع الحكم في الاسلام من وجهة نراها غاية في الأهمية.. وهي أن جميع الذين يذهبون الى أن الرسول قد عيّن الخلافة في علي أو قريش أو غير هؤلاء كل أولئك

---

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 3، ص 614.

يستشهدون بأحاديث احادية وهي أحاديث ضعيفة ولا تحتاج الى عقل أو جهد كبير لاكتشاف أنها موضوعة وأنها وضعت في فترة متأخرة كثيرا عن وفاة الرسول نكتشف ذلك من لغة تلك الأحاديث ونوقن أنها وضعت لخدمة أهداف سياسية لهذه الفئة أو تلك.

واذا كان الرسول قد أوضح وأسهب في كثير من القضايا وعرف الكثيرون أحاديثه ورددوها فكيف يمكن أن تكون الأحاديث المتصلة بالحكم وبالخلافة مغمورة الى ذلك الحد؟.

ونقول أيضا اذا كان الرسول يهتم كثيرا أو قليلا بموضوع «الحكم» من بعده فكيف لا يقول فيه قولا فصلا محددا واضحا؟.. وحتى الذين ذهبوا بعيدا بعيدا في التأويل والتفسير وتحميل بعض الوقائع ما لا تحتمل لم يسعفهم فيما ذهبوا إليه برهان أو دليل ساطع قاطع، وتبقى الحقيقة التي لا يغشاها ضباب ولا سحاب، وهي أن موضوع الحكم موضوع يخص البشر وهو موضوع دنيوي محض وان الناس يفرزون نظاما يتمشى مع ظروفهم وأوضاعهم في كل زمان ومكان والاسلام يخلق فردا مثاليا وكلما ارتفع الانسان عن الصغائر والممارسات الحيوانية الغريزية وسما الى مراتب ملائكية انطلاقا من تعاليم الاسلام، كلما تحقق ذلك اتجهت الحياة الى البساطة والسلاسة وتراجعت عوامل التضييق والتقييد، وهذا ما رأيناه في وضع المسلمين بعد الرسول فقد كان مجتمع المدينة بعد الرسول مجتمعا يتسم بالبساطة في العيش تسوده روح اسلامية صافية زالت منه عوامل التناحر والثارات والطمع والظلم وهكذا ساد العدل لأن أفراد ذلك المجتمع كانوا يستنيرون بنور النبوة الذين عاشوا في وهجه.

وهكذا كان عهد أبي بكر وعمر عهد بساطة وعدالة وقد أنبثق عهداهما من تلك البساطة نفسها وتلك العفوية التي رأيناها في السقيفة رغم ما شابها من زلزلات عصبية ولكن في أواخر عهد عثمان بدأ ضرب من التفاعل جديد، بسبب الفتوحات ودخول أمم غير العرب في الاسلام وتدفق الثروة من الأقاليم المفتوحة فظهر واقع جديد وجيل جديد وبدأت ملامح أسلوب في الحكم جديد أيضا.

9

بوابة التاريخ الجديد

9

بوابة التاريخ الجديد

انتهت «مظاهرةُ» أو «معركةُ» السقيفة بتولية أبي بكر الصديق أمرَ المسلمين ولكن السقيفة كانت بوابةَ تاريخ جديد، ومرحلة جديدة تداخلت فيها الأزمات والانتصارات، وبدأت الفتن تتلاحق، تلاحقَ الفتوحات فما كاد الأمر ليستتب لأبي بكر حتى أطلت فتنة كبيرة برأسها السام، تلك التي عُرفت بالردة، وما ترتب عليها من حروب، حملت أسمها، وقضية حروب الردة قضيةٌ خطيرة، حساسة، وعندما يحاول المرء ولوجَها وتحليلَها يجد نفسه على صراط حاد، في ما عُرف بحروب الردة تختلط الحوادثُ والأحاديثُ التاريخية، وتتباين الروايات ويصبح اصدارُ حكم قطعي فيها، أمراً يثير الكثير ولكنّا نعتبر الحقيقة هدفا خطيرا، يستحق أن تُشدَّ إليه رحالُ التحليل والتمحيص، ولا نستكثر فيها، أي ردود فعل..

والذي نعرفه عن حروب الردة أن سببها أو دافعَها، هو ارتدادُ بعضِ القبائل العربية عن الاسلام..

وأخذت هذه الردة مظهرين:

1 ـ الرجوعُ عن الاسلام بظهور عددٍ من مدعي النبوة مثل الأسود العنسي الذي ظهر باليمن، وطليحة بن خويلد الأسدي من بني أسدٍ بن خزيمة، وسجاح بنت الحرث بن سويد التميمية، ومُسيلمة الكذاب في أهل اليمامة.

كما ارتدت البحرين واليمن، وكانت اليمن قد أرتدت من قبل في عهد النبي، وثابت غير أنها أرتدت مرة ثانية بعد وفاة الرسول (ص)..

2 ـ المظهرُ الثاني الذي أعتبر من مظاهر الردة هو الامتناع عن دفع الزكاة..

ولنناقش هذين المظهرين في ضوء التاريخ والدين والعقل والسياسة. إن المظهر الذي اتخذ رفض الاسلام والارتداد عنه، كان مظهراً من مظاهر الشرك بل هو أشد وألعن وكان قتالهُ ضروريا وفرضاً مفروضا من جميع الوجوه، خاصة وأن المرتدين لم يقفوا عند حد إنكار

الاسلام ونبوة محمد، بل ذهب نفر منهم الى إدعاء النبوة لنفسه، والتخرص بكلماتٍ ضالة باطلة، هدفوا من ورائها الى تشويه فكرة الدين نفسها، وكانوا يريدون من وراء ذلك دفع العرب الى ترك الاسلام، واتباعَ ترهاتهم وكذبهم، مثل المشعوذ «الأسود العنسي»، الذي كان قد إدعى النبوة في حياة الرسول، وكانت ردة الأسود أولَ ردة في الاسلام.

فكان قتالُ هؤلاء المرتدين من الواجبات التي لا يمكن فيها السكوت أو التأجيلُ أو التردد.. ولقد أصاب أبوبكر الصديق في مواجهتهم بسرعة، رغم الآراء التي أبداها بعضُ الصحابة بإمكانية تأجيل شن الحرب على هؤلاء المرتدين حتى تستتب الأمور في المدينة بعد وفاة الرسول ولو اجل أبوبكر هذه المواجهة لأغرى غير هؤلاء المرتدين بالتمرد ليس فقط على سلطة أبي بكر الصديق، ولكن بالتمرد على الدين الاسلامي جملة وتفصيلا..

وهنا تجلت في أبي بكر المقدرة السياسية والنظرة العميقة الخطيرة ولقد أثبت أبوبكر أنه سياسي بارع مثلما كان مؤمنا صديقاً فقد أصر على ايفاد بعثة اسامة بن زيد الى الشام، رغم إضطراب الأوضاع حول المدينة، وتزايد موجة الردة فبعد وفاة النبي (ص) «ارتدت العرب وتضرمت الأرضُ ناراً وأرتدت كل قبيلة عامةً الا قريشا وثقيفا، واستغلظ أمر مسيلمة، وطليحة واجتمع على طليحة عَوامُ طيٍ وأسد، وأرتدت غطفان تبعاً لعيينة ابن حِصن الذي قال، أن نبيا من الحليفين: يعني أسداً وغطفان أحبُ إلينا من نبي من قريش وقد مات محمد وطليحة حي فأتّبعه، وأتبعته غطفان».

هكذا كانت نارُ الردة تسري بين القبائل العربية، وكانت الخيارات أمام أبي بكر محدودة، فقرر الخيارَ الأصعب، قرر أن يمضي جيشُ أسامة بن زيد في مهمته الى الشام، وأن تمضي الاستعدادات العسكرية لمواجهة المرتدين مواجهة عنيفة شاملة.

وفي حين أعتبر بعضُ الصحابة الذين هم من حول أبي بكر، أعتبروا إرسال بعثة اسامة بن زيد الى الشام نقطة ضعف، ستؤثر في قوة المسلمين على مواجهة المرتدين، اعتبر أبوبكر ارسال هذا الجيش الى الشام نقطة قوة، لأنها سترهب المرتدين وتؤكد لهم أن مسلمي المدينة أقوياء، و إنهم يطالون قوة دولة كبيرة كمثل دولة الروم، بالاضافة الى جانب آخر إرتآه أبوبكر وهو منع الاتصال أو التنسيق بين المرتدين والروم، ومضت بعثة اسامة الى وجهتها وعادت بعد أربعين يوما أو سبعين يوما بغنائم كثيرة.. وتحقق هدفُها الأهم، الهدفُ المعنوي الذي يؤكد أن المسلمين أقوياء، وقادرين على الحرب في أكثر من جبهة، وفي الداخل والخارج.. ثم شرع أبوبكر في هجوم عنيف على المرتدين حتى عادوا الى الاسلام بالقوة وهم صاغرون.

أما المظهر الثاني للردة فهو الامتناع عن دفع الزكاة الى أبي بكر، فهنا يقع الجدل، ويُثار ما يمكن أن يثار..

وأول من جادل وأثار كان عمر بن الخطاب، فعندما اتخذ أبوبكر قرار الحرب على هؤلاء الذين امتنعوا عن دفع الزكاة قال له عمر بن الخطاب: يا خليفة رسول الله، تألّف الناسَ، وأرفقْ بهم كيف تقاتلهمُ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا الله، فمن قال لا إله الا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه..

إذن لا يغضبن أحد عندما نناقش هذا الموضوع، وقد كان عمر بن الخطاب أولَ من ناقشه على الوجهة التي رأينا، ، وانما نقول إن قرارَ أبي بكر بحرب هؤلاء الذين أمتنعوا عن دفع الزكاة له كان قراراً سياسيا، ولم يكن قراراً دينيا، فهؤلاء الذين إمتنعوا عن دفع الزكاة لأبي بكر لا يمكن مقارنتُهم إطلاقاً مع أولئك الذين إمتنعوا عن قول لا إله إلا الله، وتمادوا في ابتداع أديان ونبوءات كاذبة..

فهؤلاء الذين ارتدوا عن الاسلام وأنكروا نبوة محمد، موضوعُهم ديني.

أما الذين رفضوا دفعَ الزكاة لأبي بكر فموضوعهم سياسي.. فهم لم ينكروا الزكاة كأصل أو ركن من أركان الاسلام، ولكنهم رفضوا دفعَها لأبي بكر، وشاعرهم يقول:

أطعنـا رسولَ الله مـذ كـان بيننـا فيــا لعبـاد الله مـا لأبي بكـر

فهم بالتأكيد يرضوْن الاسلام دينا ومحمداً نبياً، لكنهم لا يقبلون ولايةَ أبي بكر وهم في هذا لا يختلفون عن علي بن أبي طالب الذي لم يبايع أبا بكر إلا بعد ستة أشهر، وسعد بن عُبادَة الذي لم يبايع أبا بكر أبداً..

فهل أعتبر علي بن أبي طالب أو سعدُ بن عبادة من المرتدين؟!

وهل هناك من ناقش تلك القبائل التي رفضت اعطاء الزكاة لأبي بكر هل هناك من ناقشهم في أمر مبايعته؟

لقد تمت البيعةُ لأبي بكر بالطريقة التي رأيناها في السقيفة واتخُذ فيها القرار في مجموعةٍ ضيقة جدا، ولم يكن فيها لمن خارج السقيفة قرار، حتى أولئك الذين كانوا في المدينة قريبا من المكان الذي جرى فيه اتخاذ قرار تنصيب أبي بكر، فما بالك بأولئك الذين يقطنون بعيداً عن المدينة مسافاتٍ ومسافات؟ ولماذا لا نعتبر أولئك مجرد معارضةٍ سياسية، ليس إلا، ولا علاقة لموقفهم بالايمان والدين. فهم كما تثبت كل الوقائع والدلائل لا مجال للشك في إيمانهم، مثلما لا مجال للشك في ايمان علي بن أبي طالب وسعد بن عُبادة.

إذن فلنناقش هذا الأمر من وجهة السياسية بعد أن رأيناها من وجهة الدين.

● لقد كانت بين القبائل العربية رواسب قديمة، وكان التنافس بينها شديد، والسلطة والجاه تعني الكثير بالنسبة للعرب، وهم من هم في العصبية والانتصار لمن هو منهم. فإذا كان أبو سفيان يستكثر هذا المنصب الجديد على أبي بكر الصديق، وهما قريشيان من نفس القبيلة، وتمناه لعلي بن أبي طالب أو العباس، لأن الأمويين والهاشميين يلتقيان عند عبد مناف وأعتبر أبو سفيان الهاشميين إقرب اليه من أبي بكر وهو من تيم، اذا كان الأمر هكذا داخل قريش نفسها فلماذا نستغرب موقفَ القبائل الأخرى من أبي بكر..؟

وكان رؤساء القبائل العربية يرون في أبي بكر ضعفاً ولينا، أغراهم بمعارضته، وقد تكون هذه المعارضة بسبب عدم استشارتهم في أمر تنصيب أبي بكر، وقد يكون لهم رأيٌ في إسلوب الحكم بصفة عامة أو لديهم تصور آخر للحكم غير أسلوب الخلافة، قد يكون هذا كله وقد لا يكون كله أيضا..

ولكننا نرى أن الفصل بين موقفِ القبائل العربية، أمرٌ في غاية الأهمية، لأنه يساعدنا كثيرا فيما بعد في تتبع الخيوط الى حيث أنتهَت في عهديْ عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب.. نعود فنقول ان الخلط أو الجمع بين موقف القبائل التي أرتدت عن الاسلام كدين، وأتبعت مدعي النبوة كذبا، وكفراً، وبهتانا، وبين القبائل التي رفضت إعطاءَ الزكاة الى أبي بكر، نرى أن هذا الخلط والجمع، شيء مخالف للعقل والانصاف..

- فالأول ديني

- أما الثاني فهو سياسي محض.

والذي يؤكد لنا أن الموقفَ الثاني كان سياسيا محضا، هو موقفُ عمر بن الخطاب نفسه، ويؤكد رد أبي بكر على عمر بن الخطاب هذه الوجهة السياسية للموضوع، فعندما قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: «يا خليفة رسول الله، تألّف المسلمين، وأرفق بهم.. كيف تقاتِلُهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه...» كان رد أبي بكر: «والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حقُ المال، والله لو منعوني عناقاً لقاتلتهم على منعها» وأضاف أبو بكر في غضب، «يا ابن الخطاب، رجوتُ نصرتك وجئتني بخُذلانك»..

ولا نعتقد أننا ننقص من قدر أبي بكر الصديق، أو نقدح في إخلاصه الديني أو العقيدي عندما نقول إنه كان قائداً سياسيا، بل أننا نضيف إليه علواً وشموخاً.

أنظر الى موقف أبي بكر الصديق من خالد بن سعيد بن العاص، فقد قرر أبوبكر أن يبعث خالد بن سعيد على رأس بعثة من الجنود الى الشام سنة ثلاث عشرة هجرية، وقيل أنه قرر ارساله الى الشام بعد أن بعثَ خالد بن الوليد الى العراق، ولكن أبا بكر تراجع وعزل خالدَ بنَ سعيد قبل أن يسير الى الشام، ويُقال إن السبب في هذا العزل هو تخلف خالد بن سعيد عن بيعة أبي بكر، ويُضاف أن خالداً لما قدم من اليمن التقى بعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان فأعاب عليهما إستكانتهما لتيم، وهما أي علي وعثمان رأسا بني عبد مناف.

وقد بلغ قولُ خالد بن سعيد هذا الى أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، مماجعل أبا بكر يتراجع عن قراره السابق بإيفاد خالد بن سعيد الى الشام... ولا شك في أن هذا القرار كان سياسيا محضاً.



10

أبو بكر السياسي

10

أبـو بكـر السـيـاسـي

لقد كانت حروبُ الردة، إختباراً قويا لقيادة أبي بكر، وكانت أيضا إختباراً لقوة مجتمع المدينة، وجموح المسلمين فيه، وكان أسلوب أبي بكر الصديق في إدارة تلك الحروب، أسلوبا يُظهر المقدرة السياسية الفذة لأبي بكر الصديق، وايمانه الصلب الذي لا يهتز، وتصميمه الفريد، فقد أعاد الجزيرة العربية الى دائرة الايمان، وأنطلق العرب المسلمون جحافل تفتح العراق والشام وتثخن جنود الفرس، وتبدد جيوش الروم ولو تتبعنا تحريك أبي بكر لقواته بين الشام والعراق وتوزيع هذه القوات، وأسلوبه في سحب القوات من هنا ودفعها هناك، وتواقيت وأماكن الهجوم، لأدركنا أننا ازاء قائد عسكري وسياسي من الطراز الأول..

لقد خرج أبو بكر من حروب الردة أكثر ثقة وقوة وخبرة، واذا حللنا الأسلوب الذي أدار به أبو بكر حربَ الفتوحات لوجدنا فيه لمساتٍ كثيرة استفادها من حروبه مع المرتدين..

في حروب الردة أرسل أبو بكر خالدَ بن الوليد الى القبائل ذات البأس الشديد، التي لا تعرف إلا العنف ولا تُكبر إلا البطش، فكان اسمُ خالد لها يسبقُ سيفَه، وكان تكتيكُ أبي بكر دائما هو تجنيدُ القبائل التي تعود إلى الاسلام في محاربة القبائل التي تليها وهو يحقق بذلك هدفين:

أولا: الهدفُ العسكري، وهو إضافةُ قواتٍ جديدة الى قواتِ المسلمين التي تحارب المرتدين.

ثانيا: هدف ديني لاختبار صدق هذه القبائل في عودتها الى الاسلام والدفاع عنه، وان هذه القبائل تُعطى فرصة مباشرة للتكفير عن قتالها للمسلمين بقتال المرتدين.

وكان لهذا التكتيك أثر كبير في النصر الذي أحرزه أبوبكر في حروب الردة.

وقد يكون خالد بن الوليد هو النموذج الذي نستطيع من خلاله تحليل وفهم الأسلوب العسكري لأبي بكر الصديق. فقد كان خالد بن الوليد هو القائد الأهم في كل المعارك التي خاضها أبوبكر الصديق، سواء في حروب الردة، أو حروب الفتوحات في الشام والعراق..

وقد كان خالد بن الوليد عاصفةً عاتية متحركة، تتحد روحه مع سيفه، قادراً على قلب كل الحسابات، حسابات العدد والعدّة، واستطاع أن يحسم الكثير من المعارك قبل أن تبدأ، بأسلوب المبارزة الشخصية، التي يتبارز فيها هو شخصيا، مع قائد القوات المعادية وكان في جميع المبارزات قادراً على البطش بنظيره منذ الجولات الأولى.

وتظهرُ الحنكةُ السياسية لأبي بكر في معالجة التجاوزات التي قام بها خالد بن الوليد في حروب الردة. فقضية قتل خالد لمالك بن نويرة وزواجه من إمرأته مباشرة بعد قتل زوجها دون أن تكمل عدتها أو تستبرأ، كان مادة للجدل الديني والأخلاقي، وكذلك زواج خالد من إبنة مُجّاعة بن مرارة، ودماءُ الشهداء من المسلمين لم تجف بعد.. كان إضافة ساخنة الى تجاوزات خالد بن الوليد.

واذا عدنا الى موقف عمر بن الخطاب من هذه الممارسات، وموقف غيره من الصحابة وقارناه بموقف أبي بكر الصديق، لوجدنا أنفسنا أمام موقف سياسي آخر يقفه أبو بكر الصديق، فقد جمع المبررات لخالد، ووازن بين ايجابياته وسلبياته فكانت الايجابيات أكثر بكثير من تلك الهفوات العاطفية الذاتية.

ومجمل القول أن أبا بكر الصديق، أدار معاركه الداخلية والخارجية بروح سياسية ثاقبة، مكنته من إحراز انتصارات هائلة ومتلاحقة لم يكن أحد من المحيطين به يتوقع أو ينتظر حتى ما هو أقل منها بكثير..

ولقد قيل الكثيرُ عن شخصية أبي بكر الصديق، وكُتب الكثير عن سيرته ومآثره، ولكن الأهم الذي يمكن أن نستخلصه من هذه الدراسات هو أن أبا بكر الصديق:

- استطاع أن يضع أسسَ الادارة للمجتمع العربي الجديد الذي قام في المدينة وأخذ في الاتساع إثر الفتوحات الاسلامية الأولى..
- قد تجاوز أبو بكر العواطف العربية البدوية البسيطة، وتعامل مع الحقائق السياسية التي فرضها الواقع من حوله، تعامل معها بروح سياسية واعية، فلم يدَعْ أصحابه يتدخلون في قراراته إلا في إطار تبادل الرأي وأخذ المشورة، وهكذا كان دورُ عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب وغيرهم من المحيطين به..
- استطاع أن يوظف هذه الروح السياسية الواعية لخدمة الاستراتيجية العقيدية الاسلامية سواء في موقفه من المرتدين، أو غزواته المبكرة للشام والعراق..
- نجح في تحقيق توازن فريد بين المهاجرين والأنصار، فتجاوز بذلك ما قد ترسب في نفوس الأنصار بعد ما جرى في سقيفة بني ساعدة، وبقي الأنصار القوة الأساسية التي حاربت المرتدين، وخاضت حروبَ الفتوحات الاسلامية.
- تمكن أيضا من تغليب عقله على عاطفته الشخصية والدينية والقبلية فلا نجد في عهده، من استغل قرابته أو قربَه منه. وقصته مع فاطمة الزهراء ابنة الرسول حول أرض فدك التي كانت من سهم الرسول في خيبر، تؤكد صلابته في المبدأ والحق، ولم يحد أبو بكر

عن موقفه المستمد من مبدأ ديني وهو أن الأنبياء لا يُورَثون، رغم تقديره العميق لأسرة رسول الله صلى الله عليه وسلم..

وهكذا كان أبو بكر، مبدئيا عقيديا صارماً في كل ما يتعلق بأمر الدين، سياسيا، مخططا عقلانيا فيما يتصل بشؤون الادارة والأمور الدنيوية ومنها الأمور السياسية والعسكرية.

لنقف عند وصية أبي بكر الى يزيد بن أبي سفيان في فتوح الشام:

«إذا قدم عليك رسلُ عدوك فأكرمهم، وأقلل لُبثَهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به، ولا تريثهم فيروْا خِلَّك ويعلموا عملَك، وأنزلهم في ثروة عسكرك، وأمنعْ من قِبلك من محادثتهم، وكن أنت المتولي لكلامهم، ولا تجعل سرك كعلانيتك فيختلط أمرك... وأكثر حرسك، وبددهم في عسكرك، وأكثر مفاجأتهم في مَحَارِسِهم بغير علم منهم بك، فمن وجدتَه غفل عن محرسه فأحسن أدبه وعاقبْه في غير افراط، وأعقَبَ بينهم بالليل وأجعل النوبة الأولى أطولَ من الأخيرة فانها أيسرُها لقربها من النهار»...

لنقف عند هذه الوصية، ولنقلبها طويلاً، نجد فيها خططا، وأفكاراً وبعداً سياسيا، ودعائيا، بل نجد فيها ضربا من ضروب الاستعلام العسكري، والأمن، وكأنها كُتبت في هذا القرن ولا شك أن شخصية أبي بكر الهادئة المتأملة، التي لا تنفعل الا في حالاتٍ نادرة، مكنته من تقييم الأمور بهدوء وموضوعية، وجعلته ميالاً الى تقليبِ كل موضوع يتناوله على كل وجوهه..

وعامل آخر ساهم في تكوين قدرات أبي بكر، هو تجربته قبلِ الاسلام حيث كان يتقبل ديّاتِ قريش، ويتوسط بين إطرافها، جعلت منه شخصاً قادراً على التعامل مع الأطراف المتناقضة المتضاربة، ولا شك أن مدرسة عظيمة كانت العامل الأساسي في تشكيل هذه الشخصية السياسية الفذة، وهي مدرسة صحبته للرسول صلى الله عليه وسلم، ورفقته له في الهجرة، والتصاقه الدائم به، ورغم قصر المدة التي قضاها أبو بكر في الحكم، الا أنه تمكن من تحقيق انجازات سياسية.. فعجلة الفتوحات قد دارت واكتسبت قوة دفع هائلة، وأصبح المسلمون قوة قتالية لها العدد والعدة، ولها الخبرة والتدريب التي فاقت خبرة قوات الفرس والروم..

وسيجد عمر بن الخطاب عندما يُبايَع بالخلافة، سيجد بعض القواعد الهامة في الادارة والحكم مما سيمكنه من تحقيق سياسته الخاصة، مستفيداً في ذلك من خبرته كمساعد لأبي بكر في سنتي خلافته، وبتمسكه العقيدي، ومرونته النابعة من فهم عميق للدين، ومثلما نجد في عهد أبي بكر، ظلالاً لشخصيته تشمل كافة أرجاء الدولة في عهده، فأننا أيضا نجد الشيء ذاته في عهد عمر بن الخطاب، فاذا كانت شخصية أبي بكر الهادئة الحازمة، قد رأيناها تحسم فتنة الردة في شدة وبطش مدروس، ورأيناها تحارب على أكثر من جبهة في حرب الفتوحات، فإن شخصية عمر بن الخطاب «الواثقة» «العنيفة».. تنعكس على السياسة الداخلية للمجتمع الجديد بنفس النسبة...

وهكذا يكون التأريخ لشخصية أي من هذين الخليفتين أبي بكر وعمر، هو تاريخٌ للمجتمع الاسلامي في تلك الفترة، ولا نجد أي روايات أو تدوين للتاريخ في مرحلتهما، يُكتب بمعزلٍ عن سيرتهما الذاتية.. ولهذه الظاهرة، أسباب، ونتائج..

١١

عمـر ..
المتبـع المبـدع

11

عمـر..
الـمتبـع الـمبـدع

كان عهد أبي بكر الصديق كما سبق القول، عهداً قصيراً أنصب جهد المسلمين فيه على حرب المرتدين من العرب، ثم الشروعُ في مرحلة الفتوحات، أما الشؤون الداخلية لمجتمع المدينة وما ارتبط به من القبائل العربية، فلم تأخذ الكثير من أبي بكر، لأن أعضاء مجتمع المدينة كانوا يدورون في فلك صحابة رسول الله وكان الاسلام لا يزال على وهجه النبوي وكان العرب المسلمون لا يزالون يحافظون على نقائهم العربي البدوي، وعلى القوة العقيدية الاسلامية، وابتكر أبو بكر من الأساليب العسكرية والسياسية ما تتطلبه الظروف الجديدة، ظروف الحرب وبناء المجتمع الجديد، ووسّم أبو بكر المجتمع الجديد بشخصيته، التي ألقينا أضواء عليها فيما سلف.

وعندما توفي أبو بكر الصديق، كان انتقال السلطة الى خليفته، إنتقالاً سلميا هادئا، أوصى لعمر بن الخطاب وبالتأكيد، فان دافعه الى هذه الوصية ماكان من إرتباكٍ وتوتر اثر وفاة الرسول، وكان هذا الاجتهاد من أبي بكر، اجتهاداً صائبا، فالدولة العربية الجديدة في حالة حرب، كما أن عهد أبي بكر لم يكن طويلاً، وبالتالي لم تترسخ أسسُ الادارة والتعامل في الدولة الجديدة وخاف أبو بكر، أن يحدث ما يحدث اذا ترك حَبلَ الخلافة على الغارب. وهنا نجد أنفسنا أمام قاعدة سياسية وضعية إبتكرها أبو بكر الصديق. وهذه القاعدة تعكس جزءا هاما من شخصية أبي بكر، التي تمتاز بالعقلانية والتريث، ومن بعد الجرأة في اتخاذ القرار..

عندما باشر عمر بن الخطاب، أمر قيادة المجتمع العربي الاسلامي الجديد، كانت تغييراتٌ هامة وأساسية تنبت فوق تربة الواقع، وتزداد نموا كل يوم..

فالعرب يخوضون حرباً عالمية حقيقية، فهم في حرب واسعة مع القوتين الرئيسيتين في ذلك الزمان، الفرس، والروم، والقوتان الكبيرتان، تنطلقان من قاعدة سياسية وادارية وعسكرية عتيدة وراسخة، يدعمها مجتمع له تنظيماته القديمة الموروثة، ولكن المجتمع العربي الاسلامي

الجديد، مازال في طور ابتكار النظم والأساليب، وكل ما يمتلكه عقيدة سماوية هو جديد العهد بها. والحروب وما تحتاجه من تموين و إمداد مستمر، وتسليح، تتطلب وجود هياكل وقنوات للقيام بكل ذلك.. والسيطرة على مجتمعات جديدة بعد الفتح له مردودات اقتصادية واستراتيجية ايجابية، ولكنه يأتي بمشكلات في الادارة والتسيير. وهذا الواقع الجديد يصدّر الى عاصمة الدولة الجديدة، يصدّر الغنائم، ولكنه يصدر أيضا مشكلات الرخاء وما يتبعها من وجود فوارق، واسترخاء في مفاصل هذا المجتمع المحارب...

هذه هي ملامح الوضع الذي ورثه عمر عن أبي بكر..

ويشرع عمر في ادارة الدولة الجديدة، ومعالجة الأوضاع المتجددة، بأسلوب يبتكره وتنعكس فيه شخصيته ورؤيته، وقد وصف الباحثون والمؤرخون، شخصية ابن الخطاب، وصفوه بصفات متعددة، ولكنها متشابهة، فهو في تعريفاتهم ـ العادل ـ المتشدد ـ الورع. ولكننا نميل الى وصفه ـ بالحازم ـ وصفة الحزم هذه نتاج لعوامل عدة، منها ما هو ذاتي نابع من شخصية عمر، ومنها ما هو خارجي موضوعي، فرضته المتغيرات الجديدة التي وجد عمر نفسه أمامها..

فالمؤرخون الذين ترجموا لشخصيته، يقولون إن نشأة عمر الأولى كان فيها شدة، فقد كان والده الخطاب، حاد الطبع، ميالاً الى المبادرة بالعنف، وفيه اعتزازٌ بالنفس يصل حد الاستخفاف بالآخرين، وانعكس هذا كله على تربيته لإبنه عمر، فكان عمر قبل اعتناقه للإسلام نموذجاً للرجل الجاهلي، بكل ما فيه من غلظة، وعنف، وتطاول. لكن كل هذه الصفات تجللها فضيلة الشهامة، والشجاعة، وكانت هذه الصفات العنيفة في عمر هي التي قادته الى الاسلام، فعندما عَلِم أن أخته وزوجها قد دخلوا الإسلام دلف الى منزلها وضربها حتى شجّ وجهها، وهَمَّ بضرب ختنه، ولكن روح الشهامة والاعتزاز بالنفس، جعلته يحب الاطلاع على ماكان يقرأ في بيت أخته من القرآن، فآمن، وانطلق للرسول يعلن أمامه إسلامه، وقد كان اسلام عمر بن الخطاب فتحا جديدا، ونصرا، دخلت به الدعوة الاسلامية في مكة الى مرحلة أقوى... واجتمعت في ابن الخطاب كل مزايا وفضائل الرجل العربي، وكل شفافيات وسمو الرجل المسلم، فكان طرازاً من الرجال فريد.

وانعكست كل هذه التكوينات لشخصية عمر على تركيبات وتكوينات الدولة في عهده..

أولاً: انعكست في مركزية شديدة، فهو يُعالج بنفسه ما كبر، وما صغر من شؤون الدولة، ويسوق الرواة في هذا، أقوالاً لعمر مُسبهةً وعديدة، فهو يعتبر نفسه مسؤولا أمام الله وأمام المسلمين عن كل ما يقع لهم. ويروي المؤرخون بصياغات مختلفة، قوله: «لو أن معزة عَثَرت في العراق لكنت مسؤولا عنها»، وهنا يقصد المعنى وليس الحرفِ، وماكان من تفقّده لأموال الصدقة، وتدقيقه فيها، ناقة ناقة، ونعجة نعجة.. وموقفه من المرأة التي وجدها تتحايل لاسكاتِ طفلها الذي يبكي، لأنها فطمته مبكراً حتى تحصل له على عطاء أو جراية من بيت المال، لأن ذلك لا يُصرف إلا لمن هو مفطوم والقرار الذي إتخذه عمر على إثر هذه الحادثة، بصرف الجرايات للأطفال بعد ولادتهم مباشرة.. وغيرُ هذا

كثير في هذا السياق، ونرى أن هذه المركزية، والخوضَ في هذه التفاصيل كان ممكنا في إطار مجتمع المدينة الصغير، ولم تعد ممكنةً بعد اتساع الدولة وتشعب وتشابك المشاكل فيها..

وقد علل المؤرخون عزل عمر لخالد بن الوليد من قيادة جيوش المسلمين بعلل عديدة، فهم يقولون إن عمراً كان يلح دون توقف على أبي بكر في عزل خالد بسبب موقفه من مالك بن نويرة، وبطشه الشديد باعدائه، وكان يقول دائما أن في سيف خالد رهقا، وكذلك ماكان يراه عمر من تجاوزات في تصرف خالد من النواحي المالية، ولكننا نرى أن الدافع الأساسي والحقيقي لعزل عمر لخالد هو أن سياسة عمر التي تعتمد المركزية لا تنسجم مع أسلوب المبادرة التي يعتنقها خالد بن الوليد. ويؤكد هذا، البديلُ الذي إختاره عمر لخالد وهو أبوعبيدةَ بن الجراح، الذي رأى فيه عمر انضباطا لا يتوفر في خالد، سواء في أثناء المعارك أو قبلها وبعدها، ومنع عُمر بن الخطاب، لصحابة الرسول، وأقربائه من الانتقال الى الأقاليم المفتوحة، وتحديدُ اقامتهم في المدينة، وقد برر ذلك المنع بأنه يخاف أن يفتتن الناسُ في الأقاليم بهؤلاء لقربهم من النبي، وأن يُفتنَ هؤلاء الصحابة بما يجدوه في الأقاليم من أساليب جديدة في الحياة، ومن ظواهر الترف والانحلال.. ومهماكانت المبررات، فإننا نضيف إليها عاملاً آخراً، أو نقول، نستخلص تفسيراً من هذا الاجراء وهو أنه يتناقض مع مبدأ المركزية الذي إعتمده عمر.. فوجود صحابة الرسول (ص) وذوي قرباه في الأمصار قد يكوّن مراكز قوة محلية، تؤثر على سلطة العاصمة، وتقود الى إختلالٍ في الادارة خطير.

ثانيا: ترسيخ ثقافة وأسلوب البداوة والجَلَد.. فعمر بتكوينه العربي النموذجي رأى أن ما يمتاز به العرب عن اعدائهم، يتركز في قاعدتين أساسيتين هما: الاسلام.. والبداوة.. وهاتان الصفتان نجدهما في عمر بن الخطاب نفسه سمتين متجانستين ومتكاملتين، وهما سر «قوته الجميلة»، وهما ما حاول أن يستخلص منها المجتهدون صفةً له فوصفوه «بالعادل المستبد».. وهذا وصف ساذج وخاطىء، فالعدل نقيض الاستبداد، ولا يمكن أن يلتقيا في شخص واحد.. فالعدل أول مهامه القضاءُ على الاستبداد، واذا حلّ الاستبداد فإن العدل يكون أول الغائبين.

والحقيقة أن الاسلام هذّب شخصية عمر، فرسّخ ما هو فاضل ومحمود فيها، وأزال ما هو جاهلي ممجوج، وتفاعل الاسلام مع الميزات العربية الفاضلة في شخصية عمر، أنتج لنا شخصية جديدة فريدة هي شخصية «الحازم». وصفة الحازم، تجمع الشدة ـ والعدل، ولا نقول الاستبداد، فعمر شديد في عدل واعتدال، وهذه الصفة فرضت على عمر جهداً وعملاً مضنيا، لأن المركزية والاهتمام بالتفاصيل التي تأتي من باب الحرص على تحقيق العدل، تتطلب إلماما و إطلاعًا على بواطن الأمور وظواهرها، ولا يتم ذلك إلا ببذل جهد ليس بالهين ولا اليسير.. وما كان هذا يتم لعمر إلا بتمسك قوي وعميق بروح الايمان بالاسلام وبجلد بدوي عربي لا يتوفر لأولئك الملوك الذين نبتوا فوق الماء كما يقول أبوالطيب المتنبي:

وكَـانُوا يَـرُوعُونَ الملوكَ بـأن بَـدَوْا   وَأن نـبـتت في الماء نَـبْتَ الغَلافقِ

وقد علم عمر أن العرب «تَقَرّ» أي أستقرت، بل تغيرت الوانهم ورأى ذلك في وجوه وفودهم، فسألهم فقالوا وخومة البلاد غيّرتنا، وقيل ان حذيفة وكان مع سعد بن أبي وقاص قد كتب بذلك الى عمر. فسأل عمر سعداً فقال غيرتهم وخومة البلاد، والعرب لا يوافقها من البلاد إلا ما وافق إبلها.. وهكذا أرتحلوا الى بقعة حسب المواصفات الجديدة، وكانت الكوفة..

ونرى في ما يسوقه التاريخ مواقف لعمر كثيرة، يحارب فيها أي مظهر من مظاهر الترف والدعة، خوفاً أن يفقد العربُ بداوتهم، التي قوّمها الاسلام فأصبحت بالعقيدة أقوى سلاح يقارعون به من يفوقهم عدداً وعدة ومالا وخبرة. وهذا الرفض الشديد من عمر بن الخطاب لمظاهر الترف والدعة، ينطلق من شخصيته، التي وصفها عبد الرحمن بن عوف بأن فيها «غلظة». ولكن هذه ـ الغلظة ـ في عمر الخليفة ليس هي نفسها التي في عمر الجاهلي، أو عمر الصحابي، ففي عمر الخليفة تتحول هذه الغلظة الى مبدأ سياسي ينعكس في مقاومة الترهّل الذي خاف عمر أن يغمر المجتمع العربي المسلم الجديد، وتتبدا في مظهر حضاري عام هي كما أسلفنا ـ الحزم ـ أي الشدة في مظهرها الإجتماعي..

وهذه ـ الغلظة ـ التي وصف بها عبدُ الرحمن بن عوف عمراً، بدت في عمر نفسه عندما أصبح خليفة في شكل زهد شامل في الدنيا. فقد مارس هذه الصفة على الناس كسياسة عامة، بفرض إجراءات لمقاومة وخومة البلاد المفتوحة ومنع تأثيرها على العرب.. ومارس عمر هذه الصفة على نفسه، ورأيناها بارزة فيه، من خلال شظف الحياة التي عاشها، وتشديده على نفسه، وأسرته وذوي قرباه..

12

عمر المؤسس، الإسلامي، السياسي

12

عمــر المـؤسـس، الإسـلامـي، السـيـاسـي

قلنا أن شخصية عمر انعكست في كل سياساته، العسكرية والادارية والسياسية، وعرضنا لمظهرين من تلك الانعكاسات وهما: المركزية وترسيخ ثقافة البداوة والجلد.. فعمر بن الخطاب وجد نفسه خليفة لمجتمع ليس له تراث سياسي أو اداري أو تنظيمي، وابتكر أساليب رآها تخدم هذا المجتمع الجديد الذي يجاهد لنشر عقيدة الاسلام وتحقق الأهداف الأساسية للاسلام وهي: العدل، والمساواة، وكان عمر يتعامل مع الواقع الجديد بشخصيته التي تقوم على مقومات الرجل [العربي المسلم] كما سبق القول..

الانعكاس الثالث لشخصية عمر على أسلوب الحكم في الدولة الاسلامية العربية يظهر في حرصه على [التحديد]... وهذا المظهر الثالث وهو [التحديد] يتكامل مع المظهرين الأولين وهما [المركزية] و[الجَلَد]. والدافع وراء حرص عمر على [التحديد] هو حبه للوضوح، وولوعه بالمواجهة، ومقته للمداورة والملاينة. وهذا العامل يعد أساسيا للعدل، وتطبيق المساواة.. وقد طبق عمر هذا المبدأ في الشؤون السياسية والمالية وقبل هذا وذاك في النواحي الدينية.

- وقد كان عمر في جاهليته، محدداً واضحا في كل مواقفه..
- وهذا التحديد والوضوح هو ما قاده الى الاسلام.
- وكان في صحبته للرسول واضحاً ومحدداً، فدافع عن المستضعفين من المسلمين وشجع المسلمين في مكة على الظهور الى المسجد واتخاذ مجلس خاص لهم فيه..
- وفي صلح الحديبة لم يرض عن بنود الاتفاق، وقال لماذا نعطي الدنيّة في ديننا.. ولكنه رضخ لما أراده الرسول..
- وموقفه من الأسرى في غزوة بدر..
- وضيقه الشديد من عدم نزول نص قرآني في الخمر، حتى نزلت فيه آيات تحرمه.

ولا حاجة بنا الى تعداد المواقف التي تُظهر تأصلَ الوضوح في شخصية عمر بن الخطاب،

فهي كثيرة، وهي تبدو في كل جوانب شخصيته، وفي النواحي الدينية والنواحي السياسية، وحرصهُ على الوضوح والتحديد في النواحي الدينية ينبع من حرصه على الكمال والوصول الى ما هو نموذجي، وهذا الجانب هو الذي جعل عمر يمتاز كمسلم، وكسياسي.. واذا سألنا أو تساءلنا عن السبب الذي جعل عمر بن الخطاب يجتهد في بعض الأمور الأساسية في الدين، مثلُ حدِّ شارب الخمر.. وتأكيدُ سنة صلاة القيام في رمضان.. وايقاف حد السرقة عام الرمادة.. يجتهد في هذه الأمور دون أن يحاجج محاججُ في ذلك، أو أن يعترض؟، فسنجد أنفسنا أمام إجابة عقلانية ومقنعة، وهي أن عمراً اعتقد أن تلك القضايا تحتاج الى تحديد، وأن التحديد فيها يخدم العقيدة الاسلامية..

فقد وضع عمرُ حداً لشارب الخمر، عندما رأى العرب ينساحون في الأقاليم بعد الفتوحات، وان تلك الأقاليم لها في الترف فنون، وأن الخمر بوابةُ الترف، ورغم أن القرآن يجعل عقوبة شارب الخمر من العقوبات المؤجلة الى يوم القيامة، الا أن عمراً استشعر أنها تتسبب في تهتك اجتماعي واخلاقي يؤثر في ما أعتبره عمر ركيزةً من ركائز قوة العرب وهو البداوة والجلد، وهذا قرار سياسي بحت، قبل أن يكون قرارا دينيا، ولكن اذا نظرنا اليه من وجهة الدين لوجدناه ايجابيا بقدر أكبر وأعظم..

وقفنا هذه الوقفات على بعض الاجراءات التي اتخذها عمر، قصد الوصول الى المنهج الذي انطلق منه عمر في ادارة شؤون الدولة، وقد نجح عمر أيما نجاح في مبتغاه، وساعده في ذلك، الطبيعةُ العربية البدوية التي تتسم بالجلد والصرامة، والتي كان المجتمع الاسلامي ما يزال عليها، وساعده أيضا بساطةُ الحياة، ومحدوديةُ متطلباتها.. ولكن العامل الأهم هو أن جذوة الاسلام كانت قوية في نفوس عامة الناس، وكان حرصهم على الآخرة أكبر من حرصهم على الدنيا..

اضافة الى هذه المواقف هناك المئات من القرارات والاجراءات والمبادىء التي ابتكرها عمر، ونفذها بحزم حاسم، واصرار مستمر، ويمكننا القول، وبثقة كاملة، ان عمر بن الخطاب هو المؤسس الفعلي للمجتمع السياسي والاجتماعي العربي بعد الاسلام، توخى فيه تطبيق روح الاسلام، وجند كل طاقات هذا المجتمع لترسيخ العقيدة، ونشر الدعوة، وقد ترك عمر بن الخطاب لمن بعده تراثا سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وقانونيا هائلا، ولأول مرة في التاريخ يجد العرب أنفسهم أمام تراث يذكر في هذه المجالات، الا أن هذا التراث صاحبته عوامل أضعفته ومنعته من الاستمرار في الحياة والفعل:

أولها: أن ذلك التراث كان نظريا وذاتيا.. فهو من إبتكار عمر بن الخطاب، وانعكاسا لشخصيته وتكوينه، ويتأكد ذلك، فيما بعد، فعندما تولى عثمان بن عفان مقاليد السلطة، لم يتقيد بما ابتكره عمر من الأساليب والسياسيات، وشرع بنفسه في ابتكار سياسات ومعالجات تتسق مع رؤيته وشخصيته، وهكذا صار ما أستنه عمر مجرد تراث يردده الناس وتحفظه الكتب.

ثانيها: أن عمر بن الخطاب، لم يترك مؤسسات مقننة، لها تقاليد سياسية ثابتة، تمارس عملها بطريقة منظمة، بحيث تصبح مهمة من يأتي من بعده مقتصرا على الاشراف والتوجيه.

وان كان ابن الخطاب قد نظم الدولة الجديدة في أمصار ـ أي ولايات ـ وكور، وأنشأ الدواوين، وسجل أسماء مواطني الدولة، وفرّغ الجنود للجهاد وجعل لهم رواتب، الا أن ذلك بقي مجرد تنظيم شكلي خارجي لم يصل الى صلب قنوات القرار، من حيث اتخاذه، وتنفيذه بعد اتخاذه.

وبقيت القرارات والاجراءات والمبادىء التي وضعها عمر بن الخطاب تنسب إليه ولا تنسب الى الدولة، فاذا كان عمر قد اتبع قاعدة التفتيش على ولاة الأقاليم، ومناقشة بعض المسلمين القادمين من الأقاليم في موسم الحج، وتعنيف المخالفين منهم، ومعاقبتهم وعزلهم، فان ذلك كله، توقف وتلاشى مباشرة بعد وفاته، لأنه لم يكن سياسة الدولة بل كان سياسة عمر..

وربما كان عام الرمادة، وهو العام الذي حلّ فيه الجدب، وتفشت المجاعة في البشر والأنعام على مدى ثمانية شهور، ربما كان هذا العام، هو المقياس الذي نتعرف فيه على الحدود والفواصل بين مواقف عمر ومواقف الدولة..

فعمر هو الذي تولى بنفسه معالجة تلك المُلِمَّة، وهو الذي ألحّ على ولاته في الأقاليم أن يمدوه بالتموين والمال، ، وتوالى تعنيفه ووعيدُه لهؤلاء الولاة كي يسارعوا الى نجدة أهل الحجاز، ولا نجد من بينهم من بادر الى تقديم المساعدات للعاصمة ومن حولها في ذلك الظرف العصيب..

وهكذا كانت سياسات عُمر عبارة عن مجموعة من المواقف والمبادرات الذاتية النابعة من طبيعة شخصيته، وبعد موته، ماتت تلك المواقف ولم يبق منها إلا شذرات يكررها الناس في أحاديث للتذكار أو الاعتبار... ولم تترعرع تلك المواقف والمبادرات في صورة مبادىء تمارسها هياكل ادارية واقتصادية راسخة، تتوارث وتكبر وتغدو ملزمة لمن يأتي من بعده.

ونجد في كتب التاريخ مئاتٍ بل قد تصل الى الآلاف من الأحاديث والأقوال التي تنسب الى عمر بن الخطاب، وقد تناقل الناس تفاصيل مواقف عدة لعمر، تُظهر زهده و إيمانه وحزمه، بل أن بعضها خالطها الكثيرُ من الاضافة والتحوير حتى أصبحت أقرب الى الحكايات الشعبية، التي تنسب الى الأبطال التاريخيين، ولكن تلك الأقوال والأفعال لم تُصَبّ في قوانين أو تشريعات أو نُظم تجعلها قادرة على الاستمرار والتأثير.. وهناك مجال هام وأساسي يمكننا أن نختبر فيه صحة تحليلاتنا التي سقناها، وهو مجال الاقتصاد. فقد كان «المال» ببريقه وشيطانيته، كان هو العدو الدائم لعمر، وكان الهاجس المخيف الذي لا يفارقه، ونجده يشتد على نفسه الى حد المبالغة والخيال، في كل ما يتعلق بالأمور المالية، ويشتد أيضا على عماله في كل ما يتصل بالمال..

فقد اشتد عمر بن الخطاب على نفسه في النواحي المالية.

واشتد على أفراد أسرته.

واشتد على ولاته.

واشتد على المسلمين في عدل.

فالروايات تصور لنا تفاصيل حياة عمر، وتركز على ما يُظهر كرهه للترف، وعصيانه وتمرده على شيطان المال..

قال أنس بن مالك: [رأيت عمر بن الخطاب وهو يومئذٍ أمير المؤمنين وقد رَقَعَ بين كتفيه برقاع ثلاثٍ لبّدَ بعضها فوق بعضٍ].

وقال: [رأيت عمر بن الخطاب يرمي جمرة العقبة وعليه إزارُ مرقوع بفرو، وهو يومئذٍ والٍ].

وقال أبو محصن الطائي: [رُئي على عمر بن الخطاب وهو يصلي إزارُ فيه رقاع بعضها فوق بعض].

وروي عن ابن ميسرة: [خرج عمر بن الخطاب يوما الى الجمعة وعليه قميص سنبلاني فجعل يعتذر الى الناس وهو يقول: حبسني قميصي هذا وجعل يمده، يعني كمَّه، فاذا تركه رجع الى أطراف أصابعه]..

والروايات التي تدور حول زهد عمر في ملبسه، تبلغ حداً يصعب حصره، وكذلك تلك التي تصور مدى تقشفه، وتشدده على نفسه في المأكل.. ونكتفي بما ذكره الرواة عن ما آلت اليه صحة عمر ومظهره، فقد عاش على الزيت والخبز حتى أسودّ لونه وتغيرت سحنته في عام الرمادة.

ومواقفه المالية مع ولاة الأقاليم عديدة، وكذلك تهديده المستمر لأفراد عائلته، و إنذاره لهم تحذيرا من استغلال أبوته للاسراف والتخمة على حساب المسلمين..

ونطرح سؤالا، نرى أنه من الأهمية بمكان وهو: ماذا بقى من كل هذا بعد عمر بن الخطاب؟..

13 موقف عمر بن الخطاب من المال : سياسة أم دين؟

13

موقف عمر بن الخطاب من المال: سياسة أم دين؟

لقد كان موقف عمر بن الخطاب من المال، موقفا حادا وحاسما، فقد كان يرى في المال مظهراً من مظاهر الشيطان.. وكان هذا الموقف هو المحور الذي دارت حوله شخصية عمر وسياستُه، وهو الذي أعطى لعمر بن الخطاب صفة العدل من جميع المسلمين، وغير المسلمين.. وجل الروايات التي تُروى عن عمر وعدله تدور حول زهده في الناحية المالية، حتى أن بعض الروايات عندما تتصدى لعمر والمال، ترفع عمر الى مستوى فوق مستوى البشر العاديين، وكأنه رمز أسطوري، فما من مواطن في المدينة يحس بالجوع حتى يجد عمراً واقفا بجانبه وعلى ظهره حمل من الحنطة أو التمر، وما من محتاج مسلماً كان أم ذميا الا ويفاجأه عمر وكأنه محيط بأمر أزمته، وغير هذه الصور كثير..

وبرغم تشدد عمر في نواحي العدل السياسي، وحرصه على القصاص من الظالمين والمتجاوزين، سواء كانوا ولاة، أو سراة، أو حتى ذوي قربى، إلا أن عدله المالي قد فاق عدله السياسي وتجاوزه كثيرا..

وهنا نصل الى موضع السؤال الهام وهو:

لماذا تركز اهتمام عمر على الناحية المالية؟ ولماذا اتخذ هذا الموقف الحاد من المال؟

ويقود هذا الى سؤال آخر: لماذا تمحور اهتمامُ الناس بعمر حول موقفه من قضية المال؟

ولماذا اصبحت سياسة عمر الماليةُ العادلة بعد وفاته مجرد روايات تروى وحكايات شعبية تغشاها المبالغة، ولم يعد لها مكان على أرض الواقع والفعل؟

في مناقشتنا وتحليلنا للسؤال الأول، بحثا عن الوصول الى إجابة نقول: تحدثنا عن تركيب شخصية عمر، وقلنا في سياق ذلك: ان عمراً أسلم وعمره 26 سنة، أي أن شخصيته قد تكونت وكانت تقارب على الاكتمال، وباسلام عمر تقومت شخصيتهُ الجاهلية، وتطورت

الجوانب الايجابية فيها، وأولها جانب الرجولة والحزم وثانيها الوضوح والتحديد، وثالثها القوة والجلد..

ولم يكن الخطاب والد عمر في سعة واسعة من العيش، وقد كلف عمراً كراع يرعى اغنامه، إذن فعمر بن الخطاب لم يولد وفي فمه ملعقة من الذهب، كما نقول اليوم.. ولكنه عرف شظف العيش، وعرف الحاجة، والخصاصة ولا يعرفُ آلام الجوع الا الذي قاساها، ولا يعرف إذلالَ الفقر إلا الذي رأى ذلك أو لمح جانباً منه على الأقل، وقد كان عمر كذلك.. نستخلص من هذا، أن موقف عمر الحدّيَّ من المال كان نابعا من تجربة شخصيته.

والجانب الثاني في هذا الموقف هو، النشأة العربية البدوية لعمر بن الخطاب، والعرب لهم موقف مركّب من قضية المال:

- فبالمال يسود الرجال، وبه يحققون صفة سامية يكافح العربي للوصول اليها وهي صفة الكرم..
- والفقر هو عورةٌ شخصية واجتماعية عند العرب، وهم لا يأنفون من القتال والمخاطرة في سبيل الحصول عليه..
- والمال يفدي الرجال أيضا. في البيئة البدوية العصبية، المحكومة بقواعد الشرف والثأر وغيرها، يكثر القتل والفتك، والمال هو الدّية التي تُدفع مقابل الدم في حالة التراضي وهو أي المال، في الختام، هو كما يقول القرآن أحد زينات الحياة الدنيا..

كانت هذه التركيباتُ والتقييمات للمال، في عقل عمر، الظاهر أو الباطن، أو في كليهما، وهو يتخذ موقفه من المال.. كان هذا هو موقفُ عمر الفرد المسلم من قضية المال.. أما موقف عمر الفرد المسلم الخليفة، فسيسنده دافعٌ آخر إضافة الى العوامل الأولى.. وهذا الدافع الأخير له ثلاث شعب:

1 ـ النزعة العربية البدوية، التي تحتقر السارق، وتعتبره أسفل السفلة، وعمر بعد أن أصبح خليفة للمسلمين، فأنه حارسٌ لأموالهم، وأي تفريط أو إفراط في هذا المال سيكون بمثابة السرقة، وذلك ما يشمئز منه عمر، وترفضه روحه العربية، ومازال السارق عند العرب، الذين يحافظون على أصالة التقاليد، مازال يُعتبر سَقط القوم.. ونستطيع أن نقول أن موقف عمر الحدّي من المال كان أحد دوافع تلك النزعة الرجولية، أو الشهامة المتأصلة في شخصية عمر..

2 ـ الدافع الديني: أي موقف الاسلام المتشدد من المال فالقرآن يصور المترفين في أبشع الصور، ويسترسل في شرح تفاهة المال اذا ما قورن بما عند الله وهو [خير وأبقى]. ويقول تعالى (المال والبنون زينةُ الحياة الدنيا).. ويصف الله المال بأنه فتنة.. وقد لخص عمر بن الخطاب بنفسه موقفه من مال المسلمين، فقال انه مثل موقفه من مال اليتيم، ونحن نعلم ما أنذر الله به أولئك الذين يأكلون مال اليتيم..

3 ـ الدافع الحضاري: وهو اعتقاد عمر بن الخطاب الجازم بأن المال مُفْسدٌ مطلق.. مفسد

له ولغيره من المسلمين، ولهذا تجلّدَ على نفسه وتجلد على المسلمين. وعمر كان يعتقد أن قوة العرب تكمن في عاملين: بداوتهم و إسلامهم، و إن ضعف أي عامل من هذين العاملين يؤدي الى ضعف الآخر.. وقد سبق عُمر بن الخطاب، بتوجهه هذا، سبق ابن خلدون في القول بأن الترف هو العامل الأول لزوال العصبية وسقوط الدول و إنحلال العقائد. وقد رأينا السياسات التي وضعها عمر لمنع العرب من التحضر المترف، وجاهد في سبيل أن يحافظ العرب على تلك البداوة والجلد، فعندما سئل عمر عن عدم تكليفه صحابة رسول الله بأعمال ادارية في الأقاليم، أجاب بأنه يخاف أن يدنسهم العمل. ولا شك أن الدنس الذي يقصده عمر بوابتُه الاقتراب من المال، تعاملا به أو اقتناء له..

وستؤكد لنا الأيام كما سنرى فيما بعد، صدق تحليلات عمر، فقد كان المال هو بوابة الترف وكان الترف، هو القنطرة التي عبرت فوقها عواملُ الانحلال والترهل المبكر الى الدولة العربية الاسلامية، بداية من العصر الأموي وانتهاء بالعصر العباسي وما أتى بعده من عصور..

تلك اذن هي الدوافع والعوامل التي جعلت عمرا يتخذ من قضية المال محورا تدور حوله سياساته وتتجلى فيه شخصيته وتكوينه، ويستحق على ذلك تلك الصفة التاريخية التي أستحقها وهي [العادل]. أما الاجابة عن سر اهتمام المسلمين فيما بعد بهذا الجانب في شخصية عمر وفي سياساته، والأطناب في سرد الروايات التي تصور موقف عمر المتشدد والجدي من المال الى حد بلغ الخيال، وتجاوز المعقول، ان السر في ذلك، هو أن هذه السياسة كانت جديدة على الحياة العربية، بل كانت جديدة على العالم كله، فقد كان المال في العالم القديم، هو القاعدة التي يرتقي عليها الملوك الى صفوف الآلهة، فأنظر الى حضارة روما ـ وفارس ـ وأثينا ـ ومصر، فستجد أن الغنى مرادفٌ لكلمة الملك.. وان الأكاسرة، والفراعنة، والقياصرة، يرون الطريق الى التفوق على من سبقهم، لا يكون الا عبر التفوق عليهم في الغنى، أو ليست الاهرامات تعبيراً عن مظهر من مظاهر الغنى والخلود، وكذلك قصورُ الأكاسرة الممتدة، والتماثيل الضخمة والمباني الشامخة في روما وأثينا وأصطخر؟

وكانت المراتب الاجتماعية والطبقات السياسية في الممالك القديمة تحددها نسبةُ ومقدار الثراء.

لكل ذلك كان أسلوب عمر وعقيدته الصلبة المعادية للمال، ضربا من ضروب السلوك جديد، أدهش من هم بقربه ومن هم عنه بعيد..

وقد رفعت تلك الروايات التي تدور حول تزمت عمر وتصلبه إزاء المال، رفعته الى مصاف القديسيين، ويمكن أن نقول أن عمر في الروايات أو الحكايات الشعبية التي تتناول موقفه هذا، تجعل منه أول قديس في التراث الاسلامي المبكر وتظهر تصرفاته في شكل «الكرامات» التي نألفها فيما بعد عند من يسمون بالأولياء والصالحين.. ولا تثريب على أولئك الذين نسجوا حول عمر روايات، نسجها خيالهم أو خيالُ من بعدهم أو الذين قبلهم، ومضمونها أن عمراً كان يرى ما لا يراه الرجل العادي، أو كان يُرى عنه ما لا يُرى عن غيره، نقول لا تثريب عليهم في

ذلك، لأن تناول سيرته طُبع بطابع «الخارق».. تأمل هذه الرواية التي تنسب الى حُذيفة ـ قال: كنت واقفا مع عمر بن الخطاب بعَرَفات وانّ راحلتي لبجنب راحلته، وان رُكبتي لتمس ركبته، ونحن ننتظر أن تَغْرُب الشمس فنُفيض، فلما رأى تكبير الناس ودعاءهم وما يصنعون، أعجبه ذلك فقال: يا حُذيفة كم ترى هذا سيبقى للناس؟

فقلت: على الفتنة بابٌ فإذا كُسِرَ الباب أو فتح خَرَجَتْ، ففزع فقال: وما ذلك الباب، وما كَسْرُ باب أو فتحُه؟ قلت: رَجُلٌ يموت أو يُقتَلُ، فقال: يا حذيفة من ترى قومك يُؤمِّرون بعدي؟ قلت: رأيتُ الناس قد أسندوا أمرهم الى عثمان بن عفان.

هذه الرواية تؤكد المنحنى الخيالي، البعيد عن المنطق والعقل، هذا المنحى المبكر الذي ترجمت به شخصية عمر، وقد يكون السبب في ذلك كما سبقت الاشارة، هو النظر الى عمر كبطل خارق، لا تقتصر معالجة شخصيته وسيرته على الحقائق والوقائع التاريخية..

وتنسب الى عائشة أم المؤمنين قصة تدور في نفس المعنى الذي سبق، قالت: [لما كان آخر حجة حجّها عمر بأمهات المؤمنين قالت اذ صدرنا من عرفة مررتُ بالمُحصّب سمعتُ رجلاً يقول: أين كان عمر أمير المؤمنين؟ فسمعت رجلاً آخر يقول: ها هنا كان أميرُ المؤمنين: قال فأناخ ناقته ثم رفع عقيرته فقال:

عليك سَلامٌ من إمام وباركت ... يدُ الله في ذاك الأديم الممزقِ
فمن يَسْعَ أو يركبْ جناحي نعامةٍ ... ليُدركَ ما قدمت بالأمس يُسبقِ
قضيت أموراً ثم غادرت بعدها ... بوائق في أكمامها لم تفتقِ

فلم يَحْرُكْ ذاك الراكبُ ولم يُدْرَ من هو، فكنا نتحدث أنه من الجنّ قال فقدم عمر من تلك الحجة فطُعن فمات].

وغير هذه الروايات كثير ولكنها تدور حول نفس المعنى، ومنها ما يقول إن عمراً تنبأ بموعد وفاته، وما يقول أنه أخبر الناس بأن أعجميا سيقتله.. ولا معنى للوقوف عند هذه الروايات الخيالية الكاذبة، الا أنها تؤكد المكانة التي وُضِعَ فيها ابن الخطاب مبكرا، والذين حاولوا في كتابات حديثه تفسير هذا بأنه ضربٌ من الاتصال العاطفي، أو «الفراسة» التي ينسبونها الى عمر، ما نرى كلَّ ذلك الا مجرد تبرير أو تفسير واه، لخرافات لا يَخلو منها تراثُ أي شعب من الشعوب عندما يتعرض لسير أعلامه التاريخيين ولقد كان عمر بن الخطاب أحد الاعلام الكبار في التاريخ العربي الاسلامي، بل كان أعلاهم هامة وأشدهم بريقا.

14

التراث والتاريخ

14

التـــراث والتـــاريـــخ

وقدر الأبطال والممتازين، ان يدخلوا دائرة التراث قبل أن يدخلوا دائرة التاريخ. ودراسة أي عَلم أو بطل والترجمة له، هي من الصعوبة بمكان، خاصة اذا كان في المصادر شح، والروايات يغشاها ما يغشاها من التضارب والوهن في التفاصيل، واذا كان زمان الذي ندرسه زمنا متحركا عاصفا. فكل الذين من حوله وفي زمانه والذين يأتون من بعده، يضيفون الى مادة تاريخه. ويحذفون بالقدر الذي يخدم وجهاتهم، وأنت تعلم زمن عمر بن الخطاب، ولا أظنك تجهل أجواء السنوات التي جاءت من بعده، فقد كان لتلك السنوات غيوم، هطلت فتناً وحروبا.. وأحزاباً وكانت كل السنوات، سنوات عمر والتي أعقبتها تسبح في بحر من وهج العقيدة الاسلامية وهذا يجعل دراسة مثل هذه الشخصية أمرا شيقا قدر ما هو شائك، محفوفا بالزلل ومصاعب التفسير والتأويل.. فها قد رأينا كيف أصبح عمر بن الخطاب مادة للتراث قبل أن يصبح مادة للتاريخ، فالتراث لا يقدم شخصيات الابطال كما كانت، بل يقدمها كما شعر بها الناس، في زمان هذه الشخصية أو فيما بعد، والعرب من الأمم التي يصب تاريخها في تراثها، حتى يصبح التراث ثوبا يُلفّع وقائع التاريخ، وتصبح المهمة الأولى للدارس، أن يميط هذا الثوب الشتوي الكثيف، كي يصل الى أعضاء التاريخ..

وكثير من الروايات والقصص والمواقف التي تُنسج حول عمر بن الخطاب، أو تُنسبُ إليه، هي في الحقيقة مادة تراثية، وليس تاريخية، وهذه الاضافة التراثية للتاريخ ليست جديدة على العقلية العربية، ففف عند تاريخ أي شخصية عربية متميزة فستجد أن ما بين يديك هو كومة من التراث، وعليك أن تجاهد لصنع غربال علمي تستخلص به مادة التاريخ من أكوام التراث الهائلة.

والذين يصنعون التراث أو يحفظونه، ليسوا مؤرخين، بل هم المعجبون المبهورون بالشخصيات التي يتوارثون الحديث عنها إعجابا وانبهارا فيضيفون لها أو يختلقون وقد تكون لهذه

الإضافة أو الاختلاق دوافع مصلحية، سواء كانت بدافع التعصب القبلي، أو المصلحة السياسية وهي الشكل الأوسع للتعصب القبلي. وهذا ينطبق على عمر بن الخطاب، قدر ما ينطبق كما سنرى فيما بعد على علي بن أبي طالب، وأنطبق من قبل على سعد بن عُبادة، الذي رُوى أن الجن قد قتلته وأنشدت:

قد قتلنا سيّد الخزرج سعدَ بن عُبادهْ
ورميناه بسهمين فلم نُخْطِ فُؤادهْ

وقد رأينا فيما سبق موقف سعد من قضية تنصيب أبي بكر الصديق خليفة للمسلمين ومقاطعته لأبي بكر بقية أيام عمره. وقصة قتل الجن لسعد وهذان البيتان هما من باب الدعاية السياسية.

وقبل هؤلاء نرى تدخّل التراث في القصص التي تُروى عن كرم حاتم الطائي حيا وميتا.. وبطولات عنترة بن شداد، وسيف بن ذي يزن، والمهلهل، ونراها فيما بعد تُنسج حول هارون الرشيد.. بل أن عمر بن الخطاب كان من أوائل المدركين لخطورة تدخل التراث، عندما اتخذ قراره بعزل خالد بن الوليد، لأنه كما قال عمر، بدأ الناس ينسبون انتصارات المسلمين الى قدرات خالد الخارقة وليس الى وعد الله للمسلمين بالنصر كما جاء في القرآن [إن تنصروا الله ينصركم]..

وقد حاولنا فيما سبق أن نستخلص تاريخ عمر بن الخطاب من وسط التراث، فما هو من التاريخ فهو لعمر ومن فعله وقوله، أما ما خلا ذلك، فهو من التراث أي من إضافات الناس الى تاريخه وذلك يضيف الى قدر عمر والى مكانته، ويكشف المدى الذي أخذته شخصيةُ عمر في نفوس المسلمين، والذي نريد أن نخلص اليه هو ان التاريخ يبقى في عقول الناس، وينعكس على تصديهم لقضاياهم، يستثمرونه كقواعد وقوانين، أما التراث فان مكانه العاطفة والخيال، يرتفع الى أعلى كالوهم، ولا يهبط الى مدارج الواقع والحياة، والبعض يعتقد أن للتراث بخياله وأوهامه له فعل وأثر، فهو يساهم بشكل لاشعوري في بناء المثل الأعلى للشعوب والأمم.

وعندما نكون بصدد السنوات الأخيرة في عهد عمر، فإننا نكون على مشارف منطقة تاريخية رهيبة فالفترة التي أعقبت سنوات عمر وتولى فيها عثمان بن عفان الخلافة وأنتهت بقتله، هذه المنطقة هي التي قذفت باللهب على زيت الأيام التي أعقبتها، وهذه المنطقة خيوطُها متداخلة ورفيعة، كثيرة العقد والألوان وكل شيء فيها متحرك وعاصف.. وتقتضي أن نقف عندها كثيرا نتتبع ونتلمس ونقلّب علّنا نصل الى مشارف المرحلة التي أعقبتها، وقد زالت غشاوات كثيرة من فوق عيوننا التي ننظر بها الى تفاصيل تلك المنطقة من التاريخ...

كان موتُ عمر بن الخطاب، هو الريح التي تنبىء بقدوم الأعصار، فها هو أمير المؤمنين العادلُ الحازم يموت مقتولاً يموت وهو يأمّ المسلمين، قتله عبدُ فارسي، والتاريخ يقف عند هذا الحد في معالجة تلك الحادثة الخطيرة، بل هناك من يبالغ في تبسيطها، ويقول ان دافع فيروز

«أبي لؤلؤة» وهو قاتل عمر، ان دافعه لجريمته هو إنه اشتكى سيده المغيرة بن شعبة الى عمر بن الخطاب لأنه يتقاضى منه خراجا استكثره فيروز وأن عمرا رأى ما يعطيه فيروز الى المغيرة مبلغا معقولا مقارنا بدخل فيروز من حرفته، ويضيفون أن فيروز تناجي مع أمير فارسي دخل الاسلام هو الهرمزان، ومع ذمي نصراني هو جفينة. ونلقى في كتب التاريخ اجتهادات في تفسير دوافع ما قام به أبو لؤلؤة فيقولون انه كان يكره العرب، وكان يرى نفسه كفارسي، أرقى من العرب في التاريخ والحضارة، وانه كان يكره عمر أمير المسلمين وقائد فتوحاتهم، وقاهر الفرس، ومذل أكاسرتهم.. لذا أجهز على عمر وأرداه قتيلا..

والذي نراه، هو أن ذلك التفسير غاية في التبسيط. اما اذا حاولنا أن نتعمق وان ننظر الى تلك الحادثة الخطيرة برؤية أكثر نضجا وتحليلاً، لقلنا أن عمراً كان ضحية مخطط نصراني فارسي له سند عربي.. فقد رأيت أشكال المقاومة التي أتبعها العرب في مواجهة اندفاع الاسلام..

- فقد حاربه العرب عن طريق المنافقين، الذين أظهروا الاسلام، وأضمروا الكفر، وعملوا على تدمير الاسلام من الداخل.
- وحاربوا الاسلام علنا عن طريق الردة، واختلاق نبوات كاذبة سطحية.
- ولكن كل تلك الأساليب قد فشلت، فشلا ذريعا، وأعتقد العرب الذين أسلموا ولم يؤمنوا، أن المسلمين ستذهب ريحهم بعد وفاة أبي بكر، ولكنهم أيقنوا أن تولي عمر الأمر من بعد أبي بكر، قد نقل الاسلام الى آفاق من القوة لم تكن متوقعة.. ونظروا من حولهم فاذا الامبراطورية الفارسية والامبراطورية الرومانية تُداس يوما بعد يوم بأقدام المسلمين، وأن عمرا يبني مجتمعا عربيا عتيدا نقيا.. وهل يمكن أن نقول ببساطة أن أعداء الأمس من العرب قد ألقوا أسلحتهم، ورضوا فعلا بالاسلام دينا؟! واستسلموا استسلاما نهائيا للواقع الجديد؟! نحن لا نذهب هذا المذهب... ولا نرى هذه الرؤية.. والذي نميل إليه ونعتقد، هو أن أعداء الاسلام من العرب، قد أعتبروا عمر بن الخطاب هو عدوهم الأكبر، وأن قوة الاسلام هو أحد ركائزها، وأن قتله سيغير مجرى تأثير الاسلام، ويخفف من قوة اندفاعه أفقيا ورأسيا. أي سيقلل من قوة الفتوحات الاسلامية وسيوقف تعميق العقيدة في نفوس المسلمين.. ولا يمكن للمرء أن يقبل ببساطة أن عبدا فارسيا قد قرر قتل عمر الخليفة المسلم، لأنه لم يأمر سيده بتخفيض الخراج الذي يفرضه عليه، ولو كان هذا يشكل دافعا للقتل، لكان أوْلى بإبي لؤلؤة أن يقتل سيده المغيرة بن شعبة، لأنه هو الأساس في هذه القضية.. خاصة وان أبا لؤلؤة قد انتحر بعد تنفيذ جريمته.

ولا نشك في أن الفرس ـ والنصارى ـ والعرب الذين تضرروا من الاسلام، لا نشك أن هؤلاء كلّهم كانوا مستفيدين من قتل عمر. ونحن نعرف أن كثيراً من العرب الذين أظهروا الاسلام قد عبروا عن ضيقهم من سياسات عمر التي حَصرت طموحاتهم، وكبحت شهواتهم، وجموحهم الى التسلط والترف والاغتراف من طيبات الحياة، واستغلال الثروات

الجديدة التي زفّها إليهم الفتحُ الاسلامي الواسع لأقاليم غنية واسعة، مثل العراق، والشام، ومصر، وأجزاء من بلاد فارس..

وقد صحّت تحليلات أولئك، فقد كان مقتل عمر، مكسباً لأعداء الاسلام من فرس وروم، وللعرب الذين أسلموا ولم يؤمنوا. وكان مقتله خسارة للاسلام وللعرب الذين وقر الايمانُ في قلوبهم، ورأوا في عمر النموذج والقدوة والمثل الأعلى ـ صدقت تحليلات هؤلاء، لأنه بعد مقتل عمر دخل العرب والمسلمون مرحلة أخرى، وحقبةً أخرى، تختلف تماما عن تلك االتي كانوا عليها في حياة عمر. فقد بدأ الوهن يسري في ذلك الجسد العربي الاسلامي الفتي، وأخذت عواملُ الضعف تتكاثر وتتوالد مثلما البكتريا. ودخل العرب في نفق مظلم طويل طويل..

فقد آل الأمر بعد عمر الى عثمان بن عفان، ومالنا لا نقف طويلا، أمام هذا الانتقال للأمر، ونقلّب في كيفيته، لأن فيه بدايات وولادات لأيام شداد، ولأن فيها مؤشرات وبصمات لما هو آت.. فيها نكتشف وضع الدولة الاسلامية وما وصلت إليه من قواعد سياسية ومن فقه سياسي واداري، وفيها أيضا نتلمس ونتحسس، ما بقي وما مضى من نعراتٍ ورواسب بين بطون قريش، ونرى فيها أيضا ما ألم بالشخصية العربية والاسلامية من تغيرات الى الوراء أو الى الأمام.. إن تلك الأيام على قصرها، حريّة بوقفاتٍ عندها طويلة، وبدرسٍ عميق، لأنها تمثل مفصلا هاما في تاريخ الاسلام والعرب.

وكان عمر يعرف العرب، ويعرف نفسه. وقبل هذا وذاك يعرف الاسلام كما أنزله الله وكما أراده، واذا كان الزعماء اليوم يكتبون مذكرتهم في صفحاتٍ مسهبة تبلغ المئات والآلاف، يشرحون فيها تفاصيل أيام حكمهم، ويبثون فيها ما يعتبرونه عبرا ودروسا، اذا كان هؤلاء يفعلون هذا كما قلنا في مئات الصفحات فان عمرا قد لخص مذكراته في جملة، قال في أواخر أيامه: (لقد مللتهم وملوني). فقدكان عمر شديدا على المسلمين بالدين وفي الحق.. وكان يدرك أن شدته هذه قد جعلت الكثيرين يتضايقون منه، ويميلون الى الدعة والتمتع بطيبات الحياة، وكان عمر يعرف ذلك وهو الذي قال في أول يوم من أيام خلافته «إن الله قد ابتلاني بكم وابتلاكم بي»..

وكان شديدا على أسرته، وعلى ذويه من عدى، وكان لا يفرط في دانق واحد من أموال المسلمين، وكان أولُ المتضررين من سياسة عمر هذه أبناءه وذويه وكان لا يمل من القول أن مال المسلمين بالنسبة له بمنزلة مال اليتيم ويتمثل الآية الكريمة: (ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف)..

وكان يقول أيضا: إنني أمسك بحلاقيم قريش حتى لا يتهافتوا الى النار.. أما موقف أولئك الذين منعهم عمر من الانسياح في الأمصار لتكوين الثروات والجاه والسلطان، موقف هؤلاء لا يحتاج الى جهد للتعرف عليه.. وكان مبدأ عمر هو ان الرغبة يجب أن تكون في الدين، فسن صلاة القيام في رمضان، واستن حد الخمر، وتشدد في القصاص، وفي مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات وطبّق هذا على أقرب الأقرباء اليه بل على نفسه..

15

إبتكار أهم قاعدة سياسية في التراث السياسي الإسلامي



15

إبتكار أهم قاعدة سياسية في التراث السياسي الإسلامي

[قيل لعمر بعد أن طعن: يا أمير المؤمنين، لو استخلفت فقال: من استخلف؟ وأضاف، لو كان أبو عبيده حيا لاستخلفته وقلت لربي ان سألني: سمعت نبيك يقول «انه أمين هذه الأمة» ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيّا لاستخلفته وقلت لربي ان سألني: سمعت نبيك يقول: «ان سالما شديد الحب لله تعالى» فقال له رجل: أدلك عليه، عبد الله بن عمر، فقال قاتلك الله، والله ما أردت هذا كيف استخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته؟ وأضاف عمر: ان استخلف فقد استخلف من هو خير مني، وأن أترك فقد ترك من هو خير مني. وأردف : ما أردت أن أتحملها حيّا وميتا، عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انهم من أهل الجنة وهم: علي بن إبي طالب، عثمان بن عفان، عبد الرحمن بن عوف، سعد بن أبي وقاص، الزبير بن العوّام، وطلحة بن عبيد الله، فليختاروا منهم رجلا] [1].

هذا ما أورده ابن الأثير في كامله، أما ابن سعد في طبقاته فانه يورد روايات تذهب مذهبا يختلف، وهو أن عمرا قد شكل هذه اللجنة السداسية قبل حادثة طعنه، فحينما كان عمر بن الخطاب صحيحا كان يسأل ان يستخلف فيأبى، ولكنه صعد يوما المنبر وقال، ان مت فأمركم الى هؤلاء الستة الذين فارقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض، وذكر أسماء الستة الذين سبق ذكرهم.

والطبري في تاريخه يسوق الرواية كما جاءت لدى ابن الأثير، وهذه إقرب للصحة والصواب. وموضوع انتقال السلطة بعد عمر، أمر هام يستحق أن نقف عنده طويلا، لأن هذا الأسلوب كان جديدا، واضافة أو ابتكار لقاعدة سياسية هامة في التراث السياسي العربي والاسلامي.

---

(1) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج 3، ص 34.

فنحن رأينا ما دار في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، اذ لم يكن الرسول قد حدد منهاجا في الحكم، ولم يسمّ من يتولى الأمر من بعده، واكتفى بأن أوصى المسلمين بالتمسك بالعقيدة من خلال كتاب الله وسنة رسوله، وكان ما كان في السقيفة، والذي انتهى بتنصيب إبي بكر الصديق خليفة للمسلمين..

ولا نستطيع أن نصف الأسلوب الذي آل به الأمر الى أبي بكر بأنه أسلوب سلمي، بل كان فيه من ملامح العنف ما يكفي لأن نبعد عنه صفة السلمية، ولكنه لم يكن عنفا مسلحا والعنف السياسي كما نعرفه في عالمنا اليوم له ضروب ومستويات شتى.. وقد ترك الأسلوب الذي آل به الأمر الى أبي بكر، ترك ما ترك في نفوس الكثيرين من المسلمين، منهم المهاجرون، ومنهم من هم من الأنصار، وتطور الأمر الى أن انتهى بحروب الردة كما سبق..

اما انتقال السلطة الى عمر بعد وفاة أبو بكر فقد كان، سلميا، وان ترك ما ترك في نفوس بعض بني هاشم الذين رأوا في قرابتهم للرسول مؤهلا يُسبّقهم على من سواهم، ولكنه على كل الوجوه كان هادئا، ولا ننسى أن الظروف التي توفي فيها أبو بكر كانت بالغة الحساسية، وكان عمر بمثابة المساعد الأساسي له، مما جعل تسمية أبي بكر لعمر كخليفة له أمرا متوقعا ولم يكن موقع مفاجأة للكثير.

ولا ننسى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد انتقل الى جوار ربه اثر مرض عادي، وكذلك أبو بكر، فالاثنان توفيا وفاة طبيعية، اما عمر فقد مات مقتولا، وقد تغيرت الأمور كثيرا، ونشأ جيل من المسلمين جديد، ودخل الى الدولة الجديدة أقوام آخر وقيم جديدة وغريبة عن المجتمع العربي البدوي، كل ذلك جعل من أسلوب انتقال السلطة بعد عمر أمراً هاما يستحق الوقوف عنده والنظر فيه ملياً ولقد حاول عمر كما ذكر بنفسه أن يجمع بين ما أتبعه الرسول صلى الله عليه وسلم، وما اتبعه أبو بكر، فعمر عندما اقترح عليه بعضهم، ان يستخلف قال: ان أترك فقد ترك من هو خير مني، يقصد الرسول الذي لم يسم أحدا لتولي الأمور بعد وفاته ـ وان استخلف، فقد استخلف من هو خير مني، يقصد أبا بكر، الذي استخلف عمرا من بعده.. اذن فعمر وجد نفس أمام سابقتين مختلفتين، ونقول بلغة اليوم، انه وجد تراثا وقواعد سياسية سابقة في هذا الموضوع، وهاتان القاعدتان مختلفتان بقدر يجعل لعمر الخيار، ويعطيه شرف الاقتداء.. ولكن عمر فضّل أن يبتكر قاعدة سياسية جديدة الى القاعدتين السابقتين، وهما الترك.. كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم، وتسمية من يلي الأمور بعده كما فعل أبو بكر..

وهنا تتجلى شخصية عمر مرة أخرى.. وهنا يكمن التطور الذي تقتضيه سنة الحياة، وهذا الذي يستحق أن نقف عنده وأن نستخلص منه، فها هو عمر يجتهد ويبتكر في موضوع هو من الخطورة بمكان، بل نقول أنه أخطر الموضوعات في حينه.. وهل يقولن قائل أن عمرا أتى من الأمر شططا عندما ذهب الى أسلوب مخالف لسابقيه؟ لقد كان أمر الولاية أو الخلافة هو أمر دنيوي بحت، وعلى الناس أن يبتكروا ما هو مناسب لهم، ولا قيد عليهم في ذلك ولا حرج.. هذا ما يؤكده عمل الرسول عندما ترك أمر الحكم من بعده للمسلمين، يعالجونه بما يرونه، وبما تقتضيه ظروفهم، وقد ذهب أبو بكر مذهبا آخر مخالفا لما ذهب إليه الرسول صلى الله عليه

وسلم، فاستخلف عمرا بالاسم، وأبو بكر أول العارفين بأمور الدين وأول المدافعين عن قواعده، أو ليس أبو بكر هو الذي قاتل العرب الذين فرقوا بين الصلاة والزكاة؟

ولسنا في حاجة لأن نورد مكانة أبي بكر في الاسلام، ومكانته عند الرسول صلى عليه وسلم، وبلاؤه في سبيل الاسلام قبل الهجرة وبعدها.. وهو أول الذين يحافظون على سنن الرسول.. رغم كل هذا فان أبا بكر هو أول من قام بوضع قاعدة سياسية مبتكرة وهي تسمية من يتولى الأمر من بعده..

وها هو عمر بن الخطاب الفاروق، يعالج أمر الحكم بما ارتآه مناسبا للظرف الذي كان عليه المسلمون، فيبتكر أسلوبا في نقل السلطة مختلفا عن ما ذهب اليه صاحباه، الرسول صلى الله عليه وسلم، وأبوبكر الصديق.

ونحن نعلم مدى تشبث عمر بكل سنة من سنن الرسول، بل تشدده فيها، ومدى حرصه على قوة الاسلام كعقيدة، وحرصه على نقائه وصفائه، وهو الذي وضع للخمر حدا بعد أن تولى أمور المسلمين، وهو الذي تمنى أن يفصل الله في هذا الأمر في حياة الرسول فنزل القرآن محققا لأمنية عمر، ونعرف موقفه في الأسرى يوم أحد، وقد نزل القرآن مؤكدا صحة وجهته، ونعرف موقفه يوم الحديبية، وعمر هو الذي، أكد سنة صلاة التراويح في شهر رمضان، والرسول كان يصليها في بيته اشفاقا على المسلمين، ، كل هذا وكثير غيره يؤكد شدة عمر في الدين مثلما كانت شدته في أمور الدنيا، ، ولسنا بحاجة أن نطيل فيما يؤكد نزاهة عمر الدينية والدنيوية، ولا نظن أن هناك من يجادل في صحة ما ذهب إليه عمر في أسلوب نقل السلطة، ومدى مطابقته أو مخالفته للقواعد الدينية... وكان عمر ايضا ـ من أشد الناس حرصا على تراث أبي بكر، وقد كانت لأبي بكر مكانة خاصة كبيرة في نفس عمر، إنه يؤثره على نفسه، ويقدمه عليها حيّا وميتا، فعمر كان يعتبر أبا بكر قدوة له، سبقه الى الاسلام، وسبقه الى قلب الرسول، وسبقه في تولي أمور المسلمين... ولا أجد أعظم من هذه الرواية في تصوير تلك الحميمية الشفافة التي كانت تشد عمر الى أبي بكر.. فبينما كان عمر جالسا اذ أقبل رجل أعرج يقود ناقة تظلع حتى وقف عليه فقال:

إنك مُسترعى وانّا رعيةُ ... وإنك مدعوٌّ بسيماك يا عمر
اذا يوم شر شره لشراره ... فقد حملتك اليوم أحسابها مضر

وشكا الرجل ظلع ناقته، فأخذ عمر الناقة وحمله على جمل وزوده وانصرف، ثم خرج عمر عقب ذلك حاجا فبينما هو يسير اذ لحق راكبا يقول:

ما مسنا مثلك يا ابن الخطاب ... أبرُّ بالأقصى ولا الأصحاب
بعد النبي صاحب الكتاب

فنخسه عمر بمخصرة كانت معه، وقال، فأين أبو بكر؟... هذه الحادثة، تكشف مدى

العلاقة العظيمة بين عمر وأبي بكر، فقد كان عمر يتحسس من تجاهل أبي بكر في ما صغر من الأمور، فكيف بالله عليك في ما كبر؟

نخلص من هذه المعالجة الى أن عمرا كان واعيا بموقف صاحبيه من قضية، الاستخلاف، ولم يكن ليحيد عن أمركان بالنسبة لها قاعدة دينية، والذي ذهب اليه عمر من ابتكار أسلوب جديد في نقل السلطة يؤكد كما سلف أنه كان في اعتقاده، أمرا دنيويا نسبيا، متروكا للناس في كل زمان ومكان. وهذه هي القاعدة السياسية الجديدة التي أضافها عمر للثقافة السياسية العربية الاسلامية في مجتمعها الجديد..

ولكن ما هي الدوافع التي جعلت عمرا يختار هذا الأسلوب الذي ذهب اليه، وهو تحديد جماعة محددة أي الستة. وتكليفهم بأن يقوموا هم باختيار واحد منهم لمنصب الخلافة... ان بعض الروايات التاريخية تقول ان عمرا كلف المقداد أو أبا طلحة بأن يحاصر هؤلاء الستة الى أن يسموا الخليفة، وأمهلهم ثلاثة أيام، فاذا اختلفوا وجب قتل القلة المعترضة.. وأن عمرا أعطى لعبد الرحمن بن عوف رئاسة هذه اللجنة السداسية، وأعطاه قوة صوتين، وأنه أضاف ابنه عبد الله كمراقب دون أن يكون له من الأمر شيء، أي أنه لا يرشح للخلافة.. ولو تساءلنا عن دوافع عمر الى كل هذا.. لاستخلصنا اجابة ربما تكون لها قوة الاقناع، وهي شخصية عمر، ورؤيته الدينية والدنيوية، فهو لم يذهب الى تسمية شخص وذلك لأسباب عدة:

أولها: أنه لا يريد كما قال أن يتحملها حيا وميتا.. أي أنه خاف اذا ما عين شخصا باسمه، وأن هذا الشخص انحرف، فان عمرا سيتحمل تبعة ذلك أمام الله وأمام المسلمين..

ثانيها: أنه لم يجد من هو كفؤ ونزيه بالقدر الذي يجعل ثقة عمر فيه مطلقة، وهذا ما يؤكد قول عمر: لو كان سالم مولى حذيفة حيا لوليته لأني سمعت رسول الله يقول أن سالما شديد الحب لله تعالى، ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا لوليته لأنني سمعت رسول الله يقول أنه أمين هذه الامة..

ثالثها: أن عمرا كان يعرف التطور والتغير الذي حدث على العرب والمسلمين بعد الفتوحات وبعد كثرة الأموال والسعة والرزق، وميل العرب الى زينات الحياة، فقد كان عمر يشعر أن المسلمين سيمرون بامتحانات عدة.. وقبل كل هذا كان يدرك أن أواخر أيامه هي غير أواخر أيام الرسول صلى الله عليه وسلم وغير أواخر أيام أبي بكر فقد تغيرت الدنيا وتغير الناس، وأن مكانة الدين في النفوس ليست كما كانت على عهد رسول الله، وهاك ما قيم به موقف الناس وتوجهاتهم في أواخر عهده خطب عمر فقال: «أيها الناس، أن بعض الطمع فقر، وان بعض اليأس غنى، وأنكم تجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون، وأنتم مؤجلون في دار غرور، كنتم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤخذون بالوحي، فمن أسر شيئا، أخذ بسريرته، ومن أعلن شيئا أخذ بعلانيته، فأظهروا لنا أحسن أخلاقكم، والله أعلم بالسرائر فانه من أظهر لنا شيئا وزعم أن سريرته حسنة لم نصدقه، ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسنا، وأعلموا أن بعض الشح شعبة من النفاق، فانفقوا خيرا لأنفسكم، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون، أيها الناس

أطيبوا مثواكم، وأصلحوا أموركم، وأتقوا الله ربكم، أيها الناس لوددت أن أنجو كفافا، لا ليّ ولا عليَّ». [1]

(1) تاريخ الطبري، ج 5، ص 26.

16

الصحابة
في معركة السياسة



16

الصحابة في معركة السياسة

لقد حدد عمر أسماء اللجنة السداسية التي كلفها أن تختار من بين أعضائها خليفة ونلاحظ أن هؤلاء الستة هم من بين الذين بشرهم الرسول بالجنة، وهم من المهاجرين.. ومن الذين أبلوا في سبيل الدين أي بلاء.. ولم يقف عمر عند تحديد أسماء هذه اللجنة، بل حدد أسلوب عملها، وحدد أيضا الوقت الذي عليها أن تفرغ فيه من الوصول الى قرار، وكيفية اجراء التصويت.. الخ..

اذن فعمر لم يتوقف عند ابتكار أسلوب اللجنة لاختيار خليفة من بين أعضائها، بل حدد النواحي الاجرائية لتلك اللجنة، وكانت بالطبع ملزمة لها، وعرضنا للدوافع التي ارتأينا أنها دفعت عمر الى ذلك، وهي دوافع مرتبطة بزمانها وبمكانها.. أي وليدة ظروف ومعطيات نسبية، قابلة للتغير والتبدل، ولكن هل أدى هذا الأسلوب الذي قرره عمر الى انتقال سلمي للسلطة الى من بعده؟ نقول أنه كان سلميا الى حد بعيد.. ولا نقول أنه كان سلميا تماما.. فلقد خضعت أعمال تلك اللجنة السداسية وقراراتها الى مساومات كثيرة، والى ضروب من المناورات السياسية لا تختلف عن تلك التي سنراها فيما بعد عند معاوية وعمرو بن العاص. بل ونراها في كل مكان وكل زمان. ولا تثريب على أولئك الرهط فيما ذهبوا اليه، فهم بشر، قبل كل شيء، وأنها السياسة أيضا.. وأنها السلطة، ببريقها وجبروتها.. وكان عمر يدرك هذه الحقائق، ويتعامل معها، فهو بعد أن حدد الأسماء الستة، دعا اليه في صبيحة اليوم الثاني، كلا من علي، وعثمان، وسعد، وعبد الرحمن والزبير فقال لهم: «اني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم، ولا يكون هذا الأمر الا فيكم، وقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنكم راض واني لا أخاف الناس عليكم ان استقمتم ولكني أخافكم فيما بينكم فيختلف الناس، فانهضوا الى حجرة عائشة باذنها فتشاوروا فيها واختاروا رجلا منكم ووضع رأسه وقد نزف دمه فدخلوا فتناجوا حتى ارتفعت أصواتهم، فقال عبد الله بن عمر: سبحان الله، ان أمير المؤمنين لم يمت بعد».

كما ـ رأينا ـ أمر السياسة والسلطة والادارة، والناس فيه بشر، يتصرفون ابتكارا واجتهادا، وهذا ما قدره عمر ومن هذا المنطلق حاول أن يضع الضوابط والاجراءات المساعدة، التي استمدها من خبرته، ومن واقع فهمه للناس، وللدنيا. وهذا ما فاتح فيه عمر تلك الأطراف، فهم الذين يمثلون قيادات الناس ورئاساتهم كما قال.. وان الاختلاف لن يأتي الا منهم، لأن لكل منهم عصبيته وقوته، وقبل ذلك اعتداده بنفسه، وترشيحه لها للرئاسة.. وعمر كان بقراره هذا مصيبا كل الصواب.. فقد حاول أن يجعل الفرقاء هم الحكام أو الحكماء في قضية السلطة.. لأنه عرف أنهم سيكونون أسبق الى الفتنة والخصام، وهذا لم يحدث في الظروف التي واجهت أبا بكر في آخر أيامه، لأنه في تقدير أبي بكر كان عمر يمتلك من المؤهلات والمواصفات ما تجعله يتفوق على من سواه، وتجعل منافسته شبه معدومة، وكان الاجماع معقودا له، اما في حالة عمر فقد وجد نفسه أمام رهط يحس كل واحد منهم أن له من المؤهلات والأعمال والصفات ما يرشحه لمنصب الخلافة، فحاول أن يجعل من النار أداة لاطفائها..

واذا تابعنا مجريات معركة الخلافة، لانكشفت أمامنا، تفاصيل ما يدور في النفوس وعلى الألسن، ولوجدنا أنفسنا أمام مساومات مدروسة ومخططة، ومواقف متباينة فيها من السياسة أكثر مما فيها من الدين، وكانت قوانين تلك المعركة، لا تختلف عن القوانين التي تحكم أي معركة مشابهة لها في كل وقت، فكل يريدها لنفسه، أو لمن هو أقرب إليه، من حيث المصلحة، أو الفئة، أو العصبية. فعلي بن أبي طالب، والى جانبه عمه العباس، وبنو هاشم من حولها، أرادوها لهم منذ اليوم الأول، وأحسوا أن الرياح عكس وجهة سفينتهم، ولكن آثروا، أو آثر بعضهم، أن لا يكون ثمن وصولهم الى سدة الخلافة، هو الفتنة، واضرام نار المواجهة..

فعلي بن أبي طالب بعد ان خرج من لقاء عمر باللجنة التي كلفها أن تختار الخليفة من بينها، قال لقوم من بين هاشم «ان أطيع فيكم قومكم لم تؤمروا أبدا وتلقاه العباس فقال عدلت عنا فقال وما علمك؟ قال قرن بي عثمان وقال كونوا مع الأكثر، فان رضي رجلان رجلا، ورجلان رجلا فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف.. وأضاف علي أن سعد بن أبي وقاص لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون فيوليها عبد الرحمن عثمان، أو يوليها عثمان عبد الرحمن، فلو كان الآخران معي لم ينفعاني بله اني لا أرجو الا أحدهما فقال له العباس، لم أرفعك في شيء الا رجعت الي مستأخرا بما أكره، أشرت عليك عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسأله فيمن هذا الأمر فأبيت، وأشرت عليك حين سماك عمر في الشورى أن لا تدخل معهم فأبيت، أحفظ عني واحدة، كلما عرض عليك القوم فقل لا، إلا أن يولوك وأحذر هؤلاء الرهط فانهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الأمر حتى يقوم به لنا غيرنا، وأيم الله لا يناله الا بشر لا ينفع معه خير، فقال علي أما لئن بقي عثمان لأذكرنه ما أتى، ولئن مات ليتداولُنها بينهم، ولئن فعلوا ليجدني حيث يكرهون» (1)

وموقف علي بن أبي طالب وعمه العباس، يجسدان طبيعة ومحركات تلك المعركة الدائرة،

---

(1) تاريخ الطبري، ج 5، ص 35.

فبنو هاشم يريدونها لهم، ويدركون أن هناك جناحا آخر يريدها، وأن هذا الجناح الآخر أقوى في داخل لجنة الشورى من بني هاشم.. وهذا الجناح وفقا لتحليل علي يتزعمه عبد الرحمن بن عوف، ويضم عثمان بن عفان وسعد بن أبي وقاص، وقد اعتمد علي في تحليله لتحالف هذا الجناح وأئتلافه على أساس صلة الدم التي تجمعهم، فسعد بن أبي وقاص ابن عم عبد الرحمن بن عوف، وعبد الرحمن صهر عثمان، وعبد الرحمن له صوتان وفقا لتوجيه عمر، وهذه مؤشرات حاسمة في رأي علي لأن تجعل الغلبة لعثمان... وتقول بعض الروايات التاريخية ان عليا قد اتصل بسعد بن أبي وقاص وطلب منه ان لا يناصر عثمان عليه.. وروايات أخرى تقول ان سعدا والزبير بن العوام قد أبلغوا عبد الرحمن بن عوف تأييدهم لعلي بن أبي طالب وتفضيلهم له على عثمان بن عفان.. ومثلما قلنا بصدد سقيفة بني ساعدة وما شهدته من معركة سياسية غير مسلحة، نقوله بصدد ما دار في أمر الخلافة اثر وفاة عمر، فقد كانت معركة غير مسلحة، ولم نصادف فيها من يستشهد أو ليستدل بالقرآن أو أحاديث الرسول، ولكن أدوات تلك المعركة كانت الموازين العائلية، وعلاقة الأقارب.. وكان الأنصار قد أخرجوا من هذه المعركة، وأنحصرت هذه المرة في المهاجرين، بل في قريش فقط، لأن استخلاف أبي بكر قد ثبت قواعد سياسية، وأخذ كسابقة لها قوة القانون، أو كما نقول اليوم، لها قوة دستورية، فأكتفى الأنصار بالقيام بدور الحراسة لهؤلاء الرهط الذين يتناولون أمر الخلافة.. والذين يقولون ان ابن عوف قد استطلع رأي الانصار ويعتبرون ذلك من عملية الشورى، انما يأتون ضربا من المصادرة واهيا، فعبد الرحمن بن عوف لم يرد اطلاقا توسيع هذا الأمر بل حاول تضييقه، فقد نقله من دائرة الأربعة الى دائرة علي وعثمان، فاستقبل كلا منهما ثم جعله الى نفسه، حتى أتى المسجد وأعتلى المنبر ودعا عليا وقال: عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله، وسيرة الخليفتين من بعده قال: أرجو أن أفعل فأعمل بمبلغ علمي وطاقتي، ودعا عثمان فقال له: مثل ما قال لعلي فقال عثمان: نعم نعمل، فرفع عبد الرحمن رأسه الى سقف المسجد ويده في يد عثمان فقال: اللهم أسمع واشهد اني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان وبايعه.

وبدأ عهد عثمان، والعرب يخوضون معاركهم على أكثر من جبهة ضد الفرس والروم، ولكن، بداية عهد عثمان اذا ما قورنت ببدايتي أبي بكر وعمر، يمكن اعتبارها ممتازة، ممتازة بالنسبة له كخليفة يقود مجتمعا جديدا يتسع كل يوم، وينشر رسالة سماوية، هي خاتمة الرسالات، فقد استلم عثمان مجتمعا له ما يمكن أن نصفه بالتنظيمات والقواعد الأولية، فقد أنجز عمر الكثير من التنظيمات الادارية، وأشاع جوا من الانضباط، في الدعوة، وساعدته مركزيته الشديدة وجولاته الميدانية الى بعض الأقاليم من الالمام بالمشكلات العامة، وأحوال الناس، وكان الولاة يهابون عمرا مثلما يهابه بقية المواطنين.. وفي الجانب العسكري، قطع عمر خطوات في الادارة والتنظيم، والجرايات ما جعل من المجاهدين قوة حربية عالمية عتيدة. أما من الناحية المالية، فيمكن القول ان العرب قد وصلوا الى ما يمكن ان نسميه بالرفاهية بالنسبة لمعايير عصرهم وبالمقارنة الى مستوى حياتهم قبل الاسلام وقبل الفتوحات.. تلك هي ملامح المجتمع الذي تولى عثمان زمام أمره. وفوق كل ذلك، تولى عثمان قيادة رعية يملأ الايمان قلوبهم،

ويحرصون عليه أكثر من حرصهم على أنفسهم، وقد حملهم عمر على أن يكونوا كذلك، بل ان عمرا قد ترك ما هو في غاية الأهمية، ترك خارطة سياسية واضحة المفاتيح، هي من الفائدة بمكان لمن أراد أن يستعين بها في الوصول الى القوة، قوة الدنيا والدين، وهذا ما تلخصه خطبته التي يقول فيها:

[أربع من أمر الاسلام لست مضيعهن، ولا تاركهن لشيء أبدا:

- القوة في مال الله وجمعه، حتى اذا جمعناه وضعناه حيث أمر الله، وقعدنا آل عمر ليس في أيدينا ولا عندنا منه شيء.
- المهاجرون الذين تحت ظلال السيوف ألا يحبسوا ولا يجمروا، وان يوفر فيء الله عليهم وعلى عيالاتهم، وأن أكون أنا للعيال حتى يقدموا.
- والأنصار الذين أعطوا الله عز وجل نصيبا، وقاتلوا الناس كافة، أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وأن يشاوروا في الأمر.
- والأعراب الذين هم أصل العرب ومادة الاسلام أن يؤخذ منهم صدقتهم على وجهها، ولا يؤخذ منهم دينار ولا درهم، وان يرد على فقرائهم ومساكينهم» (1)

وقد عاهد عثمان المسلمين على أن يعمل بكتاب الله وسنة رسوله، وأن يقتدي بسيرة أبي بكر وعمر.. وهذا ما جعله يفوز بالخلافة من دون علي الذي قال: «أرجو أن أعمل فأعمل بمبلغ علمي وطاقتي».. ولم يكن رد علي هذا من باب الاعتراض، بكل كان من باب التواضع، والتقدير الدقيق والعميق لجسامة ذلك العهد، وحاول أن يكون صادقا مع نفسه وأمام المسلمين، لأن ما طلب اليه هو فوق امكانية ومستطاع بشر، وانما أراد أن يعطي نفسه فرصة بل حق الاجتهاد والتصرف في اطار مبادىء الاسلام، ولسنا بصدد اصدار أحكام على أحد، سواء عثمان أو علي، ولكن نقول أنه كان لكل منهما وجهته ورؤيته، فلم يكن في أي منهما ما يؤخذ عليه في دينه أو أخلاقه، بل كانا من النماذج الاسلامية التي وهبت كل شيء لدينها، ولم يكن أي منهما قاصرا في فهم ما طلب منه أن يعاهد المسلمين عليه، ولم يكن من بين المسلمين يومئذ من أعترض على تلك الصيغة التي طرحها عبد الرحمن بن عوف على الرجلين، والروايات تتفق على أن المسلمين تدافعوا على عثمان لمبايعته، وان عرضت بعض الروايات لما وصفته بتقاعس علي عن المبايعة في البداية، وتحفظ آخرين مثل المقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر، ولكن تحفظها لم يكن ذا شأن، وحتى طلحة بن عبيد الله سارع الى مبايعة عثمان وهو كما سبق القول أحد أعضاء لجنة الستة التي كلفها عمر بأن تختار الخليفة من بين أعضائها، كما أن أهل الأمصار أعلنوا تأييدهم لعثمان بعد ان وصلهم نبأ تنصيبه خليفة للمسلمين.

(1) تاريخ الطبري، ج 5، ص 33.

17

عثمـــان الأمـــوي

17

عثمان الأموي

في حديثنا عن عمر بن الخطاب وقفنا طويلا عند شخصيته، وحاولنا القاء أضواء كافية حول جذور هذه الشخصية والعوامل التي أسهمت في تشكيلها، وكيف انعكست شخصيته العربية الاسلامية على مسار الدولة، ونرى أن نقف هنا أيضا عند شخصية عثمان بن عفان مثلما وقفنا عند شخصية عمر.. فنحن نرى أن تحليل شخصية الخليفة تفيد كثيرا في فهم وجهات سياسته ومحركاتها، لأن منصب الخليفة، كما رأيناه في صدر الاسلام، منصب شامل ومطلق، فلم تكن هناك ضوابط تحد من سلطاته، الا ما هو نابع من ذاته، أي منبعث من داخل شخصيته، وله القول الفصل والقرار الأخير، وكان الآخرون يسمعون ويطيعون.. وقد كانت قاعدة «السمع والطاعة» سلاحا رهقا، استخدم عبر تاريخ الخلفاء على وجوه عدة، فهناك من اتخذه قاعدة دينية وأخلاقية تدفعه الى التمسك بالعدل والمساواة، من منطلق الخوف من الله، والخوف على المسلمين الذين يسمعون ويطيعون.. وهناك من استخدمه على غير هذا، فكان ما كان من ديكتاتورية، وظلم، واستغلال للناس باسم الدين وباسم مبدأ «السمع والطاعة».

وعندما نعرض لشخصية عثمان بن عفان، نقول انه نشأ في بيئة اجتماعية جاهلية مثل التي نشأ فيها عمر، غير أن حياتهما قبل الاسلام كانت مختلفة، فقد نشأ عثمان في أحد البيوت الأموية، التي هي الى الغنى أقرب منها الى الفقر، فقد كان والد عثمان ميسورا، ولما توفى ترك لعثمان أموالا لا بأس بها..

- وكانت الارستقراطية القريشية وما فيها من تقاليد صارمة، تفرضها الطبيعة التجارية، كانت تلك الارستقراطية القريشية تتجلى في البيوت الأموية أكثر منها في أي بيت قريشي آخر.
- وكانت النزعة المحافظة عند بني أمية، تحد من تفرد المنتسبين الى هذا البيت من قريش، بحيث تتدخل المفاهيم والتقاليد الأسرية في بناء وتكوين شخصية كل فرد، وكان بنو أمية

مستفيدين من الوضع الاجتماعي والسياسي والديني والاقتصادي الذي كانت عليه مكة قبل الاسلام، وكانوا أشد القريشيين معارضة للرسول صلى الله عليه وسلم عندما كان في مكة وعندما هاجر منها، كانوا هم أصحاب السلطة والمال في مكة، والزعامة معقودة لهم، ولهذا كان موقفهم العدائي الشديد من الاسلام ليس بدافع التشبث بأوثان قريش، بقدر ما كان بدافع التشبث بامتيازاتهم، ولهذا نجد أن نسبة السابقين الى الاسلام من بني أمية قليلة اذا ما قورنت بنسبتها الى البيوت القريشية الأخرى.. وعندما دخل عثمان بن عفان في الاسلام ووجه بمعارضة عنيفة من عمه الحكم بن العاص، فقد كان يوثقه رباطا ويقول له: «أترغب عن ملة آبائك الى دين محدث؟ والله لا أحلك أبدا حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين، وكان عثمان يقول: والله لا أدعه أبدا ولا أفارقه»..

وقد هاجر عثمان من مكة الى الحبشة في الهجرة الأولى والثانية، وربما كان ذلك بسبب الشدة والعنف التي تناوله بها عمه الحكم بن العاص لدخوله الاسلام..

وكان عثمان بن عفان خجولا، يميل الى الانطواء، لينا في معاملاته ومعالجاته، هادىء الطبع، حتى أن الرسول كان يلاحظ ذلك في عثمان، ولم يكن لين عثمان ووداعته مثل ذلك اللين وتلك الوداعة التي عهدناها في أبي بكر الصديق، فقد كان أبو بكر لينا في بدايات كل أمر، حاسما متصلبا في خواتمه الا أن عثمان كان لينا في بدايات الأمور ونهاياتها.. وهذا ما جعل الذين من حوله يتقافزون على سلطته، وينهبون اختصاصاته.. كما أن خجله سلبه تلك الميزة التي عهدناها في عمر وهي الوضوح والتحديد والقدرة على مواجهة الناس، ومواجهة المواقف، والحدية في اتخاذ القرار...

والعصبية الأموية التي اضطهدت عثمان لما دخل الاسلام، اضطهدت المسلمين عندما أصبح عثمان خليفة، وعثمان الذي كان يجود بماله لتمويل غزوات الرسول ويشتري الآبار ليشرب منها المسلمون، سنراه فيما بعد يجود بمال المسلمين الى بني أمية، كما يجود عليهم بتوزيع الولايات.

تلك ملامح من شخصية عثمان ستنعكس أيضا على سياسات ومسارات الدولة في عهده، فقد قلنا فيما فات من الأوراق، ان عثمان، قد استلم بعد توليه الخلافة دولة تخوض معارك على جبهات عدة، ودولة في طور التأسيس، لم تترسخ القواعد السياسة والادارية فيها ولكنها رغم ذلك كانت دولة منضبطة، قادها عمر بمركزية شديدة، وكان على عثمان أن ينطلق الى ترسيخ ما أسسه عمر، وانضاج السياسات والقواعد التي اختطها، لكن الأمور سارت على غير ذلك، وولجت في منحيات والتواءات، قادتها الى سلسلة من الارتباكات، تكللت بقتله، واشتعال فتنة، صدق الناس في وصفها «بالكبرى».

ويقول البعض أن عثمان قد ووجه منذ يومه الأول في الخلافة بامتحان صعب، صعب من الناحية الدينية ومن الناحية الانسانية، ومن الناحية السياسية أيضا. فقد اندفع عبيد الله بن عمر بن الخطاب، اثر مقتل والده، وقتل الهرمزان وهو مسلم فارسي، وجفينة وهو نصراني

ذمي، كما قتل ابنة أبي لؤلؤة وهي ذمية.. وقد اختلف الذين من حول عثمان في كيفية معالجة هذا الأمر، فالمتشددون وعلى رأسهم علي بن أبي طالب أصروا على ضرورة قتله قصاصا..

أما الذين سبقوا ضرورات السياسة فأشاروا على عثمان بتجنب قتل عبيد الله حتى لا يقول المسلمون، قتل عمر بالأمس، وقتل ابنه اليوم وقاد هذا الاتجاه السياسي عمرو بن العاص الذي قال لعثمان لقد أتى عبيد الله ما أتى عندما لم تكن أنت ـ يقصد عثمان ـ خليفة للمسلمين. وهل نقول ان عليا بن أبي طالب أشار بما أشار بدافع ديني حق، أو من منظور سياسي بقصد أن يضع عثمان في موقف انساني وسياسي حساس أمام المسلمين؟ هذا السؤال تكمن اجابته في نوايا أولئك الذين كانوا حول عثمان يومئذ..

والذي يهمنا هو قرار عثمان في هذه القضية، فقد انعكست شخصيته على أول موقف واجهه وهو في منصبه الجديد، فقد دفع دية القتلى من ماله وأفرج عن عبيد الله بن عمر...

ولا حرج علينا في أن نرخي الطول لخيالنا، وان نعمل الجدل قليلا، فنقول، لو أن عمر كان محل عثمان في هذه القضية أو في مثلها، لكانت معالجته مختلفة كل الاختلاف ومن استقرائنا لتاريخ سلوكيات عمر، يمكننا أن نقول، أن الوضوح والتحديد والحسم كان مذهبه في معالجة ما كبر من الأمور وما صغر، وفيما اتصل بآل بيته أو بنفسه؟.. وقد رأينا أخذه لابنه عبد الرحمن بالأشد.. مما أدى الى وفاته.. وسواء كانت حيثيات عثمان في اصدار حكمه على عبيد الله بن عمر بتلك الكيفية، سواء كانت حيثيات عثمان دينية أو سياسية أو انسانية خالصة، فاننا نقول أن مدخله اليه كان لينا وكذلك مخرجه منه، وربما كان هذا الحدث المبكر وأسلوب عثمان فيه، مؤشرا مبكرا أيضا في استطلاع ما هو مقبل من سياسات ابن عفان. ولا نعتقد أن عثمان قد توخى منهج عمر وهو يعالج هذا الأمر، ولا ننسى أيضا أن هذه النقطة، وهي توخي سيرة الشيخين، هي التي رجحت كفة عثمان على علي بن أبي طالب عندما أخذ منهم عبد الرحمن بن عوف عهد الخلافة، فلوكان علي بن أبي طالب هو المبادر الى مخالفة منهج عمر لاعطيناه الحق في ذلك وزدناه عليه احترامنا، لأنه منذ البداية قرر أنه سيجتهد وسيرى. أما عثمان فقد قطع على نفسه عهدا بأن يكون متبعا لا مبتكرا ولكنه منذ اليوم الأول نراه يجتهد، واجتهاده من باب اللين وليس من باب الحرص. وكثيرون أعطوا عثمان الحق فيما حكم به في قضية عبيد الله بن عمر، لأنه كخليفة يملك حق الصفح والقبول بالدية.. ولكننا نحاسب عثمان بما أختاره هو وبما عاهد الناس عليه. ونجمل القول في أن تلك السابقة كانت نقطة سلبية سجلت على عثمان منذ يومه الأول في الخلافة، ولقينا فيما بعد الكثيرين ممن يحسبونها كذلك، ويعتبرونها من المآخذ الأساسية على عثمان، التي أضيفت الى مآخذ أخرى سوغت الثورة عليه والاعتراض على عهده اعتراضا جزئيا أو كليا.

وقد وصف بعض المؤرخين، والدارسين للتاريخ، وصفوا النصف الأول لعهد عثمان، بأنه لا غبار عليه، ولا قدح فيه، فقد سار في الناس سيرة تؤلفهم من حوله وتحببهم اليه، قوت شوكة الدولة في الخارج ووسعت مساحة الأراضي المفتوحة، وجعلت العرب قوة بحرية بالاضافة الى كونهم قوة برية، الى جانب كل ذلك، يضيفون، أن عثمان قد أجزل العطاء

للناس، وأطلق يده في العطاء بشكل لم يسبق اليه ولم يلحق من بعده، أما الولاة فقد كانوا في السنوات الست الأولى من حكم عثمان الذي دام 12 سنة، كانوا على وتيرتهم السابقة من الانضباط والعدل وطاعة الخليفة.. ونحن لنا في هذا القول رأي..

فلم تكن تلك السنوات على هذا القدر من النصاعة، والمثالية والعدل والانضباط، وان كان فيها ما يدعون من الرفاه والجزل في العطاء.. وهذه أدلتنا على ما نذهب إليه:

1 ـ ان ما كان ناصعا، ومقبولا في النصف الأول من عهد عثمان، كان بقوة الدفع الذاتي التي احتفظ بها المجتمع الاسلامي العربي من عهد عمر بن الخطاب.

2 ـ ان الصحابة، أهل التأثير، وقيادة الرأي العام في المجتمع الاسلامي كان كثير منهم على قيد الحياة في تلك الفترة، وكانوا يحتفظون بقوتهم السياسية والدينية، ووجدوا في لين عثمان ما يمكنهم من التأثير في الناس وفي السياسة، وقد مثلوا ضابطا وكابحا لكل محاولات التجاوز والتعدي.. فقد علم عبد الرحمن بن عوف أن عثمان قد أعطى لأقاربه من بني أمية كمية كبيرة من أموال الصدقات، فاستردها عبد الرحمن ووزعها على المسلمين. وعلم عثمان بذلك فسكت، وسكت بنو أمية.

3 ـ ان ذوي عثمان، وهم من بني أمية، كان أغلبهم من الطلقاء، الذين لم يسلموا الا بعد فتح مكة، أسلموا مكرهين، وليس عن قناعة، وهم الذين قاتلوا رسول الله من قبل وآذوه، وعذبوا صحبه، ومنهم من طرده رسول الله، ومنهم من نزلت فيه آيات تصفه بالفسق، لكل ذلك لم يبادروا في الكشف عن تدخلهم في سياسات عثمان، الا فيما بعد لأن سوابقهم غير المحمودة، جعلتهم يتربصون وينتظرون الظروف الملائمة لمباشرة التدخل والاستحواذ.

4 ـ كثرة الأموال، التي كانت تعود على بيت المال، ومضاعفة عثمان العطاء لكل المسلمين، جعلت الناس في البداية لا ينظرون الى تجاوزات عثمان المالية، وكذلك وفرة ثروته هو مكنته أن يعطي ذويه من ماله الخاص، دون أن تكون به حاجة للأخذ من بيت مال المسلمين الا في نطاق محدود..

والى جانب هذه الأدلة الأربع، هناك أدلة أخرى جانبية، كلها تؤكد أن السنوات الست الأولى من حكم عثمان لم تكن كاملة النزاهة، حتى لو كان فيها قدر من ذلك، فانه كان لأسباب موضوعية فرضت نفسها على عثمان وعلى أولئك الذين أوصلوه فيما بعد الى ما وصل اليه.

18

المـال مـوطـن القـوة والـضعـف



18

المال موطن القوة والضعف

كان موطن القوة في سياسة عمر بن الخطاب هو موقفه من المال.

وكان موطن الضعف في سياسة عثمان هو موقفه من المال...

فقد كان عمر يقول أن مال المسلمين بالنسبة له مثل مال الأيتام، وكان يكرر قراءة الآية (ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف) أما عثمان فقد كانت فلسفته في ذلك مغايرة تماما، فكان يقول: (ان أبا بكر وعمر كانا يتأولان في هذا المال ظلف أنفسهما وذوي أرحامها واني تأولت فيه صلة رحمي)..

ونحن نستطرد في المقارنة بين عمر وعثمان، لأن الثاني ألزم نفسه أمام المسلمين يوم بيعته أن يسير سيرة أبي بكر وعمر. ولما كان أبو بكر لم يترك تراثا سياسيا كبيرا بسبب قصر مدة ولايته، وتركز اهتمامه على حروب الردة، فان سيرة عمر هي المعنية، حيث كانت فترة عمر من الطول بما هو كاف لتثبت عددا من القواعد السياسية الأولية مما يشكل خارطة، تعد واضحة لمن أراد أن يتبع أو يتقدي، وذلك كما قلنا ما أخذه عثمان على نفسه.. اذن لماذا هذا الموقف المختلف الذي اتخذه عثمان فيما بعد.. ولماذا مخالفة سيرة عمر في كثير من الأمور؟

لقد كان عثمان بن عفان تاجرا في الجاهلية والاسلام.. وقد نشأ في سعة من العيش، ولم يعان في طفولته من شظف الحياة ما عاناه عمر، ولهذا كان المال يعني له غير ما كان لسلفه، فتبسط فيه ولان حتى بلغ ما بلغ. بل أن عثمان أصبح يضيق من تذكيره بسيرة عمر وقد نسب اليه في أحد خطبه أنه قال للمسلمين «ان ابن الخطاب كان يغلظ عليكم ويؤذيكم بلسانه ويده ويطأكم بقدمه ففخمتموه وعظمتموه» وعندما هم عثمان بتوسيع المسجد الحرام، اشترى من البعض أرضهم التي حول المسجد، ورفض آخرون أن يبيعوا أرضهم، فأمر عثمان بهدم ما عليها وضمها الى المسجد، فصرخ هؤلاء في وجه عثمان معترضين، فقال لهم ان حلمي هو الذي جراءكم عليّ، فقد فعل هذا بكم عمر ولم تصرخوا في وجهه..

وهكذا بدأ عثمان يتحسس من شخصية عمر، ومن سيرته، وشعر بأنها مصدر ضيق، اتخذها الناس كالأرجام على الطريق، أوكاشارات مرور، يعتبروا أي تجاوز لها أو تغيير هو مخالفة لا يمكن السكوت عليها.. وكلما زادت تجاوزات عثمان وأخطاؤه، استعاد الناس سياسات عمر، و إساليبه. وأحسبهم أنهم بالغوا في تنزيه عمر، والسمو به الى حد التقديس، وقد فاتح الكثيرون من الصحابة عثمان منذ البداية، ونبهوه الى بعض المخالفات أو الاجتهادات التي رأوا أنها ليست من الدين والسياسة في شيء وكان عثمان في البداية يستمع اليهم ويحاورهم. غير أنه ضاق بتدخلهم فيما بعد، واكتفى بما يشير به عليه ذووه من بني أمية، بل نراه أخذ يغلظ على الصحابة ويصدهم بل يضربهم مثلما فعل مع عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود، وكذلك معاملته لأبي ذر الغفاري ونفيه اياه الى الربذة.. لأنه اعترض على ممارسات عثمان ومعاوية بن أبي سفيان..

- والنقطة الأساسية الثانية التي أخذت على عثمان هي اتجاهه الى تولية الأمويين ولايات الدولة الرئيسية: البصرة، الكوفة، الشام، ومصر..

فقد كانت الشام تنقسم الى عدة ولايات وهي:

دمشق، حمص، فلسطين، الأردن.. ولكن عثمان جمعها في ولاية واحدة وجعل عليها معاوية وبهذا أصبحت أكبر ولاية في الدولة الاسلامية وكان على البصرة أبو موسى الأشعري. فنصب عليها عثمان عبد الله بن عامر بن كريز وهو ابن خال عثمان.

- وعزل عثمان سعد بن أبي وقاص عن الكوفة ونصب مكانه الوليد بن عقبة بن أبي معيط وهو أخو عثمان لأمه.
- وعزل عمرو بن العاص عن مصر وعين بدلا منه عبد الله بن سعد بن أبي سرح وهو أخو عثمان في الرضاعة.. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أهدر دم عبد الله بن سعد هذا يوم فتح مكة وشفع له عثمان عند الرسول فعفا عنه...

وعندما اضطر عثمان الى عزل الوليد بن عقبة عن الكوفة بسبب شربه الخمر كما تقول بعض الروايات، وأنه صلى الفجر بالمسلمين أربع ركعات، عندما اضطر عثمان الى عزل الوليد نصب مكانه سعيد بن العاص بن أمية، وكان قد تربى في حجر عثمان.. ولا شك أن اتجاه عثمان هذا الى ايثار ذويه من بني أمية بالولايات، كان انقلابا في سياسة الدولة الاسلامية بل في سياسة عثمان ذاته، وكانت هذه السياسة بداية القلق الذي تحرك في أوساط الصحابة وعامة الناس. وتصاعد النقد لعثمان.. أما عن دوافع عثمان الى انتهاج هذه السياسة، فقد تعددت فيها الروايات والتفسيرات والتحليلات..

- فقد كان عثمان شيخا مسنا، وهناك من يقول انه عندما تولى الخلافة كان قد جاوز السبعين، وهذا ما جعل قدرته على مباشرة كل الأمور محدودة عكس سابقيه، أبي بكر وعمر، اللذين كانا أصغر من ذلك بكثير، وهذا مكن ذوي قرباه من التدخل في شؤون الدولة الى حد جعل سلطات عثمان محدودة.

- سيطرة مروان بن الحكم الذي كان بمثابة أمين سر عثمان، سيطرته على أمور الدولة وتوجيهها نحو مصالح بني أمية، واطلاق يده في بيت المال، دون رقيب أو حسيب..
- الدور الكبير الذي كان لمعاوية، كوال على أكبر ولاية في الدولة وهي الشام بعد أن خلف أخاه يزيد بن أبي سفيان وضم كل ولايات الشام إليه. وقد كان معاوية يتخذ قراراته دون الرجوع الى عثمان، وكان الأخير يوافق عليها ويعتمدها دون مناقشة، وعندما نبه علي بن أبي طالب عثمان الى ما يقوم به معاوية وتجاهله للخليفة، قال عثمان، ان عمر بن الخطاب هو الذي ولى معاوية دمشق، واطلق يده فيها، ورد علي أن معاوية كان يخاف عمر أكثر مما كان يخافه غلامه يرفأ. ولم يكن عثمان في الواقع يقف عند حد قبول ما يقوم به معاوية، بل كان يخضع الى ما يشير به عليه وقد كان معاوية يلح على عمر بن الخطاب في غزو بلاد الروم من البحر، غير أن عمر بن الخطاب استشار عمرو بن العاص في موضوع استعمال البحر للغزو، باعتبار أن عمرو بن العاص يتولى ولاية بحرية هي مصر، وكان رد ابن العاص غير مشجع، فرفض عمر طلب معاوية. وبمجرد تولي عثمان الأمر وافق على مشروع معاوية، وقام العرب بارتياد البحر لأول مرة، وتوجهوا بحرا الى قبرص التي كانت خاضعة للروم. كما أن عثمان كان يبعث بالمعارضين لسياسته الى معاوية ليتولى تأديبهم ومعاقبتهم ويرجع الى معاوية في كل القرارات الهامة والخطيرة.

هذا الاتجاه الأموي أكبر من أن يخفى على الناس، أو أن يجد له عثمان مبررات تقنعهم وأدرك الناس أن ما كان لقريش من أمر السلطة، قد تركز في أيدي بني أمية، وكان أول من أحس بذلك بنو هاشم الذين كانوا يتطلعون الى الخلافة فاذا بهم لا يصلون الى ما دون ذلك، أي حكم الولايات، كما أن اعادة عثمان لعمه الحكم بن العاص الى المدينة، وكان الرسول قد طرده في حياته حتى سمي طريد رسول الله، كان هذا الفعل، مثار غضب وسخط من الكافة..

ولا شك أن المرء يجد نفسه أسير الاستغراب والحيرة، وهو يرى عثمان يذهب الى هذا الخطأ البيّن الذي لا يمكن الدفاع عنه، من حكر السلطة والمال على بني أمية، واذا ما اجتهدنا لنجد تفسيرا لهذا الاتجاه، أو تبريرا نخفف به عن عثمان، لقلنا أن كبر سنه وتركيب شخصيته، وميله الى اللين، جعله مغلوبا على أمره، واستسلم كلية لارادة ذويه من بني أمية..

فنفوذ بني أمية ازداد تصاعديا مع كبر سن عثمان الذي يقال أنه يوم قتله كان قد تجاوز الثمانين عاما بل هناك من يقول أكثر من ذلك.. ومع كبر سنه تفرغ عثمان للعبادات في أواخر أيامه كان عثمان منكبا على قراءة القرآن، مكثرا من الصلوات. وكان الخليفة الفعلي هو مروان بن الحكم ابن عم عثمان وأمين سره وغدا عثمان مجرد حاكم اسمي بشكل يشابه ما كان في أواخر الدولة العثمانية.. ونحن لا نجد الا هذا التفسير وان شئت قل «التبرير»، لأن عثمان أظهر في بداية عهده بالخلافة حزما كبيرا بالنسبة لشخصيته الخجولة اللينة، بل أننا نرى في بدايات عهده بعض الملامح لشخصية ابن الخطاب، ففي أول كتاب من عثمان الى عماله قال: «ان الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم اليهم أن يكونوا جباة، وان صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة، ولا يكونوا رعاة، فاذا عادوا كذلك انقطع

الحياء والأمانة والوفاء الا وان أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم» [1].

ولكننا نجد عثمانا آخر فيما بعد غير الذي رأيناه في هذا الخطاب، فقد دخل عليه يوما عمرو بن العاص بعد أن عُزل عن ولاية مصر وحل محله عبد الله بن سعد، فقال عثمان لعمرو: أرى تلك اللقاح قد درت من بعدك، فرد ابن العاص: وقد هلكت فصالها.. وقصد عثمان أن خراج مصر قد زاد من بعد ابن العاص، وقصد ابن العاص، أن ذلك كان على حساب أهل تلك الولاية..

واذا كانت أخطاء عثمان المالية والادارية بينة وكثيرة بقدر جعل الناس يأخذونها عليه، ويشرعون في نقده، فقد كان في الناحية الدينية متبعا ومحافظا، واذا استعرضنا تاريخه وجدناه على المستوى الشخصي رجلا متعبدا قارئا للقرآن، كثير الصدقات، غير أنه أتى أمرا جعله محل نقد من الناحية الدينية، فقد اتم عثمان الصلاة في عرفة ومنى، وكان الرسول يصليها قصرا، وكذلك أبو بكر وعمر بل أن عثمان صلاها قصرا في سنواته الأولى كخليفة، وقد ناقشه عبد الرحمن بن عوف في هذا الأمر، ودفع عثمان، بأن بعض اليمنيين قالوا ان صلاة المقيم ركعتان، لأنهم اعتبروا عثمان في منى وعرفة بمثابة المقيم لأن له في مكة أهلا وفي الطائف مالا، وأنه خاف أن يتخذ الناس تقصيره في الصلاة حجة للبدع والتغيير.. ولم يقبل الصحابة ما ذهب اليه عثمان، وأراهم قد اعتبروا ما آتاه بدعة لا يمكن الدفاع عنها..

اما مسألة ارجاع عمه الحكم بن العاصم الى المدينة، رغم طرد النبي له، فنراه موضوعا سياسيا أكثر مما هو ديني، ولا يُقدحُ في تدين عثمان وعقيدته..

وفي ختام مناقشتنا لسياسات عثمان، وما شابها من الأخطاء والتجاوزات، لا بد لنا أن نشير الى انجازاته الهائلة، فقد حقق عثمان من الفتوحات ما جعل الدولة العربية الاسلامية دولة عظمى في ذلك العصر، بل جعلها الدولة الأقوى، بل أن عثمان هو الذي جعل الدولة العربية دولة بحرية بعد أن كانت دولة برية فقط من الناحية العسكرية، وهو الذي اختط سياسة مشاغلة الدول والبلدان المتاخمة للدولة العربية الاسلامية حتى تكون تلك الدول والبلدان على الدوام في موضع الدفاع ولا تستطيع أن تجمع أمرها وتهاجم المسلمين، ولا يمكن أن ينسى لابن عفان أنه هو الذي قضى نهائيا على ملوك الفرس، وفي عهده قتل يزدجرد آخر ملوك دولة فارس.

---

(1) تاريخ الطبري، ج 5، ص 44.

19

الفتنة الكبرى أو الحرب الأهلية العربية



19

الفتنة الكبرى أو الحرب الأهلية العربية

بعد ان رأينا ما وصلت اليه الأمور في عهد عثمان، وما كان من أمر بني أمية من حوله، وموقف المسلمين من عثمان وذويه، بعد كل هذا نصل الى لُجة بحر النار في التاريخ العربي الاسلامي، الى «الحرب الأهلية العربية».. ونرى أن هذا الاسم الذي نطلقه على تلك المعارك أدق مما سميت به في التاريخ، وهو «الفتنة الكبرى» فتلك الحرب كانت حربا أهلية عربية، ولم تكن حربا اسلامية فأطرافها كانوا عربا، ومحركها، هو الصراع على السلطة.. وكان قادة تلك الحرب من بطون قريش المختلفة، فلم تكن جذور تلك الحرب أو محركاتها دينية، ولم يكن الاختلاف الأساسي حول تفسير نص قرآني، أو موضوع من موضوعات العبادات، أو الجدل حول حد من الحدود، لا نجد هذه الموضوعات الدينية أو ما هو اليها في تلك الحرب الضروس، وان رأيناها عرضا، في بعض المواقف، فانما ذلك من باب استغلالها في أمر سياسي لاعطاء الحق لهذا الطرف أو ذاك، ونرى أن الجذوة الأولى لتلك الحربُ قد أوقدت أول ما أوقدت في سقيفة بني ساعدة بعد ساعات من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، واشتعلت فيما عرف بحروب الردة، ولكن أبا بكر سارع الى اخمادها، وبقيت النار تحت الرماد ـ طيلة عهد عمر بن الخطاب، فقد صد عنها الرياح التي كانت كفيلة باشعالها، ولكن العواصف تحركت في عهد عثمان، بدأت كأنها نسمات في البداية، ولكنها فيما بعد تحولت الى تيارات هوائية عاتية أزالت الرماد وأشعلت الجذوة، وها هو اللهب يتصاعد، ونرى فيه حربا أهلية عربية وقودها قريش بما فيها من بني أمية ومن والاهم، وبني هاشم ومن نصرهم أو ناصرهم..

فالهاشميون اعتقدوا منذ اليوم الأول لوفاة الرسول أنهم أحق من غيرهم بحكم العرب، بل أن هذا الاعتقاد نبت في اذهانهم قبل وفاة الرسول مما جعل العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم يقول الى علي بن أبي طالب، اذهب الى النبي واسأله فيمن هذا الأمر من بعده؟ ولكن عليا يتردد ولا يطيع العباس، لأنه رأى في ذلك مخاطرة شديدة، فاذا قال النبي صلى الله عليه

وسلم انها ليست في بني هاشم، فلن تكون لهم أبدا، وستكون تلك قاعدة دينية ثابتة تمنع الهاشميين من تولى السلطة منعا مطلقا الى الأبد..

أما بنو أمية، فقد كانوا يرون أنفسهم أفضل قريش، وأحقها بالحكم لما لهم من ثقل ومكانة في قريش وفي غيرها من العرب، وان كان أبو سفيان قد أعلن اعتراضه منذ اليوم الأول لتنصيب أبي بكر الصديق كخليفة، فانه وغيره من الأمويين آثروا أن يتربصوا فالزمن في صالحهم، فأبو بكر الصديق هو من تيم، ولا يمثل ثقلا ذا خطر في قريش، ولن تبقى السلطة في بيته من تيم، وعندما آلت الى عمر، لم يضيق الأمويون بذلك كثيرا، فعمر بن الخطاب من عدي، وهو مثل أبي بكر من حيث العصبية والثقل الاجتماعي.. وبعد وفاة عمر أحس الطرفان، الأمويون والهاشميون أنهم أصبحوا وحدهم في الميدان، فهي لأحد منهما لا محالة، وذلك ما كان، فقد آلت بالكيفية التي رأينا الى عثمان، ورأى الأمويون أنها فرصتهم التي قد لا تتكرر، ولا بد لهم من التمكين لأنفسهم قبل أن يقضى عثمان، ولهذا نراهم يشددون قبضتهم على الدولة كلما تقدم العمر بعثمان وقد لا يكون عثمان مدركا لذلك المخطط الأموي، ولكن مروان بن الحكم ومعه معاوية بن أبي سفيان، كانا يتحركان الى مبتغى محدد مقصود. فلم تكد فترة عثمان، تنتصف حتى أصبح على الولايات الرئيسية للدولة ولاة أمويون:

* معاوية على الشام كلها.
* الوليد بن عقبة على الكوفة، وهو أخو عثمان لأمه.
* عبد الله بن عامر على البصرة.
* عبد الله بن سعد بن أبي سرح على مصر وشمال افريقيا، وهو أخو عثمان في الرضاع.

وكان مروان بن الحكم هو الذي يباشر المهام اليومية للدولة.

ولا نستطيع أن نقول ان هذا كان من باب المصادفة، أو أن هؤلاء كانوا هم الأقدر والأفضل لتقلد هذه المناصب، ولا شك أن الصحابة، وغيرهم من الناس، قد وقفوا عند هذا الأمر، فكان علي بن أبي طالب دائم التنبيه لعثمان في هذا الموضوع وهو ايثاره ذويه بالحكم وكان عثمان يرد بأنهم أقرباء علي أيضا أي أنهم من بني عبد مناف، الذي يجتمع فيه الأمويون والهاشميون، وربما يكون عثمان بهذا الرد الدائم على تنبيه علي له، ربما يريد أن يجعل الأمر «منافيا» أي لبني عبد مناف وليس لأمية فحسب. وحسب أن يكون في ذلك ما يرضى عليا، وما يؤلف بني هاشم من حوله..

وايثار بني أمية بالحكم بتلك الصورة الواضحة، هو أول الرياح التي هبت على الجذوة، وجعلتها تتقد، وقد كانت الكوفة من أوائل الجهات التي أظهرت اعتراضها على احتكار الأمويين للحكم، فقد تولاها بعد سعد بن أبي وقاص الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وهو أخو عثمان لأمه، وبعده تولاها سعيد بن العاص وهو أموي تربى في حجر عثمان، فلهج الناس برفضهم لهذا الأسلوب، وعبر عنه شاعرهم قائلا:

فـــررت مـــن الـــولـــيـــد الى سعـيـــد كـأهـل الحجـر اذ جـزعـوا فبـاروا
يلـينـــا مـن قـــريش كـــل عـــام أمير محدث أو مستشـــــــــار
لنـــا نـــار نخوفهـــا فنخشى وليس لهم فلا يخشون نـــــار

والروايات التاريخية التي تدور حول انطلاق الشر كثيرة ومتباينة، وبعضها واه لا يسهل قبوله، لما فيه من صغائر وصغار.. غير أنا نجد في الكوفة على عهد سعيد بن العاص حوادث تبدأ هينة، لكنها تتطور بسرعة، فقد اعتاد سعيد بن العاص أن يستقبل وجوه أهل الكوفة ممن شاركوا في معركة القادسية، وحفظة القرآن، وأصحاب السابقة في الاسلام. وكان هؤلاء يسمرون عنده، وهم يتجاذبون الأحاديث، وكان من بين هؤلاء الكوفيين مالك بن كعب الأرحبي، والأسود بن يزيد وعلقمة بن قيس النخعيان، ومالك الاشتر، وبينما هم يسمرون قال سعيد بن العاص: انما السواد بستان قريش، فقال الأشتر: أتزعم أن السواد الذي أفاء الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك؟ وكانت تلك هي البداية، فقد نتج عن ذلك عراك بالأيدي كاد أن يصل الى السيوف، كل ذلك أمام الوالي، وضرب مسؤول شرطته، وقاطع هؤلاء الكوفيون مجالس سعيد، وسمروا في بيوتهم يهاجمون عثمان وسعيدا، فكتب سعيد بهذا الى عثمان، فأمر عثمان سعيدا، أن يرسلهم الى معاوية في الشام ليؤدبهم.. هذه الحادثة تؤكد خطورة الاتجاهات التي أخذتها الأمور فيما بعد وما وصلت إليه، فغضب الناس بهذا القدر من كلمة تصدر من فم الوالي، تكشف أن لذلك مقدمات في النفوس والقلوب، وأن الكوفيين يضيقون بولاية سعيد ويستكبرون قولته من أن السواد بستان قريش، فالناس قد ضاقوا من مذهب الأمويين لإحتكار كل شيء لهم واستحواذهم عليه.. والمؤشر الآخر الخطير، هو أسلوب عثمان بن عفان في معالجة هذا الموضوع، فبدلا من استطلاع دوافع ما حدث ومعالجته في مكانه بالشدة أو باللين، عالج ذلك الأمر بشيء لا يخلو من العصبية، فقد أمر الخليفة بنقل الذين ينتقدونه الى معاوية ليؤدبهم ويردهم عما هم فيه، وعندما وصلوا الشام تحدث معاوية الى هؤلاء المنفيين إليه من الكوفة فقال لهم: «انكم نقمتم قريشا، ولو لم تكن قريش لكنتم أذلة إن أئمتكم لكم جنة فلا تفترقوا عن جنتكم فقال رجل منهم: أما ما ذكرت من قريش فانها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية فتخوفنا، وأما ما ذكرت من الجنة اذا اخترقت خلص الينا.

قال معاوية: عرفتكم الآن، وعلمت أن الذي أغراكم على هذا قلة العقول، وأنت خطيبهم، ولا أرى لك عقلا، أعظم عليك أمر الاسلام، أذكرك به وتذكرني بالجاهلية. أخزى الله قوما عظموا أمركم، افقهوا عني ولا أظنكم تفقهون أن قريشا لم تعز في جاهلية ولا اسلام الا بالله تعالى، لم تكن بأكثر العرب ولا أشدهم ولكنهم كانوا أكرمهم أحسابا وأفخمهم انسابا وأكملهم مروءة»(1). فقد كشف هؤلاء النفر عما في نفوسهم، وكشف معاوية عما في نفسه،

---

(1) الكامل، لابن الأثير، ج 3، ص70.

هاجمهم هو بأن دافع منذ البداية عن أحقية قريش في الحكم، معللا هذه الأحقية بنسب قريش، ومروءتها، وشدتها وكرم حسبها، وعيّر أولئك النفر الكوفيين بأنهم كانوا أذلاء قبل أن تصل إليهم قريش، ولولاها لمازالوا هكذا. وهاجموه أيضا وهاجموا منطقه، وطعنوا فيما ذهب اليه من أفضلية قريش على غيرها من العرب، ولا نرى أن فيما ذهب اليه معاوية، وما ذهبوا اليه أيضا شيئا من الدين، بل هو تنازع على السلطة، وكل يورد من المبررات ما يراه مقويا لوجهته..

ولم يكن هذا موقف معاوية فحسب، بل موقف النظام كله، لا يقبل من يناقش أمر السياسة أو الولاية. ويؤسس موقفه هذا على العصبية والمكانة الاجتماعية والتاريخية.. فعندما سمح معاوية لأولئك الكوفيين الغاضبين بمغادرة دمشق توجهوا الى الجزيرة، وهناك استلمهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد حاكم حمص، وقال لهم: «يا آلة الشيطان لا مرحبا بكم ولا أهلا، قد رجع الشيطان محسورا وأنتم بعد نشاط، خسر الله عبد الرحمن ان لم يؤدبكم حتى يحسركم يا معشر من لا أدري أعرب أم عجم، أنا ابن خالد بن الوليد، أنا ابن من قد عجمته العاجمات، أنا ابن فاقيء الردة، والله لئن بلغني يا صعصعة بن ذل ان أحدا ممن معي دق أنفك ثم أمصك لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى» (1).

ولا شك أن هذه اللغة، كانت جديدة في أسلوب السياسة العربية الاسلامية عندئذ، وهي تنبيء عن ميلاد اتجاهات جديدة، وان كان الذين اختطوها قد ظنوا أنها كفيلة بكبح الغاضبين، الا انها كانت دوافع للغضب، وللثورة، وهكذا تصاعدت موجة السخط، وتجاوزت الولاة، حتى وصلت الى عثمان نفسه، قال الطبري في تاريخه «اجتمع ناس من المسلمين فتذاكروا أعمال عثمان وما صنع فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا اليه رجلا يكلمه ويخبره باحداثه فأرسلوا اليه عامر بن عبد الله التميمي ثم العنبري فأتاه فدخل عليه فقال له ان أناسا من المسلمين اجتمعوا فنظروا في أعمالك فوجدوك قد ركبت أمورا عظاما فاتق الله عز وجل وتب اليه، قال له عثمان، أنظر الى هذا فان الناس يزعمون أنه قاريء ثم هو يجيء فيكلمني في المحقرات فوالله ما يدري أين الله،. قال العنبري، أنا لا أدري أين الله؟ قال عثمان نعم والله ما تدري أين الله قال العنبري، والله إني لأدري أن الله بالمرصاد لك» (2)..

وهنا قفزت الأحداث قفزا، ودخلت طورا متقدما، فقد وضع الأمر أمام عثمان عبر مندوب أوفده جمع من المسلمين، وكان بامكان عثمان في هذه المرحلة أن يعالج الأمر بجرأة وحكمة، الا اننا من الحوار الذي دار بينه وبين العنبري نرى العكس، فالخليفة يذهب منذ البداية الى السخرية من الرجل وتكذيبه، ويصل الى حد تجهيله، ونحن لا نملك الا أن نصدق تلك الرواية على الوجه التي وردت به، وكل المصادر التي بين أيدينا تكاد تجمع على صحتها، ولكن هناك دليل آخر يؤكد صدق هذه الرواية، فقد كان زمانها أواخر عهد عثمان، وهي لا

(1) تاريخ الطبري، ج 5، ص 87.
(2) المصدر السابق، ص 94.

تختلف عن اللغة التي كلم بها معاوية بن أبي سفيان منتقدي أسلوب الحكم، وكذلك لا تختلف عن لغة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد التي خاطب بها الغاضبين الذين سيروا من الكوفة الى الشام، ويبدو أن لغة التعالي على الرعية، والأسلوب العصبي المترفع، كان الأسلوب المعتمد والرسمي في مخاطبة الناس..

ونحن نعالج أحداث السنة ما قبل الأخيرة في عهد عثمان، نجد أن الأمور أخذت تتسارع، ونيران الغضب والسخط على العهد بدأت تشتعل هنا وهناك، والمورخون يبدأون في هذه السنة في رصد حركة عبد الله بن سبأ، وهو يهودي يمني، أمه حبشية دخل الاسلام في عهد عثمان، وبدأ يؤول القرآن، ويشكك في أحقية عثمان للخلافة، ويذهب البعض الى أن عبد الله بن سبأ هو المحرك الأساسي لتلك الحرب الأهلية العربية، وآخرون يذهبون الى أن عبد الله بن سبأ هذا ليس له وجود في التاريخ العربي الاسلامي، وانما هو شخصية خيالية، أختلقت فيما بعد لدوافع سياسية هدفها تشويه أحد أطراف تلك الحرب، وسنناقش أمر عبد الله هذا فيما بعد، لكننا قبل ذلك، سنناقش الكيفية التي عالج بها عثمان مقدمات تلك الحرب، لأن طبولها قد قرعت قبل ابن سبأ، وأن خيوطها قد غلظت وطالت حتى رآها ولمسها العرب والمسلمون في المدينة عاصمة دولة الخليفة وفي خارجها، في الأقاليم والثغور.

20

شريعة الخبث السياسي، بوابة العنف والفتنة

20

شريعة الخبث السياسي، بوابة العنف والفتنة

بعدما كان من أمر عامر بن عبد قيس العنبري، وابلاغه عثمان ما ندبه به جمع من المسلمين، استدعى عثمان عددا من ولاته، ومن أهل الخبرة السياسية لمناقشتهم فيما أبلغه به العنبري، «فجمع اليه معاوية بن أبي سفيان، وسعيد بن العاص، وعبد الله بن عامر وعبد الله بن سعد بن أبي سرح وعمرو بن العاص فقال أشيروا عليَّ فان الناس قد تنمروا لي فقال معاوية، أشير عليك أن تأمر أمراء أجنادك فيكفيك كل رجل منهم ما قبله، وأكفيك أنا أهل الشام فقال له عبد الله بن عامر أرى لك أن تجمرهم في هذه البعوث حتى يهم كل رجل منهم دبر دابته وتشغلهم عن الارجاف بك فقال عبد الله بن سعد أشير عليك أن تنظر ما أسخطهم فترضيهم ثم تخرج لهم هذا المال فيقسم بينهم ثم قام عمرو بن العاص فقال، يا عثمان إنك قد ركبت الناس بمثل بني أمية فقلت وقالوا، وزغت وزاغوا فاعتدل أو اعتزل فان أبيت فاعتزم عزما وأمضي قدما فقال له عثمان مالك قمل فروك، أهذا الجد منك فسكت عمرو حتى اذا تفرقوا قال، لا والله يا أمير المؤمنين لأنت أكرم عليَّ من ذلك، ولكني قد علمت أن بالباب قوما قد علموا أنك جمعتنا لنشير عليك، فأحببت أن يبلغهم قولي، فأقود لك خيراً أو أدفع عنك شراً، فرد عثمان عماله على أعمالهم، وأمرهم بالتضييق على من قبلهم، وأمرهم بتجمير الناس في البعوث، وعزم على تحريم اعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا اليه، ورد سعيد بن العاص أميرا على الكوفة فخرج أهل الكوفة عليه بالسلاح فتلقوه فردوه وقالوا لا والله لا يلي علينا حكم ما حملنا سيوفنا»[1]. وهذا الاجتماع، يستحق أن نصفه بالتاريخي، فهو يشكل مفصلا هاما في التاريخ الاسلامي، وقد ترتب عليه الكثير، فهو في مستوى اجتماع السقيفة، واجتماع لجنة الشورى التي شكلها عمر، بل لا نتجاوز اذا قلنا ان هذا الاجتماع كان يفوقها في الأهمية فمنه

(1) تاريخ الطبري، ج 5، ص 90.

دخل العرب، والمسلمون مرحلة خطيرة، ويستحق أيضا أن نقف عنده طويلا وأن نحلل ما دار فيه، والظروف التي انعقد فيها وما ترتب على أثره..

أولا: كانت أطراف هذا الاجتماع المغلق، عمال عثمان على الأمصار، وغالبيتهم من ذوي قرباه من بني أمية، أما عمرو بن العاص الذي لم يكن واليا عندئذ فقد حضر ذلك الاجتماع لما عرف عنه من دهاء سياسي، وبهذه الصفة حضر الاجتماع، وليس لكونه من المتفقهين في الدين أو المتشددين فيه، ولا نجد في هذا الاجتماع أيا من الأقطاب البارزين من الصحابة وأهل السابقة في الاسلام، فقد غاب عنه طلحة بن عبيد الله وعلي بن أبي طالب وسعد بن ابي وقاص وعمار بن ياسر ومن مثلهم..

ثانيا: لم يبادر عثمان بعدما سمعه من «العنبري» الى استطلاع أوضاع المسلمين في عاصمة الخلافة وخارجها ولم يعالج هذا الأمر في المسجد مثلما كانت التقاليد، وانما قصره على مرؤوسيه من عماله، مضيفا اليه عمرو بن العاص وهو وال سابق، وقد رأينا عمر بن الخطاب، يمتنع عن تكليف الصحابة بالولايات حتى لا يفسدوا ويفسدوا، وحتى تكون نصيحتهم له خالصة لوجه الله ولمصلحة الدين، فالتابع لا يصدق رئيسه، وهذا ما تحاشاه عمر.. وهنا رأينا ابن عفان يستبعد الصحابة من ابداء الرأي في هذا الأمر الهام لأنه تخوف مما قد يذهبون اليه من نقد له وكشف مثالب ممارساته وتجاوزات ولاته.

ثالثا: رأينا في هذا الاجتماع كيد السياسة، بل رأيناها بلحمها وشحمها، فالولاة لا يستحون من أن يقولون أمام الخليفة، بل يقولوا له، ويشيروا عليه بالتشدد على المسلمين، وهذا ما لم يكن يجرؤ أحد على القول به خارج دار الخليفة، ولا نقول في حضرته، فقد كان هذا الاتجاه الجديد نكسة، وتحولا جذريا، يستحق ما تلاه وترتب عليه، وقارن مادار في هذا الاجتماع بخطبة عمر بن الخطاب التي قال فيها: «أيها الناس والله ما أرسل اليكم عمالا ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم وانما أرسلهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه الي، فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه، فوثب عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين، أرأيتك ان كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته أنك لتقصنه منه قال عمر: أي والذي نفس عمر بيده اذن لأقصنه منه وقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه، ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تحمدوهم فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم» [1]. أين هذا الذي قاله عمر مما دار في ذلك الاجتماع السياسي الخطير، فها هو عبد الله بن عامر يقول لخليفة المسلمين: «أرى لك أن تجمرهم في هذه البعوث حتى يهم كل رجل منهم دبر دابته وتشغلهم عن الإرجاف بك»..

ويتمنى المرء أن تكون المصادر التاريخية على كثرتها كاذبة في هذه الرواية، لأن ما قاله عبد الله بن عامر هو شيء مقزز من الناحية الأخلاقية والانسانية قبل أن يكون كذلك من

---

(1) ابن الأثير ـ الكامل ـ ج 3، ص 3.

الناحية الدينية، فالتجمير، قد نهى عنه أبو بكر وعمر، وهو ابقاء المسلم في الثغر اكثر من ستة أشهر، فقد قال عمر: «أربع من الاسلام لست مضيعهن ولا تاركهن لشيء أبدا:

- القوة في مال الله وجمعه حتى اذا جمعناه وضعناه حيث أمر الله وقعدنا آل عمر ليس في أيدينا ولا عندنا منه شيء.
- والمهاجرون الذين تحت ظلال السيوف ألا يحبسوا ولا يجمروا وأن يوفر فيء الله عليهم وعلى عيالاتهم، وأكون أنا للعيال حتى يقدموا.
- والأنصار الذين أعطوا الله عز وجل نصيبا وقاتلوا الناس كافة أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، وأن يشاوروا في الامر.
- والأعراب الذين هم أصل العرب ومادة الاسلام، أن يؤخذ منهم صدقتهم على وجهها، ولا يؤخذ منهم دينار ولا درهم وان يرد على فقرائهم ومساكينهم» [1]. فقد اعتبر عمر أن تلك النقاط الأربع هن من أساسيات الاسلام، وليس مضيعهن أبدا، ومنهن عدم تجمير المسلمين، فكيف تعكس القاعدة من أجل خدمة هدف سياسي، ليس من الاسلام في شيء بل أن التجمير مظهر قمعي للمسلمين رفضه عمر رفضا مطلقا واعتبره مخالفا للاسلام، وها نحن نجده سياسة يشار بها على الخليفة، فيقبل ذلك، ويأمر بها عماله، والذي يدعو الى الاستغراب أن عثمان كان قد الزم نفسه بهذا المبدأ العسكري الذي أرتضاه عمر، فقد جاء في أول كتاب أرسله عثمان الى أمراء الأجناد في الثغور: «إنكم حماة المسلمين، وذاوتهم وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل كان على ملاء منا، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم، ويستبدل بكم غيركم، فأنظروا كيف تكونون فاني أنظر فما الزمني الله النظر فيه والقيام به» [2].

والمخالفة الثانية الخطيرة التي برزت في ذلك الاجتماع هو قول معاوية لعثمان «أن تأمر أمراء أجنادك فيكفيك كل رجل منهم ما قبله، وأنا أكفيك أهل الشام».. وهذا ايذان بمرحلة من القمع والتشديد على الناس، وتلك المهمة الجديدة للأمراء أي المكلفين بالجانب العسكري، لم تكن معهودة فيما قبل، بل تتناقض مع أول كتاب من عثمان لأمراء الأجناد..

أما عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعمرو بن العاص فقد كانت وجهتهما مختلفة عن تلك التي رأينا لدى معاوية وعبد الله بن عامر، فقد أشار عمرو وعبد الله على عثمان أن يعدل بين الناس، وأن يقسم عليهم الأموال، بل ذهب عمرو بن العاص الى أبعد من ذلك فقال له أعدل أو أعتزل، ونبهه الى ممارسات بني أمية، غير أن عمرا تراجع وقال انه لم يقصد ذلك، وانما كان يموّه على من بالباب من المسلمين، لكي يثقوا فيه ويجعل ثقتهم في خدمة عثمان، وهذا يكشف ما وصلت اليه الأمور من عبث وانتهازية وتلاعب بمصائر المسلمين، فعمرو بن العاص بعد أن

---

(1) تاريخ الطبري، ج 5، ص 33.

(2) تاريخ الطبري، ج 5، ص 45.

أدرك أن الثورة تتصاعد وأن عثمان هالك لا محالة، ترك المدينة واستقر بقصره في فلسطين وقال «أن العير تضرط والمكواة في النار».

وفي نهاية ذلك الاجتماع أصدر عثمان قرارين:

الأول: رد العمال الى امصارهم.

الثاني: أمر هؤلاء العمال بالتضييق على من قبلهم، وأمرهم بتجمير الناس في البعوث وعزم على تحريم اعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا اليه.

وهكذا قرر عثمان أن يأخذ بالرأيين الأولين اللذين يؤديان الى القمع، وتجاهل الرأيين اللذين يدعوان الى اعادة النظر في سياسته ويشيران باقامة العدل في الرعية..

وتطورت الأمور في اتجاهها الذي بدأ قبل ذلك، فحينما عاد سعيد بن العاص الى الكوفة استقبله أهلها بالسلاح ورفضوا ولايته وردوه الى عثمان.. ورضخ عثمان وأرسل أبا موسى الأشعري واليا على الكوفة خلفا لسعيد.. حدث كل هذا في السنة ما قبل الأخيرة لنهاية حكم عثمان، وكان موقف أهل الكوفة هو بداية النهاية، والقرار الذي اتخذه بتولية أبي موسى الأشعري الكوفة كان خضوعا ليس منه بد، فلم يكن له سبيل غير ذلك، وبرزت فيه مرة أخرى شخصية عثمان اللينة المتذبذبة، فقراره بالاتجاه للعنف وأخذ الناس بشدة لم يجف حبره، عندما اتخذ موقفا قابلا خاضعا لادارة أهل الكوفة..

وقد وجد عثمان نفسه في تلك الأحداث وحيدا دون نصير الا ذوي قرباه ونفراً من الصحابة قليل.. حتى نكاد نقول أن الرأي العام الاسلامي العربي، كان يجمع على أن عثمان قد تجاوز مرحلة التوبة والاصلاح، ونقول أن عمرو بن العاص كان صادقا عندما قال لعثمان «أنك ركبت الناس بمثل بني أمية فقلت وقالوا وزغت وزاغوا فاعتدل أو أعتزل».. ورغم تراجع ابن العاص عما قال فيما بعد، الا أن القول كان صدقا، وان لم يكن القائل صادقا، ولا أرانا بحاجة الى ايراد وقائع أو أقوال في هذا الصدد، ففي مقابلة علي بن أبي طالب لعثمان ما يكفينا الروايات والحكايات، نقل الطبري عن الواقدي، أن عبد الله بن محمد حدثه عن أبيه قال: «لما كانت سنة 34 كتب أصحاب رسول الله (ص) بعضهم الى بعض أن أقدموا فان كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد، وكثر الناس على عثمان ونالوا منه أقبح ما ينل أحد، وأصحاب رسول الله (ص) يرون ويسمعون وليس فيهم أحد ينهى ولا يذب، فاجتمع الناس وكلموا علي بن أبي طالب فدخل على عثمان فقال: الناس ورائي وقد كلموني فيك، والله ما أدري ما أقول لك، واني أحذرك الله وأحذرك سطوته ونقماته، فقال عثمان: قد والله علمت ليقولن الذي قلت، أما والله لو كنت مكاني ما عنفتك، ولا أسلمتك، ولاعبت عليك، ولا جئت منكرا أن وصلت رحما، وسددت خلة وآويت ضائعا ووليت شبيها بمن كان عمر يولى، أنشدك الله يا علي، هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك، قال نعم، قال عثمان، فلتعلم أن عمر ولاه، قال نعم، قال عثمان، فلم تلومني أن وليت ابن عامر في رحمه وقرابته؟ قال علي سأخبرك ان ابن الخطاب كان كل من ولى فانما يطأ على صماخه ان بلغه عنه حرف جلبه، ثم بلغ به أقصى الغاية، وأنت لا تفعل، ضعفت ورفقت على أقربائك، قال عثمان، هم أقرباؤك أيضا، فقال علي: لعمري أن رحمهم

مني لقريبة، ولكن الفضل في غيرهم قال عثمان هل تعلم أن عمرا ولى معاوية خلافته كلها فقد وليته فقال علي: أنشدك الله، هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه، ومعاوية يقتطع الأمور دونك ويقول للناس هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغير على معاوية ثم خرج علي» [1].

(1) تاريخ الطبري، ج 5، ص 96.

21

الــثــورة

21

الـثـــورة

وصلنا الى السنة الأخيرة في حكم عثمان، عندما بدأت طوابير الثوار تنطلق من الكوفة والبصرة ومصر صوب المدينة عاصمة دولة الخلافة، وقبل أن نستعرض المشاهد الأخيرة التي انتهت بمقتل عثمان، نرى أن نقف بشيء من التحليل عند محركات تلك الثورة كما رآها الأقدمون والمحدثون، فلقد شاع في السنوات الست الأخيرة سخط على عثمان، بسبب تصرفاته المالية ومحاباته لذويه، وقد عالج عثمان الخطأ بجملة من الأخطاء ورأينا جانبا من أسلوبه في المعالجة فيما سبق، ولكن التصاعد السريع قد كان في السنتين الأخيرتين من حكمه..

ـ رأيناه واضحا في موقف أهل الكوفة من سعيد بن العاص، الذي انتهى بتسيير هؤلاء الساخطين على سياسات عثمان الى معاوية ومنه تلقفهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد الذي كان يحكم حمص.

ـ حديث جموع من المسلمين حول اتجاهات سياسة عثمان وايفاد العنبري و إبلاغه بما يجيش في نفوس المسلمين.

ـ تجمع الناس من وراء علي بن أبي طالب وتكليفهم له أن يرد عثمان عما هو فيه..

ـ تلك المقابلة العاصفة بين عثمان وعلي والتي ذكرنا ملخصا لمجملها منذ قليل..

ـ والحلقة الأخيرة في ذلك المد الثوري المتصاعد كان زحف الناس على المدينة، وما حدث من بعد، ، وهنا تبدأ الروايات في التضارب والاختلاف، وسيكون لكل رواية أو اتجاه ما يترتب عليه فيما بعد.. فالذين يجعلون من ابن السوداء (عبد الله بن سبأ) المحرك لما حدث ينسبون ذلك السير آلى المدينة الى حركته، فابن الأثير يقول (في هذه السنة كان مسير من سار من أهل مصر الى ذي خشب، ومسير من سار من أهل العراق الى ذي المروة، وكان سبب ذلك أن عبد الله بن سبأ كان يهوديا من أهل صنعاء أمه سوداء وأسلم أيام عثمان ثم تنقل الى الحجاز ثم بالبصرة ثم بالكوفة ثم بالشام يريد اضلال الناس فلم يقدر منهم على ذلك، فأخرجه أهل الشام فأتى

مصر، فأقام فيها، وقال لهم: العجب ممن يصدق أن عيسى يرجع، ويكذب أن محمد يرجع وقد قال الله عز وجل: (ان الذي فرض عليك القرآن لرادُّك الى معاد) محمد أحق بالرجوع من عيسى، فوضع لهم الرجعة، فقبلت منه ثم قال لهم بعد ذلك: انه كان لكل نبي وصي، وعلي وصي محمد، فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ووثب على وصيّه، وان عثمان أخذها بغير حق فانهضوا في هذا الأمر وابدأوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا به الناس، وبث دعاته وكاتب من استفسد في الأمصار وكاتبوه ودعوا في السر الى ما عليه رأيهم وصاروا يكتبون الى الأمصار) [1].

وابن خلدون في تاريخه يشير أيضا الى عبد الله بن سبأ ويعطيه نصيبا فما حدث أقل مما أعطاه له ابن الأثير، يقول ابن خلدون (عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء، هاجر الى الاسلام من اليهودية، ونزل على حكيم بن جبلة العبدي، وكان يتشيع لأهل البيت، ففشت مقالته بالطعن، وبلغ ذلك حكيم بن جبلة، فأخرجه وأتى الكوفة، فأخرج أيضا واستقر بمصر، وأقام يكاتب أصحابه بالبصرة ويكاتبونه والمقالات تفشو بالطعن والنكير على الأمراء) [2].

أما رواية الطبري فتطابق رواية ابن الأثير، قال الطبري: «فيما كتب الي السري عن شعيب عن سيف عن عطية عن يزيد الفقعي قال: (كان عبد الله بن سبأ يهوديا من أهل صنعاء أمه سوداء فأسلم زمان عثمان ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم فبدأ بالحجاز ثم البصرة، ثم الكوفة ثم الشام فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام، فأخرجوه حتى أتى مصر فاعتمر فيها فقال لهم فيما يقول، لعَجَبٌ ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمدا يرجع، وقد قال الله عز وجل «ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد» فمحمد أحق بالرجوع من عيسى، قال فقبل ذلك عنه ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها ثم قال لهم بعد ذلك أنه كان ألف نبي، لكل نبي وصي، وكان علي وصي محمد، ثم قال محمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء ثم قال بعد ذلك من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وابدأوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس، وأدعوهم الى هذا الأمر فبث دعاته وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه ودعوا في السر الى ما عليه رأيهم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجعلوا يكتبون الى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم ويكاتبهم أخوانهم بمثل ذلك ويكتب أهل كل مصر منهم الى مصر آخر) [3].

ولكن بعض المؤرخين والدارسين قديما وحديثا يذهبون الى انكار وجود شخصية عبد الله بن سبأ، ويقولون إنه كان شخصية خيالية ابتكرها أنصار عثمان فيما بعد للتشنيع على معارضي عثمان، وللاساءة الى شيعة علي.. ويستشهد هؤلاء، بأن المصادر التاريخية القديمة لا تأتي على ذكر عبد الله بن سبأ هذا، غير أننا رأينا في تواريخ ثلاثة قديمة نسبيا ذكرا فيه شيء من

---

(1) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج 3، ص 77.

(2) تاريخ العلّامة ابن خلدون، م 2، ص 1034.

(3) تاريخ الطبري، ج 5، ص 98.

التفصيل لأصل عبد الله، وشخصيته وفلسفته والدور الذي خطط للقيام به، غير أن المؤرخين الذين أوردوا هذه الشخصية قد وقعوا في تناقض كبير مع أنفسهم، بما نسبوه اليه من دور كبير في تلك الأحداث التي أنتهت بقتل عثمان، واشتعال الحرب الأهلية العربية.. فقد أورد هؤلاء المؤرخون من قبل يوميات الأحداث التي أوصلت العرب الى ذلك الموقف. وكان التطور الطبيعي لتلك الأحداث التي أوردوها أن تصل الى المدينة، وأن يقع ما وقع..

ونحن نميل الى أن عبد الله بن سبأ كان شخصية حقيقية، وجدت في التاريخ، وقامت بمهمة تخريبية في داخل المجتمع العربي الاسلامي، ولكن تلك المهمة تركزت على افساد الدين، فابن سبأ مما قرأنا عنه، كان همه الأول والأساسي هو افساد الدين، فالقول برجوع محمد ووصاية علي، وادخال فكرة التناسخ وحلول الأرواح الى الدين الاسلامي، كل ذلك كان بلا شك يهدف الى تشويه الفكر الاسلامي، وادخال، بدع وشعوذات وأساطير تشوه تماسك الدين الاسلامي ومنطقيته، وكانت محاولات ابن سبأ جزءا من الاسرائليات التي أدخلت الى الاسلام، نقول ان مهمة ابن سبأ كانت دينية بالدرجة الأولى، ولازلنا نجد شخصية ابن سبأ، تولد كل يوم، وتحاول تشويه الاسلام وتطويعه لخدمة أهداف اعداء الاسلام، فقد قام الانجليز في الهند وباكستان، بالكثير لادخال الإساطير والخرافات الى الاسلام، وفي غرب افريقيا عمل الفرنسيون الكثير لتشويه الاسلام، واستخدموا الحركات الصوفية، واستثمروا الوثنية السابقة لأولئك الذين دخلوا الاسلام حديثا، مستفيدين أيضا من جهل تلك الشعوب باللغة العربية، وهي اداة هامة لفهم الاسلام على حقيقته. ولا نعتقد أن ابن سبأ كان يتوقع أن تنجح حركته بتلك السرعة، وأن تفعل فعلها مباشرة، وتقود الى قتل خليفة المسلمين بأيدي نفر من المسلمين، ولكننا نميل الى الرأي الذي يقول أن ابن سبأ استفاد من الأحداث التي أدت الى مقتل عثمان، ولم يكن هو الذي أشعل تلك الأحداث [1]..

فنحن نعلم أن تلك التطورات لم تولد في عشية وضحاها، وان أطرافها لم تكن محدودة، وان الغضب من تصرفات عثمان والمعارضة لها لم تكن على مستوى الرعية العادية، بل كانت من الصحابة، ومن الذين كانوا مقربين الى الرسول والى عثمان نفسه، ومعهم قسم من أهل المدينة كبير، ولا نظن أن أولئك كانوا من الجهل بالقرآن وتفسيره وتأويله الى حد يجعل ابن سبأ يغالطهم بآية لا تحتاج الى تفقه في الدين حتى يعرف معناها وهي (ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد). بل أن أهل الأمصار وعلى رأسهم الذين قادوا مسيرة الناس الى المدينة، أن أولئك كان من بينهم القراء والفقهاء. ونحن رأينا قبل ذلك أن عددا من الصحابة ومن بينهم

---

(1) انظر معالجة الدكتور طه حسين لهذا الموضوع في كتاباته حول (الفتنة الكبرى)..

ومما قاله د. طه حسين «وأكبر الظن أن عبد الله بن سبأ هذا، ان كان كل ما يروى عنه صحيحا، انما قال ما قال ودعا ما دعا إليه بعد أن كانت الفتنة وعظم الخلاف، فهو قد استغل الفتنة ولم يثرها. وأكبر الظن كذلك ان خصوم الشيعة أيام الأمويين والعباسيين قد بالغوا في أمر عبد الله بن سبأ هذا، ليشككوا في بعض ما نسب من الأحداث الى عثمان وولاته من ناحية، وليشنعوا على علي وشيعته من ناحية أخرى. فيردوا بعض أمور الشيعة الى يهودي أسلم كيدا للمسلمين. وما أكثر ما شنع خصوم الشيعة على الشيعة!

وما أكثر ما شنع الشيعة على خصومهم في أمر عثمان وفي غير أمر عثمان» د. طه حسين، الأعمال الكاملة، م 4، ص 329.

علي بن أبي طالب أجمعوا على أن عثمان قد تجاوز وتطاول، وكان موقف عثمان من عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود وأبي ذر الغفاري بسبب مصارحتهم له بأخطائه وتجاوزاته..

وأخرى تؤيد ما ذهبنا اليه، وهي أن الذين ساروا من البصرة والكوفة ومصر الى المدينة لم يكن قرارهم المسبق قتل عثمان، أو حتى عزله، بل هم ذهبوا اليه، ليعلنوا اعتراضهم ومطالبتهم له بالكف عن سياسته التي أجراها، وأن يتخذ العدل سبيلا، ويؤكد ذلك قبولهم بما أعلنه عثمان من خطط، ومن توبة واعتذار أمام المسلمين.. وتفرق أولئك الثوار عائدين الى أقطارهم، غير أن الكتاب الذي وجده المصريون عند غلام عثمان وهم في طريقهم الى مصر، والذي يأمر فيه عامله عليها بقتل الثائرين عند وصولهم الى مصر، هو الذي قلب كل شيء، وجعلهم يعودون الى المدينة ويحاصروا عثمان ويطالبوه بالاعتزال..

والثوار عندما تحركوا من أقاليمهم لم يفكروا كما قلنا في عزل عثمان، وحتى عندما دفعوا الى ذلك، لم يكن بين أيديهم اسم مسبق، فبعضهم رشح عليا، وهناك من رشح طلحة بن عبيد الله، ومن رشح الزبير بن العوام، فهم كما سبق القول، لم يتجهوا الى المدينة من أجل تنصيب علي أو تنصيب غيره، بل كان قصدهم رد عثمان عما ذهب اليه من سياسات وأساليب..

ولكن سؤالا قد يثار، وهو كيف تحرك الثوار في وقت واحد، من الكوفة والبصرة ومصر نحو المدينة، وكيف بقيت مسيرتهم سرا، حتى وصلوا المدينة دون علم الخليفة؟ وفي محاولتنا للاجابة على ذلك نقول: بالنسبة للتوقيت، فقد رأينا أن الرفض لسياسات عثمان كان شاملا، وعاما، وقد ارتفع في كل الأقاليم، مثلما شملت سياساته كل الأقاليم ورأينا سلوك الوليد بن عقبة، وسعيد بن العاص في الكوفة، وعبد الله بن عامر في البصرة، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح في مصر، وكان رد الفعل واحدا في كل تلك الأقاليم، وكيف أفرزت تلك الأقاليم تلقائيا قادة للحركة، أما الشام التي استقر فيها معاوية بن أبي سفيان ومن قبله أخوه يزيد، فقد تقبل أهلها تلك السياسية، أو أن أبناء أبي سفيان قد نجحوا في كبح روح الرفض والثورة منذ البداية، فلم نر في الشام علامات رفض واضحة أو شاملة، ولم يسر منها أحد للمشاركة في الثورة على عثمان، وقد سبق أن قلنا ان صحابة رسول الله قد تكاتبوا بخصوص عثمان، واستنفروا من كان منهم في الأقاليم للتحرك نحو المدينة، ولا شك أن ذلك حرك غيرهم فرتبوا للخطوة المقبلة.

أما عن سرية تحرك الثوار نحو المدينة، فلا نرى أنه كان كذلك، ولم يكن متوقعا فحسب بل كان معلوما، والدليل على هذا أن معاوية في آخر لقاء له بعثمان، عرض عليه أن يتحول الى الشام، لأنه سيجد فيه مأمنا، وعندما رفض عثمان هذا العرض محتجا بأنه يرفض ترك مدينة الرسول، عند ذلك عرض عليه معاوية أن يرسل اليه حرسا شاميا يدفع عنه هجوم الثوار ورفض عثمان هذه الفكرة أيضا. بعد هذا، توجه معاوية الى علي بن طالب، وآخرين من الصحابة وأوصاهم بالشيخ خيرا وهذا يقطع بأن قدوم الثوار كان منتظرا. وما إرسال عثمان المندوبين الى الأقاليم الا محاولة أخيرة لوقف انطلاق الثوار من أقطارهم نحو المدينة، وبعد أن فشلت مهمة هؤلاء، تحرك الثوار من كل صوب ميممين المدينة، وقد وصلوا اليها في وقت

واحد، وكان رأيهم واحدا وهدفهم واحداً، وهو تغيير سياسة الخليفة، وليس تغيير شخص الخليفة، الا بعد ظهور اتجاهات وقرارات أخرى من الخليفة، جعلتهم أيضا، يظهرون اتجاهات أخرى و يقررون ما رأوا أنه الرد المناسب، والصحيح..



جمال يوسف الهاشمي

22

نهاية تاريخ وبداية آخر المسلمون يقتلون الخليفة ! !

22

نهاية تاريخ وبداية آخر المسلمون يقتلون الخليفة!!

انتهت مسيرات الثوار التي وصلت الى المدينة بمقتل عثمان بن عفان، ولا نرى أن هناك نفعا في سرد تفاصيل مشاهد قتله، أو الخوض في الساعات التي سبقت ذلك، لأن فيها الكثير من مادة التراث، والقليل من التاريخ.. وكانت الصدف أو الجوانب العفوية هي التي دفعت الى ذلك، فقد كان الفصل الأخير من دراما ذلك الخليفة الشيخ، ضربا من ضروب المآسي الكبيرة التي نقرأها في التاريخ، فهناك روايات تقول أن أصحاب عثمان رموا أحد الثوار بحجر فأردوه قتيلا، وطالب الثوار عثمان أن يسلم لهم القاتل، ولما رفض أجهزوا عليه وقتلوه ـ هكذا! ـ ولك أن تصدق هذه الرواية أو لا تصدقها، ولكن بيت القصيد هو أن فعل القتل كان مستبعدا حتى آخر لحظة، وتقول الروايات التاريخية أن عثمانا قد أذعن للثوار، وتوصل معهم الى تسوية بعد تدخل علي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله، الا أن مروان بن الحكم قد دفع الخليفة الى التنصل مما التزم به مما جعل الثوار يتعنتون و يصممون على قتله.

الا ان ذلك الحدث كان كبيرا، كبيرا ـ فها هو الخليفة الثالث للمسلمين يقتل بأيدي مسلمين، في عتو ثورة شعبية تنادى المشاركون فيها من أقاليم الدولة البعيدة عن عاصمة الخليفة وكان كل هذا على مشهد من الصحابة الذين عاصروا النبي وقاتلوا معه، ومنهم من بشر بالجنة، ولا أرانا نجانب الصواب اذا قلنا أن ذلك الفصل الرهيب من التاريخ العربي الاسلامي لم يلق حظه المناسب من الدرس والتحليل، لأن فيه تكمن نهاية تاريخ، وبداية آخر.

والذين تعرضوا الى تلك الأيام، انقسموا الى قسمين:

القسم الأول: كتبها بيد تحركها دوافع السياسة، فتقلدوا سيف المصادرة ولووا رقاب الوقائع والحوادث وطوعوها لخدمة هدف حددوه مسبقا، فمنهم من ذهب الى أن عليا كان وراء كل تلك الحوادث بدافع اصراره على الوصول الى سدة الخلافة، انطلاقا من صراع الطموح بين الأمويين والهاشميين، ومستندين الى توجه الثوار القادمين من مصر الى علي وعرض الخلافة

عليه، ونجد بين هؤلاء الدارسين من يقترب من هذه النقطة كثيرا أو قليلا أو يبتعد، ولكنها محورهم الذي يدورون حوله.

القسم الثاني: أخذه من منظور ديني وتحفظ كثيرا، تعففا من المساس بقدسية الخلفاء وصحابة رسول الله، وذهب هذا الفريق الى ايراد الوقائع والروايات التاريخية دون محاولة الغوص بعمق الى ما ورائها، وتوقفوا بعيدا عن الاقتراب من منطقة الدوافع والعوامل التي حركت تلك الأحداث، فظلوا في مكانهم لا يزيدون عن العنعنات والاسناد..

ودون الفريقين، نجد المستشرقين، الذين حاولوا دراسة التاريخ الاسلامي، ومنهم من حاول دراسته بحياد لا يخفى، غير أن أغلبهم، وقعوا ضحية أخطاء بينة، بسبب جهل اللغة العربية، من بعضهم، والخلط بين تاريخ المسلمين، والعقيدة الاسلامية، كل هذا قاد الى جملة من الأخطاء أثرت على النتائج..

وعندما نعالج ما دار في صدر الاسلام، نتسلح بسلاحين رئيسيين:

الأول: التحصن بفهم واضح للعقيدة الاسلامية المنزهة، كما أنزلها الله على محمد صلى الله عليه وسلم وحيا في القرآن، ومحاولة الالمام بتفاصيلها وقواعدها.

الثاني: ان نضع البشر في المكان الذي وضعهم الله فيه، وأن لا نغطي أحدا ببرقع العصمة الذي يذهب اليه البعض من الذين يخلطون بين التاريخ والعقيدة أو بينهما وبين التراث.. ونحن لا نقول بالعصمة لأي خليفة أو صحابي، فقد أصابوا وأخطأوا، واعترفوا هم بأخطائهم، فماذا يقول أولئك في أمر أبي بكر الصديق، الذي أحرق الفجاءة بن عبد ياليل في فورة غضب شديدة، أحرقه حتى مات في النار، رغم نصيحة الكثير من الصحابة له بأن لا يقوم بذلك، وقد استمر أبو بكر طيلة حياته يعرب عن ندمه الشديد على ذلك الفعل، وقال قبل أن يموت ما ندمت على فعل مثلما ندمت على ما فعلت بالفجاءة..

● ان عمر بن الخطاب نفسه قد ضرب مرة بدرته أحد المسلمين وعندما تبين له فيما بعد أنه كان مخطئا، طلب من ذلك الرجل أن يضربه لأنه ظلمه..

● عثمان بن عفان وقف مرات لا تحصى أمام المسلمين في المسجد، أو أمام عدد منهم، وأعلن اعترافه بعدد من الأخطاء، وأعلن التوبة، وطلب الصفح، وهل ننسى موقفه من عبد الله بن مسعود الذي ضربه عثمان، وندم الأخير ندما شديدا فيما بعد وذهب الى ابن مسود يطلب الصفح والمغفرة، وتقول بعض الروايات ان ابن مسعود قد غفر، وتقول أخرى خلاف هذا..

أوردنا ما أوردنا لنقول، ان الذين يذهبون مذهب العصمة والتقديس للخلفاء، انما يسرفون على أنفسهم وعلى الحقائق، فهم خليفيين أكثر من الخلفاء ذاتهم.. والحقيقة الأخرى التي نراها هامة هي ضرورة عدم وضع الخلفاء في صندوق واحد، فقد كانوا بشرا، وكان لكل منهم شخصيته وظروفه الموضوعية، وكان لكل واحد رؤيته ورأيه.. فلا يصدق من يقول أن عمرا كان نسخة من أبي بكر أو أن عثمان كان نسخة ثانية.. ولماذا نذهب بعيدا، ألم تر عمرا يخالف أبا بكر في أكثر من موقف وفي أكثر من قرار؟ وألم نعرض عليك نصوصا للجدل الذي كان يجري بين عثمان وعلي، اضافة الى مواقف عبد الرحمن بن عوف المتصلبة المعارضة لكثير

من قرارات عثمان وأفعاله، وقبل هذا وهذا، رأينا الرسول الأعظم وهو الذي غفر الله له من ذنبه ما تقدم وما تأخر، رأيناه يتقبل برحابة صدر إعجازية، انتقاد المسلمين لبعض تصرفاته، فعندما كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم، يقسم الغنائم في أعقاب أحد الغزوات قال له رجل من الأنصار «أعدل يا محمد، وكررها ثلاثا، فقال الرسول ويحك، اذا لم أعدل أنا فمن يعدل» ولما هم بعض المسلمين من حول الرسول بايذاء الرجل، نهاهم النبي عن ذلك بشدة.

ونقول، ان الاسلام عقيدة صلبة، نقية، تخلق في من يعتنقها نفسا سوية لا تشويه فيها، وهذه العقيدة السماوية الحقة، ترفض الطوطمية ولا تقبل التطويب، ولا يتسق معها أي ضرب من ضروب التقديس للأفراد... والاسلام، كدين سماوي اكتملت أركانه وأسسه، عندما أنزل الله على نبيه (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا) (1). ولا نقول أن أي فرد قد أضاف للاسلام بعد ذلك، أو انقص منه، ولا يمكن لمسلم عاقل أن يقول ان أي خليفة قد أضاف للاسلام شيئا، أو انقص منه، وانما الخلفاء، هم بشر، أخطأوا، وأصابوا، ولهم مكانتهم عند الله، وعند الرسول، وفي نفوس المسلمين بما جاهدوا وانفقوا، وما لله لله، وما للتاريخ للتاريخ، من هذا المنطلق نرى ما حدث ونتناوله بالدراسة والتحليل.

ونعود بعد هذا، الى ما كان بعد مقتل عثمان، فقد بويع علي بن أبي طالب بالخلافة، وامتنع نفر عن البيعة ومن بينهم من الأنصار «حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومسلمة بن مخلد، وأبو سعيد الخذري، ومحمد بن مسلمة، والنعمان بن بشير، وزيد بن ثابت، ورافع بن حذيج، وفضالة بن عبيد، وكعب بن عجرة» (2).

وتقول الروايات التاريخية أن عليا قد تردد في قبول الخلافة، وقال: «لا حاجة لي في أمركم فمن اخترتم رضيت»، وتضيف الروايات تلك أن علي لم يقبل الا بسبب اصرار طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، و إلحاحهما عليه مرارا حتى قبل.. غير أن هذين الصحابيين السابقين الى الاسلام، والتي أوردت الروايات كما سلف أنهما أصرا على تولي علي للخلافة، هذان الاثنان كانا من أوائل الذين قاتلوا علي بن أبي طالب وماتوا في حربهم ضده، وقيل انهما كانا يقولان وهما يحاربان عليا، لقد بايعنا بالإكراه..!!

لقد كانت تلك الحرب الأهلية العربية بشعة مثلما كل الحروب الأهلية، يقاتل فيها الأخ أخاه من أجل مصلحة دنيوية عارضة، ويكون عدو اليوم هو صديق وحليف الأمس، ألم تر أبطال بدر يواجهون بعضهم بعضا في هذه الحرب؟ فطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعائشة أم المؤمنين وعبيد الله بن عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان كل هؤلاء يقاتلون علي بن إبي طالب ومعه محمد بن أبي بكر الصديق وعمار بن ياسر ومالك الأشتر.. وعشرات من الأسماء البارزة التي بايعت الرسول يوم العقبة وقاتلت حول النبي في أحد

(1) المائدة (3).

(2) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ص 98.

وبدر، ومن هو الذي يتجرأ أو يتجاسر ويتبوأ سدة القضاء في مثل هذه الحرب، فيعطي الحق لهذا الطرف ويعطي عكسه للطرف الآخر؟ وكيف نستطيع أن نفسر تلك الحرب من منظور ديني؟ ان تلك مهمة مستحيلة، ولا نقول صعبة، فعلي بن أبي طالب تربى في بيت الرسول، ومن السابقين للاسلام، ولم يعبد وثنا في حياته، دخل الاسلام وهو في التاسعة من عمره وكان أشجع الشجعان في القتال مع رسول الله، وهو ابن عم الرسول، وأخوه في دار الهجرة، وزوج فاطمة ابنته، والزبير بن العوام كان الرسول يقول عنه أنه حواري.. وطلحة بن عبيد الله، الذي شهد أحدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان فيمن ثبت معه يومئذ حين ولى الناس، وبايعه على الموت، ورمى مالك بن زهير يوم أحد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاتقى طلحة بيده عن وجه رسول الله (ص) فأصاب خنصره فشلت فقال حين أصابته الرمية: حس: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو قال بسم الله لدخل الجنة، وشهد طلحة الخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان الرسول (ص) يقول: من سره أن ينظر الى رجل يمشي على الأرض وقد قضى نحبه فلينظر الى طلحة [1]. تلك كانت مكانة طلحة لدى الرسول وبلائه في الاسلام، والآخرون الذين عرضنا لهم ممن اشتركوا في تلك الحرب لا يختلفون كثيرا عن طلحة في هذه المكانة وذلك البلاء في الاسلام.. وكلها أسماء نقف لها إجلالا وتقديرا، لكننا لا نقدسها ولا نقول بالعصمة لأي منها، لأنهم لم يقولوا بذلك لأنفسهم، ولم يدعوا مثل هذا الادعاء.

لكل ما سبق، فنحن لا نناقش تلك الحرب من منظور ديني، لأننا لا نراها حربا دينية بل سياسية في البداية والنهاية، وقد تضاربت الرواية حول موقف طلحة والزبير من علي، فهناك من يقول أنهما بايعاه طوعا بل هما اللذان الحا عليه بقبول الخلافة، وهناك من يقول انهما بايعا كرها في المدينة، ولكنهما بعد البيعة ذهبا الى مكة وهناك أعلنا موقفهما المعارض لعلي وشرعا في اعداد العدة لقتاله متحالفين في ذلك مع عائشة أم المؤمنين. وكانت حجة الذين أعدوا لقتال علي، هي مطالبتهم له، بالقصاص من قتلة عثمان، فماذا كان موقف علي في هذه القضية؟

تقول الروايات التاريخية أن طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام دخلا على علي بن أبي طالب بعد رجوعه الى بيته اثر مبايعته بالخلافة، ومعهم عدد من الصحابة فقالوا يا علي أنا قد اشترطنا اقامة الحدود، وان هؤلاء القوم قد اشتركوا في قتل هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم فقال علي: يا اخوتاه اني لست أجهل ما تعلمون ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت اليهم أعرابكم وهم خلاطكم، يسومونكم ما شاءوا فهل ترون موقعي لقدرة على شيء مما تريدون» [2]. اذن فهما ومن معهما من الصحابة يطالبون عليا بالاقتصاص من الذين قتلوا عثمانا، وعلي يقرهم على ذلك، الا أنه يحتج بأن الوقت غير مناسب لذلك لأن الثوار هم المسيطرون على المدينة، وليس لعلي قدرة على فعل

(1) طبقات ابن سعد م 3، ص 214.

(2) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج 3، ص 100.

شيء ازاءهم، بل هم القادرون على فعل ما يريدون، والذي يفهم من حديث علي بن أبي طالب أنه يفضل تأجيل النظر في هذا الأمر حتى تكون الظروف مهيأة لذلك.. وستكون هذه القضية «أي القصاص من قتلة عثمان هي المحور المعلن الذي تدور حوله رحى تلك الحرب» أما المحاور الحقيقية الخفية فانها لا تتكشف الا من خلال متابعة الحوارات المغلقة والخطط الكيدية، وهذا ما سنراه فيما بعد.



23

نواقيس الحرب الأهلية، قميص عثمان

23

نـواقـيـس الـحـرب الأهـلـيـة، قـمـيـص عـثـمـان

بعد توصل علي بن طالب، وأولئك النفر الذين حدثوه في أمر دم عثمان الى ما توصلوا اليه على ارجاء هذا الأمر حتى تستقر الأوضاع في المدينة اثر الثورة، بعد ذلك تطورت الأمور بسرعة مريبة فقد بدأ الأمويون في مغادرة المدينة، بعضهم قصد مكة، ومعهم طلحة والزبير، وبعضهم التحق بمعاوية في الشام، وهنا أدرك علي أن الأيام القادمة هي نواقيس الخطر وطبول الحرب مع أولئك، ولكنه قرر أن يدفع الأمور بسرعة الى الأمام، وحاول أن يسيطر على الأوضاع في كافة أقاليم الدولة، ولكن هناك من أدرك ان اتجاه علي هذا في غير مصلحته، وطلب منه ارجاء عزل الولاة، وأخذهم باللين ومحاولة الحصول على بيعتهم له، ومن أول المشيرين على علي بهذا الرأي ابن عمه عبد الله بن العباس، قال ابن العباس: «أتيت عليا بعد قتل عثمان عند عودي من مكة فوجدت المغيرة بن شعبة مستخليا به فخرج من عنده فقلت له: ما قال لك هذا؟ فقال: قال لي قبل مرته هذه: ان لك حق الطاعة والنصيحة وأنت بقية الناس وأن الرأي اليوم تحرز به ما في غد وان الضياع اليوم يضيع به ما في غد.. أقرر معاوية ـ وابن عامر وعمال عثمان في أعمالهم حتى تأتيك بيعتهم ويسكن الناس ثم أعزل من شئت، فأبيت عليه ذلك وقلت: لا أداهن في ديني ولا أعطي في الدنية أمري قال: فان كنت أبيت عليَّ فأنزع من شئت وأترك معاوية فان في معاوية جرأة وهو في أهل الشام يستمع منه ولك حجة في اثباته. كان عمر قد ولاه الشام فقلت والله لا أستعمل معاوية يومين ثم أنصرف من عندي وأنا فيه أنه يود أني مخطىء، ثم عاد الي الآن فقال: اني أشرت عليك أول مرة بالذي أشرت وخالفتني فيه ثم رأيت بعد ذلك أن تصنع الذي رأيت فتعزلهم وتستعين بمن تثق به فقد كفى الله وهم أهون شوكة مما كان. قال: ابن عباس، فقلت لعلي: اما المرة الأولى فقد نصحك، وأما المرة الثانية فقد غشك. قال: ولم نصحني. قلت: لأن معاوية وأصحابه أهل دنيا فمتى ثبتهم لا يبالون من ولى هذا الأمر ومتى تعزلهم يقولون: أخذ هذا الأمر بغير شورى وهو قتل صاحبنا

ويؤلبون عليك فتنتفض عليك الشام وأهل العراق مع اني لا آمن طلحة والزبير أن يكرا عليك، وأنا أشير عليك أن تثبت معاوية فان بايع فعلي أن أقلعه من منزله، وقال علي والله لا أعطيه الا السيف[1]

هكذا أشار المغيرة على علي برأيين مختلفين، وهما في وصف ابن عباس، أحدهما نصح، والآخر غش، وأما ابن عباس فانه من حديثه فضل اعمال السياسة خاصة مع معاوية، غير أن عليا أصر على الاستمرار في موقفه المتشدد خاصة مع معاوية، كان هذا ما يجري في المدينة، أما في مكة فكان الاستعداد للحرب والصراع على السلطة، فطلحة بن عبيد الله يرى أنه أحق من علي بالخلافة وبدأ يعلن ذلك، والزبير بن العوام لم يخف رغبته فيها، وكادا أن يشرعا في الحرب بينهما على هذا الأمر وهما في المدينة قبل الخروج لمحاربة علي، فقد هم كل واحد منهما بأن يصلي بالناس الا أن عائشة تدخلت وقالت فليصلي عبد الله بن الزبير بن العوام بالناس وهو ابن اختها. أما في الشام فقد علق معاوية قميص عثمان الملطخ بالدم على منبر المسجد وفوقه أصابع زوجته التي قطعت وهي تدفع عنه، واتخذ معاوية ذلك مادة لتعبئة الناس ضد علي وحثهم على الاستعداد للقتال من أجل دم عثمان، والأمر كما رأيت يدور بين بطون قريش، ينازع كل طرف منهم الأمر ويريده له، وكان قطبا الصراع بنو أمية وبني هاشم، أما بقية المسلمين فان أحسن تصوير لموقفهم هو ما قاله رجل من البصرة لطلحة والزبير، فقد قال العبدي «يا معشر المهاجرين، أنتم أول من أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان لكم بذلك فضل، ثم دخل الناس في الاسلام كما دخلتم فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بايعتم رجلا منكم والله ما استأمرتمونا في شيء من ذلك فرضينا وأتبعناكم فجعل الله عز وجل للمسلمين في امارته بركة ثم مات رضى الله عنه واستخلف عليكم رجلا منكم فلم تشاورونا في ذلك، فرضينا وسلمنا فلما توفى الأمير جعل الأمر الى ستة نفر فاخترتم عثمان وبايعتموه عن غير مشورتنا ثم أنكرتم من ذلك الرجل شيئا فقتلتموه عن غير مشورة منا ثم بايعتم عليا عن غير مشورة منا، فما الذي نقمتم عليه فنقاتله، هل استأثر بفيئ أو عمل بغير الحق، أو عمل شيئا تنكرونه فنكون معكم عليه والا فما هذا؟» [2]. وقد كان «العبدي» في حديثه هذا معبرا عن حقيقة ما جرى ويجري، فقد استأثر المهاجرون بالسلطة بعد أن أخرجوا منها الأنصار يوم السقيفة ولم يشاوروا المسلمين في الأقاليم أبدا في أمر الخلافة والخليفة. ولم يسألوهم رأيهم. وبعد أن أصبحت القوة هي أداة الوصول الى السلطة راح هؤلاء المهاجرون يطلبون سيوف المسلمين في الأقاليم، ومن هنا كانت المواقف المتباينة والمتضاربة لمسلمي الأقاليم من تلك القضية الخطيرة، باستثناء الشام التي كان معاوية قد شدد عليها قبضته وأعمل فيها سياسته، فتبعوه أهل الشام ولم يظهروا له معارضة تذكر...

واذا كان علي قد تمكن في بداية المواجهة من السيطرة على الموقف في اقليمي العراق، الا أن المعارضة له تركزت في الشام بقيادة معاوية، فبعد انتصار علي في موقعة الجمل، ومقتل

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 3، ص 101.

(2) تاريخ الطبري، ج 5، ص 179.

الزبير وطلحة وانسحاب عائشة واعتكافها في مكة، ظهر كأن الأمر، أصبح لعلي بن أبي طالب، فقرر علي المسير الى الشام والقضاء على مقاومة معاوية، وفي هذه الأثناء جرت اتصالات وقامت سفارات ووساطات بين الاثنين. كان علي فيها يطلب الطاعة له من معاوية وكان الأخير يطالبه بدم عثمان. وأما معاوية فلم يعلن من طرفه أنه ينازع عليا على الخلافة وانما كان يعلن دائما المطالبة بدم عثمان ويتهم عليا بأنه وراء قتله. في أثناء حرب صفين أرسل علي أبا عمرة بشير بن عمرو الى معاوية، فقال أبو عمرة «يا معاوية أن الدنيا عنك زائلة، وانك راجع الى الآخرة وان الله عز وجل محاسبك بعملك ومجازيك بما قدمت يداك واني أنشدك الله عز وجل أن لا تفرق، تفرق جماعة هذه الأمة وأن تسفك دماءها بينها، فقطع عليه معاوية الكلام وقال: هلا أوصيت بذلك صاحبك فقال أبو عمرة: ان صاحبي ليس مثلك، أن صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الاسلام والقرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم قال معاوية: فيقول ماذا؟ قال أبو عمرة: يأمرك بتقوى الله واجابة بن عمك الى ما يدعوك اليه من الحق فانه أسلم لك في دنياك وخير لك في عاقبة أمرك، قال معاوية، ونطل دم عثمان رضي الله عنه، لا والله لا أفعل ذلك أبدا» (1).

ولما توادع علي ومعاوية على ترك الحرب في شهر محرم الى انقضائه طمعا في الصلح اختلف بينهما الرسل رجاء الصلح فبعث علي عدي بن حاتم ويزيد بن قيس الأرحبي وشبث بن ربعي وزياد بن خصفه الى معاوية، فلما دخلوا عليه، حمد الله عدى بن حاتم ثم قال: أما بعد فأنا أتيناك ندعوك الى أمر يجمع الله عز وجل به كلمتنا وأمتنا ويحقن به الدماء ويأمن به السبل ويصلح به ذات البين. ان ابن عمك سيد المسلمين، أفضلها سابقة وأحسنها في الاسلام أثرا وقد استجمع له الناس، وقد أرشدهم الله عز وجل بالذي رأوا فلم يبق أحد غيرك وغير من معك فانتبه يا معاوية و إلا يصبك الله وأصحابك بيوم مثل يوم الجمل. فقال معاوية، وكأنك انما جئت متهددا ولم تأت مصلحا، هيهات يا عدي، كلا والله اني لابن حرب ما يقعقع لي بالشنان، أما والله انك لمن المجلبين على ابن عفان رضي الله عنه، وانك لمن قتلته، واني لأرجو أن تكون ممن يقتل الله عز وجل به، هيهات يا عدي بن حاتم قد حلبت بالساعد الأشد، فقال له شبث بن ربعي وزياد بن خصفه، وتنازعا جوابا واحدا: أتيناك فيما يصلحنا واياك فأقبلت تضرب لنا الأمثال، دع ما لا ينتفع به من القول والفعل وأجبنا فيما يعمنا و إياك نفعه، وتكلم يزيد بن قيس، فقال أنا لم نأتك الا لنبلغك ما بعثنا به اليك ولنؤدي عنك ما سمعنا منك، ونحن على ذلك لن ندع أن ننصح لك وأن نذكر ما ظننا أن لنا عليك به حجة وانك راجع به الى الألفة والجماعة، ان صاحبنا من قد عرفت وعرف المسلمون فضله ولا أظنه يخفى عليك أن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلي ولن يميلوا بينك وبينه فاتق الله يا معاوية ولا تخالف علياً فانا والله ما رأينا رجلا قط أعمل بالتقوى ولا أزهد في الدنيا ولا أجمع لخصال الخير كلها منه، فقال معاوية: «انكم دعوتم الى الطاعة والجماعة فاما الجماعة التي دعوتم اليها فمعنا هي، واما

---

(1) المصدر السابق، ص 242.

الطاعة لصاحبكم فأنا لا نراها، ان صاحبكم قتل خليفتنا وفرق جماعتنا وآوى ثأرنا وقتلتنا وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله فنحن لا نرد ذلك عليه أرأيتم قتلة صاحبنا، ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم، فليدفعهم الينا فلنقتلهم به ثم نحن نجيبكم الى الطاعة والجماعة»[1].

وقد سقنا اليك هذا الحوار مفصلا على طوله، لأننا نرى أنه قد تم في ظروف هامة ودقيقة، وهو يكشف موقف كل طرف ومبتغاه.

● فقد التقى مبعوثو علي هؤلاء مع معاوية في أثناء توقف حرب صفين في شهر المحرم، والذي نسجله أن علياً قدكان المبادر بايفاد الرسل والسفراء الى معاوية، وكان أكثر الحاحا على الصلح وايقاف المواجهة والحرب.

● كان علي في كل تصرفاته اثناء حرب الجمل وأثناء صفين يغلب العوامل والمواقف التي تهيء للصلح، فعندما تمكن علي وأصحابه من الماء في صفين اقترح عليه بعضهم أن يمنع الماء عن أصحاب معاوية الا أن عليا رفض هذا الاقتراح، وسمح لخصومه بما أرادوا من الماء.

● أمر علي بن أبي طالب جماعته أن لا يتوسعوا في القتل، وأن يبتعدوا قدر طاقتهم عما يورث الحقد والعداوة مثل التمثيل بالقتلى وانتهاك الأعراض.

● وربما قبل علي بايقاف الحرب والجنوح الى أسلوب الصلح، لأنه كان يرى أنه قد أصبح الأقوى، وان الذين ينازعونه أمر الخلافة قد قتلوا يوم الجمل، وأن عائشة قد رجعت الى مكة، ولم ير في معاوية منافسا له على منصب الخلافة لأن الفارق في المؤهلات والسابقة والقربى من الرسول، بينهما كبير، ونكتشف من الحوار السابق، أن عليا كان ينظر الى معاوية نظرته الى أي فرد من أفراد الرعية، ويطلب منه أن يسمع ويطيع ولم ير أن من حقه الاعتراض أو التخلف عن البيعة، وفي هذا الحوار يكشف معاوية عن موقفه الحاسم والنهائي، وهو اتهامه لعلي بقتل عثمان، ويرفض طاعته، ويصر على قتاله، الا اذا سلم له قتلة عثمان ليقتلهم..

في هذه الأثناء أعاد كثيرون على علي ما سبق أن أشار به عليه المغيرة بن شعبة قبل اندلاع الحرب وهو أن يثبت معاوية على الشام، وتكون بذلك بداية نهاية الحرب، غير أن عليا أصر على رأيه، ورفض تثبيت معاوية، وكان أمرالتحكيم بعد أن رفع الشاميون المصاحف، وأختار علي أبا موسى الأشعري مندوبا له في هيئة التحكيم، وانتدب معاوية عمرو بن العاص..

وحدث في التحكيم ما حدث، فقد ثبت عمرو بن العاص معاوية، وخلع أبو موسى الأشعري عليا..

● وكان قبول علي بالتحكيم، هو بداية تصدع أركان جماعته، وما لحق به من بعد، فقد رفض جماعة من أنصار علي، قبوله للتحكيم، وقالوا كيف يقبل بهذا المبدأ غير الشرعي، وأعلنوا أن «لا حكم الا لله». وقد سددت قضية التحكيم الى علي بن أبي طالب ضربتين: الأولى، ان قسما ممن معه رفضوا هذا المبدأ، وشقوا عصا الطاعة عليه وأعلنوا خروجهم عليه، لأنه بقبوله بمبدأ

(1) المصدر السابق، ج 6، ص 3.

التحكيم قد أرتكب مخالفة لأمر شرعي كما قالوا اذا «لا حكم الا لله».. وصرخ علي بن أبي طالب ان تلك كلمة حق أريد بها باطل..

● والضربة الثانية، أن معاوية لم يعد خصما لعلي على كرسي الخلافة بل انتزعه منه، ووجد علي نفسه في موقف خطير، من الناحية السياسية والعسكرية والدينية، فجماعته قد انقسمت، وأعلن قسم منها معارضته له، ولم يستطع أن يقبل ما توصل اليه الحكمان، وكان رفضه له مخالفة دينية وأخلاقية، لأن ذلك يعتبر نقضا للعهد، وذلك شيء كبير.

● أما معاوية، فقد وجد نفسه بعد التحكيم في موقع لم يكن يتصور أن يصله بتلك السهولة، فبعد أن كان يناوش عليا ويماحكه باسم دم عثمان ولا يجرأ على اعلان منافسته له في أمر الخلافة، فها هو يجد نفسه، منصبا خليفة للمسلمين، ليس بقوة السلاح ولكن بحكم محكمة ارتضاها علي بن أبي طالب نفسه، وأنهارت آمال علي، الذي كان قاب قوسين من النصر على معاوية ومن معه، وأصبح معاوية يقاتل عليا الناكث بالعهد، الرافض لطاعة معاوية أمير المؤمنين الجديد! ! وبدأ الناس يتفرقون من حول علي، بحجة الدين أو السياسية، فما ازداد الملتفون من حول معاوية، ولم يجد علي بدا من الانسحاب نحو العراق بمن بقي على ولائه له، ووجد نفسه يحارب خصما جديدا، كان بالأمس من المقاتلين في صفه وهم الخوارج..



24

القرآن؛
ورقة سياسية
في معركة السيوف



24

القرآن؛ ورقة سياسية في معركة السيوف

استمرت حرب صفين أياما، وقد تمكن علي ومن معه في أثنائها من السيطرة على الماء وسمح لجند معاوية بها، وتمكن علي في أواخر تلك المعركة الشديدة، من رد الشاميين الذين قاتلوا بشدة وعنف في البداية حتى دب الخوف في جيش العراقيين، ونهض علي بن أبي طالب يحرض أنصاره ويدفعهم للقتال، حتى جمعوا أمرهم مرة أخرى واندفعوا بشدة حتى لاحت علامات النصر لهم، بل أن مالك بن الاشتر قد كبر للنصر.. ورفع جيش الشام المصاحف على أسنة الرماح، اشارة الى تحكيم كتاب الله في أمر ذلك القتال، وقبل أن نناقش هذه القصة الغريبة - العجيبة، التي سميت في التاريخ الاسلامي «التحكيم» قبل أن نناقشها لنستعرضها كما جرت؛ ففي الأيام الأخيرة من حرب صفين قام علي بن أبي طالب بتعبئة كبيرة لمن معه من العراقيين والمهاجرين، وحرضهم على القتال، فقام بعض من معه وبارزوا بعض من مع معاوية، والتحم الجمعان، الفارس بالفارس والراجل بالراجل، ودفع علي كل قبيلة من العراق الى أختها من أهل الشام، وأعاد علي تنظيم ميمنته وميسرته، وقاتل مالك بن الاشتر بضراوة فاقت ما عرف قبلها، واتضح أن النصر قد عقد للعراقيين، وهنا أشار عمرو بن العاص على معاوية ان ارفع المصاحف فوق أسنة الرماح، ومُر الناس أن يقولوا هذا كتاب الله بيننا وبينكم، فان فعلوا ذلك ارتفع عنا القتال، وان أبى بعضهم وجدنا في افتراقهم راحة، فرفع أصحاب معاوية المصاحف، وقالوا ما أمرهم به معاوية، فاذا جماعة ممن مع علي بن أبي طالب يستجيبون، ويقولون نستجيب الى تحكيم «كتاب الله». هذا هو القسم الأول من تلك القصة.

- فقد عرض معاوية وأصحابه تحكيم كتاب الله وقبله جزء ممن مع علي..
- فماذا كان موقف علي بن إبي طالب والآخرين الذين لم يستجيبوا الى مبادرة معاوية؟ لقد

قال علي لمن معه مباشرة:

(يا عباد الله، امضوا على حقكم وقتال عدوكم، فان معاوية وابن أبي معيط وحبيبا وابن

أبي سرح والضحاك ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف بهم، صحبتهم أطفالا ورجالا فكانوا شر أطفال وشر رجال. ويحكم والله مارفعوها الا مكيدة وخديعة فقالوا: لا يسعنا أن ندعي الى كتاب الله فلا نقبل). واسقط في يد علي، فهو كما ذكر يعرف قيادات القوم الذين يقاتلهم ويعرف خداع معاوية وابن العاص ومن معهما، وأدرك علي أنهما شرعا يستخدمان سلاحهما الآخر بعد أن عجزا عن تحقيق ما أرادا بالسيوف.. لكل هذا أعلن علي في صحبه رفضه لتلك المبادرة لأنها ليست لوجه الله.. وهذا هو الفصل الثاني من قصة التحكيم.. وبعد هذا الفصل نصل الى المولود السريع، الذي أنجبته قضية التحكيم، وهو الخوارج. حيث يقال أن مسعر بن فدك التميمي، وزيد بن حصين ومعهما مجموعة من القراء، قالوا لعلي بن أبي طالب: أجب الى كتاب الله والا دفعنا برمتك الى القوم، أو فعلنا بك ما فعلنا بابن عفان. وقبل علي على مضض، خوفا من الفتنة داخل جماعته التي اختلف موقفها من أمر التحكيم. وهكذا قبل علي ومن معه.. وتم الاتفاق على أن يندب الشاميون ممثلا لهم في لجنة التحكيم، فأختاروا عمرو بن العاص، أما بالنسبة لعلي ومن معه من العراقيين فلم يتفقوا بنفس السرعة على اختيار ممثلهم في لجنة التحكيم الثنائية، فقد أصر قراء القرآن، الذين رأيناهم يضغطون على علي لقبول التحكيم، أصروا على أن يكون ممثل علي هو أبو موسى الأشعري، ولكن عليا قال لا أرضاه، فقال الأشعث ويزيد بن الحصين ومسعر بن فدك لا نرضى الا به، وهؤلاء الثلاثة، هم من قادة الحركة التي ولدت بعد التحكيم وعرفت في التاريخ الاسلامي باسم الخوارج.. وكان هؤلاء يصرون على أبي موسى الأشعري لأنهم رأوا فيه شخصا محايدا يتخذ نفس الموقف من علي ومعاوية، وعندما اقترح علي بن أبي طالب، اقترح الأشتر ان يكون ممثله في لجنة الحكمين رفض أولئك النفر، وقالوا هل سَعّر الأرض غير مالك. وهكذا تشكلت لجنة الحكمين من أبي موسى الأشعري ممثلا لعلي بن أبي طالب وعمرو بن العاص ممثلا عن معاوية، وذهب عضوا اللجنة الى علي ليكتبا القضية بحضوره فكتبوا بعد البسملة: هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين، فقال عمرو بن العاص: ليس هو بأميرنا: وكانت تلك أول مشكلة، ولكن عليا خضع لها ووافق على أن يكتب اسمه دون وصفه بأمير المؤمنين. وكتب الكتاب على النحو الآتي:

(هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، قاضى علي على أهل الكوفة ومن معهم وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم، انا ننزل عند حكم الله وكتابه، وان لا يجمع بيننا غيره، وان كتاب الله بيننا من فاتحته الى خاتمته نحيي ما أحيا القرآن ونميت ما أمات مما وجد الحكمان في كتاب الله. وهما أبو موسى عبد الله بن قيس، وعمرو بن العاص، وما لم يجدا في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة) (1).

بعد تشكيل لجنة التحكيم هذه، وكتابة الوثيقة السابقة، غادر الجمع صفين، وعاد كل الى مكانه، واتفقوا على أن يلتقي علي مع الحكمين بدومة الجندل أو بأذرح في شهر رمضان.. وخرج الأشعث بن قيس وهو من أنصار علي يقرأ ذلك الكتاب الذي توصل اليه الحكمان،

(1) تاريخ العلّامة ابن خلدون م2، ص 1111.

وعندما مر الأشعث على طائفة من بني تميم فيهم عروة بن أديه: قال: تحكمون الرجال في أمر الله عز وجل؟! لا حكم الا لله.. وكان هذا الموقف هو الاعلان الأول عن حركة الخوارج..

ولا أظنك نسيت أن الذين أصروا على علي بن أبي طالب، بضرورة وقف القتال، عندما رفع أنصار معاوية المصاحف على أسنة الرماح، والذين فرضوا على علي قبول أبي موسى الأشعري كممثل له في لجنة الحكمين.. ان هؤلاء هم قادة من عرفناهم فيما بعد باسم الخوارج، الخوارج الذي يرفضون التحكيم، ويريدون مواصلة القتال، ويرفضون عمرو بن العاص وأبا موسى الأشعري كحكمين! ! لا شك أن التضارب والخلط والتناقض أوضح من أن نشرحه..

وما أظنك نسيت كلمات مسعر بن فدك التميمي وزيد بن حصين الطائي وهم يقولون لعلي: أجب الى كتاب الله والا دفعنا برمتك الى القوم أو فعلنا بك ما فعلنا بعثمان ابن عفان.. وهذان هما اللذان صارا من بعد على رأس حركة الخوارج، وعارضوا عليا وقاتلوه لأنه قبل التحيكم! !

ونكرر أن هذا أمر غامض وغريب، ولا يمكن أن يكون السياق بالشكل الذي وصل الينا عبر الروايات، لا يمكن ان يكون صحيحا، وقد يكون ناقصا، أو منقوصا بدوافع سياسية، جعلت الرواة يغيرون أو يحذفون.. فنحن لا يمكن أن نصدق أن أولئك النفر الذين عرفوا فيما بعد بالخوارج يتقلبون بهذه السرعة وبهذا الحجم، فهم من حفظة القرآن، ومن الذين قالتوا ببسالة واخلاص مع علي بن أبي طالب قبل قضية التحكيم، ولا نجد بين البارزين منهم، من يشك في ايمانه أو صلابة عقيدته..

وقد يقول قائل أنهم وافقوا على تحكيم كتاب الله، ولكنهم اعترضوا أن يوكل هذا الأمر الى أشخاص.. وهنا تصدق مقالة علي بن أبي طالب أن القرآن لا ينطق بنفسه وهو مكتوب، ويحتاج الى من ينطق به، ولا نظن أن ذلك كان غائبا عمن سموا بالخوارج.. واذا قلنا، انهم لا يعترضون على تحكيم أشخاص، بل هم يعترضون على الاسمين اللذين أختيرا للتحكيم، نقول في الرد على ذلك، أنهم أي الخوارج، هم الذين فرضوا أبا موسى الأشعري رغم اعتراض علي عليه.. وهذا يعني أنهم قبلوا بالأسلوب وبالشخص. اما اعتراضهم على ايقاف القتال، فهذا ما لم يكن، بل العكس الذي كان، فهم قد هددوا ابن أبي طالب بالقتل أو تسليمه الى معاوية اذا لم يوقف القتال..

فما هو الدافع بعدما رأينا ـ الذي دفع المسمين بالخوارج ـ لترك علي بل ومحاربته؟ بعد أن وافقوه في البداية على ما ذهب اليه، بل أصروا عليه في ذلك؟..

نحن نميل الى أن الجزء الأول من موقفهم مختلق، وأن الجزء الثاني صحيح، أي أن من سموا فيما بعد بالخوارج، لم يشيروا على علي بوقف القتال بعد رفع المصاحف، ولم يقبلوا التحكيم، ولم يصروا على تعيين أبي موسى الأشعري ممثلا لعلي في لجنة الحكمين.

وان الجزء الثاني هو الصحيح: الجزء الذي يرفضون فيه وقف القتال، ويرفضون التحكيم، شكلا ومضمونا، وما جعلنا نذهب الى هذا، هو أن قادة حركة الخوارج كما عرفناهم من أسمائهم، لم يكونوا من المؤثرين أو من المشيرين على علي بن أبي طالب، فقادتهم شبث بن عمر التميمي، وعبيد الله بن الكوّا اليشكري، وزيد بن حصين، وعبد الله بن وهب، هؤلاء القادة

لا نجد لهم مكانا في المقربين من علي ولا نجد لهم تأثيرا في من حوله من الناحية العسكرية، فهم لم يكونوا في مستوى الأشعث بن قيس أو مالك بن الأشتر وغيرهما.. فكيف استطاعوا فجأة أن يفرضوا موقفين على علي بن أبي طالب، وهما وقف القتال، وقبول أبي موسى الأشعري ممثلا له.. وهذان الأمران، وقف القتال، وممثل علي في لجنة الحكمين، ليسا بالأمرين الهينين اللذين يمكن لعلي أن يخضع فيهما الى نفر ليست لهم من السلطة والتأثير شيء، وليس لهم من العصبية والاتباع ما يشكل ثقلا، ثم أن ذلك لا يتسق مع شخصية علي العنيدة الصلبة، فقد رأينا عليا يخالف آراء ابن عمه عبد الله بن العباس، ورأيناه يخالف آراء المغيرة بن شعبة ولا يلين أمام غيرهما، فالقول بإن أولئك النفر فرضوا عليه القبول بوقف القتال، والرضا بأبي موسى الأشعري ممثلا له، يجانب الصواب من ناحيتين، لأنه يخالف شخصية علي، ولأنه يخالف الفلسفة الأساسية التي انطلق منها الخوارج.. ونحن نميل الى أن الخوارج رفضوا منذ البداية فكرة وقف القتال وفكرة التحكيم، لأنهم في غالبيتهم قراء للقرآن متفقهون فيه، وهم بهذا يميلون الى «الكلام» والجدل والتخريج، ولا يمكن أن يشكلوا آراءهم بسرعة، أو يتخذوا موقفا جزافا.. وللخوارج موقفان نكتشف فيهما حقيقة دوافعهم، وسبب ما ذهبوا اليه..

الأول: حوارهما مع عبد الله بن عباس الذي أرسله اليهم علي بن أبي طالب، بعد اعلانهما رفض التحكيم، فقد قال ابن عباس لهم: مانقمتم من أمر الحكمين وقد أمر الله بهما بين الزوجين، فكيف بالأمة؟ فقالوا لا يكون هذا بالرأي والقياس! فان ذلك جعل الله حكمه للعباد وهذا أمضاه، كما أمضى حكم الزاني والسارق. قال ابن عباس، قال الله تعالى: يحكم به ذو عدل منكم، قالوا: والأخرى كذلك، وليس أمر الصيد والزوجين كدماء المسلمين. ثم قالوا له، قد كنا بالأمس نقاتل عمرو بن العاص، فان كان عدلا فعلام قاتلناه؟ وان لم يكن عدلا فكيف يسوغ تحكيمه؟ وأنتم قد حكمتم الرجال في أمر معاوية وأصحابه، والله تعالى قد أمضى حكمه فيهم أن يقتلوا أو يرجعوا» [1].

هذا الحوار بين ابن عباس وبين الخوارج، يؤكد أن هؤلاء لم يتخذوا موقفهم بسرعة، أو في لحظة انفعال، وانما كان عن رؤية وتفسير وتأويل للقرآن، قد يراه البعض صوابا، وقد يراه آخر غير ذلك، ولكنه على كل حال موقف ناتج عن رؤية وروية.. ثم أننا نجد في هذا الحوار بداية لما عرف فيما بعد بعلم «الكلام» أي استخدام المنطق في القضايا الدينية، فعرضهم لابن العاص، كخصم في البداية، ثم كحكم عدل في النهاية، واظهارهم تناقض ذلك، هذا العرض يدل عن نضج ووعي وفهم للدين، قد يكون صحيحا أو غير صحيح، ولكنه لا يخلو من جدية وعمق..

أما الموقف الثاني الذي يكشف حقيقة وجهة نظر الخوارج هو، موقفهم من علي بعد اعلان نتيجة التحكيم، فبعد أن خلع أبو موسى الأشعري عليا ومعاوية، وتثنية عمرو بن العاص على خلع أبي موسى لعلي، وتثبيته لمعاوية، بعد ذلك كتب علي الى الخوارج «بسم الله الرحمن

---

(1) تاريخ العلّامة ابن خلدون، م2، ص 1113.

الرحيم، من عبد الله علي أمير المؤمنين الى زيد بن الحصين، وعبد الله بن وهب ومن معهما من الناس، أما بعد فان هذين الرجلين اللذين أرتضيناهما حكمين قد خالفا كتاب الله وأتبعا هواهما بغير هدى من الله فلم يعملا بالسنة ولم ينفذا القرآن حكما، لبريء الله منهما ورسوله والمؤمنون، فان بلغكم كتابي هذا، فأقبلوا الينا فانا سائرون الى عدونا وعدوكم ونحن على الأمر الأول الذي كنا عليه والسلام».

فكتبوا اليه: «أما بعد فانك لم تغضب لربك وانما غضبت لنفسك فان شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك والا فقد نبذناك على سواء أن الله لا يحب الخائنين» (1).

(1) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ، ج 3، ص 171.



25

« الخــوارج »

25

« الخـــوارج »

من العرض السابق لموقف الخوارج من علي، وموقفه منهم ثم انتهاء أمرهم بنشوب القتال بينه وبينهم، من ذلك يتكشف لنا اتجاه الخوارج الديني والسياسي.. فأما الاتجاه الديني فهو رفضهم لمبدأ التحكيم، على أساس أن القتال بين المسلمين فيه نص قرآني، ولا يجوز أن يرى فيه البشر رأيا.. ونحن نرى أن ذلك كان رأيهم منذ البداية، ولم يأت فيما بعد للأسباب التي ذكرناها. أما اتجاههم السياسي فهو رفضهم لخلافة علي ومعاوية فلما «رجع علي من صفين فارقه الخوارج وأتو ـ حروراء ـ فنزل بها منهم اثنا عشر ألفا ونادى مناديهم أن أميرالقتال شبث بن ربعي التميمي، وأمير الصلاة عبد الله بن الكوا اليشكري والأمر شورى بعد الفتح، والبيعة لله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (1).

فهذا هو موقفهم السياسي، أنهم يرون أن الأمر شورى، ويعتبرون موقف معاوية وعلي خاطئين، فقد قالوا لأصحاب علي «استبقتم أنتم وأهل الشام الى الكفركفرس رهان، بايع أهل الشام معاوية على ما أحبوا وكرهوا وبايعتم أنتم عليا على أنكـم أوليـاء مـن والي واعداء من عادى» (2). اذن فهم يرون أن الطرفين يتسابقان على الكفر كفرس رهان، لأن تلك البيعة، بيعة دنيوية سلطوية، وليست من الدين في شيء.. بل هي صراع على الحكم بين بطون قريش. ولا نرى موقف هؤلاء الخوارج الا امتدادا عمليا لموقف «العبدي» الذي خاطب طلحة والزبير عند دخولهم البصرة فقال لهم «يا معشر المهاجرين، أنتم أول من أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان لكم بذلك فضل ثم دخل الناس في الاسلام كما دخلتم فلما توفى رسول الله صلى الله علي وسلم بايعتم رجلا منكم والله ما استأمرتمونا في شيء من ذلك فرضينا واتبعناكم

---

(1) المصدر السابق، ص 165.

(2) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ، ج 3، ص 165.

فجعل الله عز وجل للمسلمين في امارته بركة، ثم مات رضى الله عنه واستخلف عليكم رجلا منكم فلم تشاورونا في ذلك، فرضينا وسلمنا، فلما توفى الأمير جعل الأمر الى ستة نفر فاخترتم عثمان وبايعتموه عن غير مشورة منا ثم أنكرتم من ذلك الرجل شيئا فقتلتموه عن غير مشورة منا، ثم بايعتم عليا عن غير مشورة منا» [1]. كان هذا هو رأي أهل البصرة الذي قاله على لسانهم العبدي لطلحة والزبير ومن معهما، فهم قد اعتبروا أن كل ما جرى ويجري هو صراع بين المهاجرين على الحكم والسلطان، وانهم استأثروا بالأمر من دون بقية المسلمين، وأنهم جاءوا أخيرا طالبين لسيوف المسلمين ولم يطلبوا رأيهم من قبل... ونرى أن ذلك كان نفس موقف الخوارج من علي، فقد اتخذ قرار البيعة لعلي دون أمرهم، ووجدوا أنفسهم في حرب مع اخوتهم المسلمين، وكان قرار الحرب دون أخذ رأيهم وقرار ايقافها كذلك، وقرار التحكيم، ثم قرار استئناف القتال، وقد بدأت ريح التمرد على علي مبكرا في صفوف أنصاره فقد كانوا يعترضون ويناقشون على عكس جند معاوية، بل كانوا يتشككون وذلك ما أحس به عبد الله بن عباس، عندما أنكر عليهم كثرة أسئلتهم، وظنونهم بأن هناك صفقة تعقد سرا بين علي ومعاوية، وانهم مجرد أداة في الحرب، ولن ينالهم من نتاج الأمر شيئا... كل تلك المقدمات أدت الى موقف الخوارج. ولم يكن الخوارج وحدهم في ذلك الموقف، بل سرت روح التخلي عن علي في بقية أنصاره، فعندما عاد من قتال الخوارج وأراد استئناف الحرب ضد معاوية لم يجد معه الا نفرا قليلا. فقد دخل الناس الكوفة بعد الحرب مع الخوارج، والتزم كل واحد بيته، ووجد علي نفسه وحيدا الا قليل من الناس بقوا من حوله، وحتى ابن عمه عبد الله بن عباس تركه وتوجه الى مكة، ولقي علي حتفه على يد عبد الرحمن بن ملجم... وبايع أهل الكوفة من بعده ابنه الحسن، وزحف معاوية نحو الكوفة، وتأهب الحسن لمواجهته، ولكن الناس سمعوا أن قيس بن سعد قد مات وهو قائد قوات الحسن، فاتجهوا الى سرادقة ونهبوا ما فيه حتى نزعوا بساطه واستلبوا رداءه.. فكتب الحسن الى معاوية يبلغه بتنازله له على أن يعطيه ما في بيت مال الكوفة، وخراج دار «بجرد» وتفرق أصحاب علي، ولكن معاوية أمّنهم على حياتهم وأموالهم فبايعوه واتفق الناس على بيعة معاوية وسمي ذلك العام عام الجماعة..

وقتل محمد بن أبي بكر الصديق عامل علي على مصر شر قتلة. أما الأشتر الذي كان علي قد بعثه ليخلف محمدا بن أبي بكر الصديق على مصر فقد مات قبل أن يصلها..

وانتهت وقائع أول حرب أهلية عربية بعد الاسلام، سفكت فيها من الدماء أكثر مما سفك في حروب الردة والفتح، وسقط فيها من الصحابة وحفظة القرآن، واشتركت فيها عائشة أم المؤمنين وواجه فيها علي بن أبي طالب عبيد الله بن عمر بن الخطاب، وواجه فيها عمار بن ياسر عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وكان شعار معاوية فيها دم عثمان. وكان شعار علي، وجوب طاعة أمير المؤمنين، أما الخوارج فقد كان شعارهم لا حكم الا لله.. وكما رأينا من سجل تلك الأحداث، فقد كان فيها الدين مجرد بخور يطلق من كل طرف. أما الدافع الحقيقي، والشعار

(1) تاريخ الطبري، ج 5، ص 178.

غير المعلن فقد كان، هو الحرب من أجل الحكم، فمعاوية منذ أن نصبه عمرو بن العاص خليفة نسى دم عثمان، وشرع يحارب باسم الخليفة المنصب بحكم كتاب الله الذي ارتضاه علي أما ابن أبي طالب فقد تشتت جهده بين جبهتين، يحارب الخوارج، ويعد لحرب معاوية.. أما الخوارج فقد أبيدوا في النهروان، الا قليل منهم فروا الى أماكن مختلفة.

أما ما أنجبته تلك الحرب الرهيبة المأساوية فهو حركة الخوارج وهي أول حركة دينية وسياسية في التاريخ العربي الاسلامي.

ونمط من الحكم جديد، بدأ في العهد الأموي الذي أسسه معاوية في دمشق وتوارثه بنو أمية من بعده.. وقد كانت فترة حكم معاوية التي أستمرت 19 سنة، هي فترة لتأسيس عهد جديد، وتوسيع مساحة الدولة بفتح أراضي جديدة، أو ترسيخ سلطة الدولة على أراضي كانت قد فتحت من قبل، ولكن عهد معاوية شهد عاملين أساسيين، عبرا عن مظاهر الصراع السياسي، وكان العامل الأول امتدادا للمرحلة السابقة، أما العامل الثاني، فكان تعبيرا عن نمط الحكم..

العامل الأول، هو استمرار الخوارج في قتالهم لمعاوية، فقد زحفوا مرات عديدة نحو الكوفة والبصرة، واشتد عليهم عمال معاوية وقتلوا منهم الكثير، حتى تحولوا الى حركة غاضبة، لا تتوقف عن اثارة الفتن والمعارك من حين لآخر، لكنهم لم يتجاوزوا دور الاثارة، ولم يشكلوا عنصر تهديد لأركان الدولة الأموية.

العامل الثاني: هو الصراع على النفوذ والحكم بين المقربين من معاوية، مثلما كان بين المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص، وهما القطبان الأساسيان في دولة معاوية، أما زياد فلم يكن له ذلك التأثير الا فيما بعد، واذا كان عمرو بن العاص هو المستشار الأول لمعاوية أثناء حروبه مع علي بن أبي طالب، فقد كان المغيرة بن شعبة هو المشير الأول على معاوية بعد انتهاء الحرب وانعقاد الأمر له.. ومن كل الوجوه نقول أن معاوية قد ابتدأ مرحلة جديدة، وأسس نمطا جديدا في الحكم، لم يكن للعرب به عهد قبل الاسلام وبعده، ففي عهد الخلفاء الثلاثة الأول أبو بكر، عمر، عثمان، كانت الأمور تدار بأسلوب هو أقرب الى البساطة البدوية العربية منه الى تعقيد أسلوب الحكم في الممالك القديمة وكان الخليفة أقرب الى شخص زعيم القبيلة، مع ملاحظة الاختلافات بين الخلفاء، وفقا لطبيعة شخصية كل منهم، أما عهد علي بن أبي طالب فقد كان عهد حروب واضطراب، ولم يتمكن من القيام بأعمال هامة واضحة تكشف أسلوبه في الحكم رغم أن الملاحظات العامة للمؤرخين، تؤكد نزاهته وورعه. ولا ننسى أن عهد علي كان عهدا استثنائيا لا يمكن أن نطبق عليه المعايير التي نطبقها على من سواه، فقد رأيناه يولي الولايات لبعض من أقاربه، وقد نجد له العذر في ذلك بسبب الظروف التي كانت، ونذكر أيضا أنه لم يقصر الولايات على ذوي قرباه، مثلما فعل عثمان، كما أننا لا نجد في سيرته المالية ما يؤخذ عليه، وقد كان خلافه مع ابن عمه عبد الله بن عباس بسبب ما اعتبره علي تجاوزات مالية من عبد الله.

ونقول ـ ان الخلافة ـ رغم غموض تعريفها، وعدم تحديدها كمنصب قيادي قد انتهت

بقتل علي بن أبي طالب، فمعاوية منذ اليوم الأول لتوليه الخلافة، قد أسس نظاما للحكم يختلف عما سبق، ومرد ذلك الى ما يلي:

1 ـ اختلاف شخصية معاوية عن الأربعة الذين سبقوه، فهو معاوية بن أبي سفيان، وقد كان أبوه أبو سفيان زعيم قريش وقائدها. وكان أهله، بني أمية، البيت المسيطر والبارز في قريش، وقد تربى تربية فيها من العز والاعتزاز ما يجعله، معتدا بنفسه الى حد بعيد..

2 ـ ان معاوية قد ولي دمشق في خلافة عمر بن الخطاب، وأنضمت اليه فيما بعد الأردن وفلسطين وحمص، وبهذا أصبح واليا على كل الشام، أكبر ولاية في الدولة العربية الاسلامية، وبعد أن بويع عثمان بالخلافة تمتع معاوية بما يمكن أن نسميه بالاستقلال الذاتي، بل أصبح له تأثير كبير على قرارات الخليفة نفسه..

3 ـ سبق أن ذكرنا أن معاوية ومروان بن الحكم كانا في السنوات الست الأخيرة من خلافة عثمان بن عفان يهيآن لتكريس سلطة بني أمية ويعدّان لذلك، ولم يكن موقف معاوية من علي بن أبي طالب، بسبب دم عثمان، كما أعلن، بل كان لطموحه في السلطة، واصراره على تقلد أمر الدولة الاسلامية. والروايات التي تقول ان نفرا من المسلمين، تكهنوا حول من سيؤول له الأمر بعد عثمان، فذكر أحد منهم أو أكثر، أن ذلك سيكون لمعاوية. ان تلك الروايات هي مؤشر لاتجاهات القوى، كما عبر عنها الواقع يومئذ.

4 ـ بقاء معاوية مدة طويلة على حكم الشام، وكان أهلها قد اعتادوا الحكم الروماني لزمن طويل، مما جعلهم مستعدين لقبول التبعية والخضوع للحاكم، كما أن معاوية وجد في الشام، تقاليد سياسية، وأساليب ادارية موروثة عن الرومان، وجديدة على العقلية العربية. كل تلك العوامل جعلت معاوية سياسيا بالدرجة الأولى، وعرفناه من الكتابات التاريخية التي تعرضت الى سيرته، داهية مراوغا، يعرف ما يريد بدقة، ويعرف كيف يصل اليه بأقل الأثمان.. وأنظر كيف استطاع هذا الحاكم ان يدخل قاعدة سياسية جديدة على العقلية العربية دون أن يجد معارضة تذكر، وهي توريث الحكم، والكيفية التي نصب بها معاوية ابنه يزيد وليا للعهد وأخذ البيعة له بذلك، تكشف شخصيته، فقد أراد معاوية أن يعزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة، وأن يعين سعيد بن العاص بدلا منه، فذهب المغيرة الى معاوية، واقترح عليه أن يأخذ البيعة لابنه يزيد قبل وفاته تجنبا للفتن والحروب كما حصل فيما مضى، وتعهد المغيرة بأن يقنع بذلك أهل الكوفة، وتقبل معاوية الفكرة، وأمر المغيرة بأن يعود الى الكوفة ليعمل لذلك، وتحدث معاوية في هذا الأمر مع عدد من عماله وحاشيته، وأمرهم أن يهيئوا الناس لبيعة يزيد.

ومعاوية كان أعرف بطبائع أصحاب عصره والمداخل للتأثير فيهم، فبعد أن وصل المغيرة بن شعبة الى الكوفة أوفد جماعة منها الى معاوية في الشام فزينوا له بيعة يزيد فقال معاوية لا تعجلوا باظهار هذا وكونوا على رأيكم.. وقال معاوية لموسى بن المغيرة الذي كان يرأس الوفد الكوفي، بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم، فأجابه ابن المغيرة: بثلاثين ألفا.. واذا صحت هذه الرواية، فان معاوية كان يدرك ان ما كان يذهب اليه بتعيين ابنه

وليا للعهد مخالف للدين ، ولكنه كان مشروعا سياسيا ، يهدف من ورائه الى جعل الحكم من بعده وراثيا ، يتوارثه عنه أبناؤه ، وأبناؤهم من بعدهم..



26

«الخــوارج»
حــرب داخل حــرب



26

«الخــوارج»
حــرب داخل حــرب

التاريخ الاسلامي من أكثر التواريخ تعقيدا، وكذلك تاريخ كل الأمم والشعوب التي لعبت دورا كبيرا فوق مضمار الحياة.. وشعوب الأدغال وحدها التي لا يتسم تاريخها بالتعقيد، غير أن جانبا معينا يجعل صفة التعقيد في التاريخ نقطة سلبية وذلك الجانب هو تعدد الروايات وتكاثرها وتضاربها بصورة تحيل مادة التاريخ الى مادة دراما حبكت بأسلوب يسوق الحقائق سوق الماشية الى مستقر يريده كل طرف حسب اعتقاداته وهواه.. وأخرى تزيد من مساحة الغشاوة فوق أعين الناظر الى التاريخ، وهي اقحام الدين في ما صغر وما كبر، وتصيير العقيدة هي السيف الخفي الذي يسله كل خصم في وجه خصمه ولا تعود الأحكام التي تصدر على الطرفين عقب كل مواجهة هي: مخطىء، ومصيب بل تصير كافر، ومؤمن.. ونحن نقرأ التاريخ الاسلامي نجد كلمات: مشرك كافر، مارق، منافق، مرتد، نجدها تتكرر أكثر مما نجد كلمات، مخطىء، مصيب، موافق، معترض محايد، ممتنع.. مؤيد.. وما إليها.. ولم تكن الألفاظ الأولى التي كانت عناوين الأحكام التي يصدرها كل طرف على الآخر، لم تكن مجرد ألفاظ أفرزتها الثقافة الدينية السائدة، بل كانت تعبيرا عن روح الحقبة، تكشف عن عقلية متشددة متطرفة، تلبس كل شيء لبوس الدين حتى الأمور السياسية التي لا علاقة لها بالدين والعقيدة. وقد دفعت كل الأطراف ثمن ذلك التشدد والتطرف..

وكان من نتيجة ذلك، أن أتخذ الدين مخزنا ليستخرج منه كل طرف ما يحتاج له من عدة في حربه مع الطرف المضاد.

- فكل طرف يفسر القرآن ويأوله بالكيفية التي تجعله على الحق وتجعل خصمه على الباطل.
- وكل يؤلف الأحاديث وينسبها الى الرسول (ص)، بما يخدم الوجهة التي يتجهها..
- وكل يدعي من أقوال الصحابة والسابقين ما يوهم الآخرين بأحقيته فما يدعي..

وتقسم الناس فرقا، وتقسمت الفرق، واختلفت، حتى أننا نجد فرقا تحمّل من الأسماء أكثر مما تضم من الأعضاء.

واقحام الدين في عظيم الأمور وهينها غيب امكانية الحوار، وأزال أجواء النقد الذاتي، ولهذا نرى أن أغلب الفرق الاسلامية انقسمت الى عشرات الفرق لأتفه الأسباب.. فاذا اختلف اثنان داخل الفرقة الواحدة حول موضوع ما قال أحدهما للآخر أنت كافر.. أو أنت مشرك، فلا يكون من الآخر الا أن يستل سيفه ويكون الدم والعداوة والثأرات والفتن، ولو افترضنا أن عبارة «أنت على خطأ» أو «ان موقفك من هذا الأمر غير صحيح» لو أن هذه العبارات حلت محل أنت كافر أو مشرك، لكفانا الله شر كثير من الفرق والمذاهب..

ولكن ما هو السبب الذي أدى الى ظهور وسيطرة هذه الروح المعاندة المتطرفة الحادة؟

أولا: يجب علينا ونحن نعالج هذا الموضوع الا نتجاهل أو ننسى ما كان بين العرب من صراع مستمر ومستحكم قبل الاسلام فكل قبيلة ترى أنها تتفوق على غيرها من حيث النسب أو الشجاعة أو الكرم أو في غيرها من القيم التي كانت تعتد بها العرب عصرئذ..

ثانيا: التركيب الاجتماعي للقبائل العربية، واختلاف الانساب وتشابكها في نفس الوقت فالحساسية بين العدنانية والقحطانية لم تندثر أو تمت بعد الاسلام، وكذلك التنافس المستمر بين ربيعة ومضر.

ثالثا: الثأرات التي كان بين القبائل العربية، وقد تأجلت المطالبة بما كان قائم منها بعد ظهور الاسلام، ولكن ملف تلك الثأرات فتح مباشرة بعد أقل من نصف قرن من ظهور الاسلام.

رابعا: السبب الذي نراه الأكبر والأهم هو أن الاسلام كان هزة قوية للنفوس والكيانات العربية، تملك النفوس وروضها، وأصبح الاسلام محور حياتهم، وبؤرة اهتمامهم وتلاشى أمامه كل شيء، وتراجعت على أثره القيم الجاهلية والعصبية، وفي وجود النبي، تداخلت الدنيا بالآخرة، واقتربت السماء من الأرض، وشاعت روح جديدة لم يألفها العرب من قبل، فتسابق الجميع على مرضاة الله والرسول، وكان قول الرسول صلى الله عليه وسلم الفصل الذي لا يمارى فيه الا قلة ممن أسلم.. هم المنافقون.. وبعد وفاة الرسول مباشرة عادت أنفاس العصبية والجاهلية.. فكانت السقيفة تعبيرا عن إطلالة الدنيا برأسها وتبدت في التطلع الى الحكم والجاه، وتلك روح دنيوية هي من صلب طبع البشر.

وكانت السقيفة أيضا تعبيرا عن أنفاس عصبية جاهلية في الحساسية بين القحطانيين والعدنانيين فالأوس والخزرج هما من القبائل القحطانية، وقريش قبيلة مضرية عدنانية.

● ثم كان اندفاع الدنيا والعصبية في خلافة أبي بكر وعبر هذا الاندفاع عن نفسه في ما عرف بالردة.. وقد عالجنا موضوع الردة ودوافعها في صفحات مضت.. وما كانت الردة وموقف أبي بكر منها دينية محضة بل كان فيها من السياسة ومن العصبية ومن دوافع الدنيا أكثر مما فيها من الدين.

● وفي عهد عمر شغل العرب بحروب الفتح، وأنشغلوا بأوطان وشعوب جديدة، وشرعوا يسبحون في طيبات النصر والغنائم، فسكنت محركات العصبية، وإصبح الدين في خدمة الدنيا، بما تحصلوا عليهم من الغنائم ونشوة الانتصارات المتلاحقة ولذة الاستشهاد التي يوصل الى الجنة.. وشدة عمر وشخصيته التي لا مظهر فيها لتعصب قبلي، أو تطلع دنيوي جعلته مثلا أعلى يقتدى به، وجعلت العرب تستحي من ابداء أي مظهر يتصل بالعصبية والدنيوية.. وكان العرب يدركون أن عمرا سيضرب بعنف كل مظهر من مظاهر الجاهلية والفتنة. وهكذا تجمعت عوامل أبعدت أي شبح للنزاع والصراع بين العرب، ونزعت فتيل التعصب والاختلاف والتفرق.

● وكان وجود صحابة الرسول بين ظهراني العرب مانعا لأي استغلال سياسي للدين، فهؤلاء الرهط كانوا أعرف الناس بكتاب الله وسنة الرسول (ص) فلم يكن هناك سبيل لتأويل الآيات الكريمة لخدمة موقف سياسي، وعندما حاول البعض مثل أبي هريرة أن يروي أحاديثا غير موثوق في صحتها ضربه عمر بن الخطاب وطرده من المدينة وأنذره من عاقبة رواية أحاديث غير مقطوع بصحتها.. وقد أصبح أبو هريرة فيما بعد ثروة كبيرة للأمويين، يؤلف لهم من الأحاديث ما يخدم سياساتهم وتوجهاتهم.

● في عهد عثمان زاد زحف الدنيا على مساحة الدين في قلوب العرب ورؤوسهم، وبدأ التطلع الى الدنيا، وبعثت الروح العصبية وأرتفعت أنفاس الجاهلية، وقرعت طبول التفرق والاختلاف وانتهى أمر عثمان بالطريقة التي رأينا..

● وبعد مقتل عثمان خرج كل شيء من قمقه الذي توارى فيه ـ مؤقتا ـ بقوة الاسلام، وجردت السيوف من أجل الحكم، وجرد الدين كذلك سيفا معنويا عقيديا، لا يقل قوة عن سيوف الحديد.

فقد اتفق الناس، أو الغالبية على تنصيب علي خليفة للمسلمين، ولكن فجأة لمع في عيون البعض بريق السلطة فنازعوها عليا، ولم يكن اعتراضهم عليه لمعطية دينية، فعلي كان من المشهود لهم من الجميع بتمام الدين والخلق، وله من المؤهلات الدينية ما لا يكاد يتوفر لغيره.. فرفع الطامعون في السلطة شعار «دم الخليفة المقتول» وأنظر ما في هذا الشعار من حبكة وتركيب، فيه من النغم الديني والطعم السياسي، وكم من الجرائم ارتكبت في التاريخ الاسلامي باسم عثمان، من طرف من يتحمس له ومن يتحمس ضده..

بتقاتل علي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعائشة أم المؤمنين وعمار بن ياسر وغيرهم من الأسماء الكبيرة بالنسبة للمسلمين، بهذا التقاتل رق خيط الدين في أعين الكثيرين، واهتزت نفوس كثيرين، ولا شك أن شيئا من القلق والاضطراب واختلال المعايير قد داخل فئات هائلة من المسلمين.. فقد كانت الحرب العربية الأهلية التي عرفت بالفتنة الكبرى عاصفة رهيبة أحدثت تغيرات خطيرة في نفسية كل مسلم وفتحت بوابات جديدة من المنطق، والكلام، والتأويل والتوتر. وقد أنجبت موقعة الجمل بين علي وعائشة ومن معها الجزء

الأول من ملحمة القلق، أما موقعة صفين وما تمخض عنها فقد كانت هي الأم للجزء الثاني من تلك الملحمة..

فاثر مقتل طلحة والزبير، وانسحاب عائشة من المعركة ضد علي لم يبق في مواجهته سوى معاوية بن أبي سفيان والي الشام، وظن علي أن معاوية سيبايعه طوعا أو كرها بعد تصفية أقطاب المعارضة..

ولكن معاوية تشبث بالشعار المشحون «دم الخليفة المقتول»، وعندما سار اليه علي لاخضاعه بالقوة لم يتمكن من ذلك، ولم يجد علي بدا من القبول بالبدائل السياسية التي عرضها معاوية، وعلى رأسها التحكيم..

وقد قيل الكثير حول قضية التحكيم، وقد عالجنا هذا الموضوع فيما سبق.. عالجناه من حيث سياقه التاريخي، ومن حيث الدوافع، وقلنا أن ما قيل حول الخوارج من أنهم هم الذين فرضوا قبول التحكيم على علي، واصرارهم على تعيين أبي موسى الأشعري ممثلا له، ثم اعتراضهم على فكرة التحكيم وتكفيرهم علي بسببه، قلنا أن هذا السياق في تحليلنا غير صحيح، وأن هناك خللا في هذه الرواية، ونحن نرى القضية على الوجه الآتي:

● ان الخوارج الذين عارضوا عليا في قضية التحكيم، لم يكونوا مجرد فئة صغيرة ظهرت فجأة دون مقدمات، فالروايات تقول أن عددهم يزيد عن عشرة آلاف، ولا نتصور أن هذا الكم الكبير يجتمع على موقف خطير مثل هذا، بهذه السرعة..

● أن أغلب قيادات الخوارج من حفاظ القرآن والمتبحرين فيه فلا يمكن أن يذهبوا الى تكفير علي بن أبي طالب، وهو من هو في وجدان المسلمين، بل هو عندئذ الخليفة الشرعي ولا يعقل أن يذهبوا هذا المذهب الشطط دون التأكد من وجود أجواء نفسية تقبل بل تؤيد وجهتهم.

● ان هؤلاء الخوارج شهدوا مع علي كل معاركه السابقة وهذا يعني أنهم ليسوا جماعة طارئة على صفوفه بل هم من قوته الأساسية التي بنت موقفها على قناعات واضحة والا ما كانوا يقدمون حياتهم في سبيل التمكين له وضرب أعدائه في المعارك التي سبقت اختلافهم معه.

● وقلنا أن عدد الذين خرجوا على علي بن أبي طالب بعد قبوله التحكيم يزيدون على عشرة آلاف مسلم، فكيف تمكن هؤلاء من الاتصال ببعضهم بعض في فترة قصيرة جدا وهي الفترة ما بين قبول علي للتحكيم وعودته من صفين.. وفي ذلك الزمان فان الاتصال بهذا الكم، والاتصال فيما بينهم يستغرق الكثير من الوقت..

ونحن نميل الى أن تلك الحركة «الخوارج» تكونت في الفترة ما بين معركة «الجمل» ومعركة «صفين»..

فبعد معركة «الجمل» ومقتل طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وهما من المبشرين بالجنة وكانا أعضاء في اللجنة التي شكلها عمر بن الخطاب، وما كان من أمر عائشة، بعد تلك المعركة، أنقلبت كثير من الموازين النفسية بل والدينية، وما كان يعد سقفا للتفكير والاجتهاد أخترق وتم تجاوزه، عندئذ بدأ الحديث حول مصداقية الأطراف المتقاتلة، وحول صدق ما يقولون، وقوى هذا الاتجاه بعد أن اتضحت مطامح معاوية في الخلافة، فها هو أحد الطلقاء

ينافس ابن عم الرسول هذا المنصب المقدس وهو الخلافة، فلماذا لا تلمع في رؤوس بعضهم وقدات الطموح الى ذلك المنصب المقدس الخطير؟!

وبعد ما حدث في صفين، وظهور فكرة التحكيم وجد أولئك البعض أن ما نبت اثر موقعة الجمل قد أينع في صفين وحان وقت قطافه وما كاد علي يعلن قبوله للتحكيم حتى أعلنوا خروجهم عليه، هذا التحليل الذي ذهبنا اليه يسنده أيضا:

1 ـ أن عليا شعر منذ موقعة الجمل بوجود تململ بين أنصاره ونحن نرد هذا التململ الى أن بعض أنصاره أدركوا أن عليا لا يستخدم سيف الدين فقط وانما يحاول أن يستخدم سيف السياسة مع معاوية من خلال الاتصالات الجارية بين الاثنين في سبيل الاستقرار على سدة الخلافة.

2 ـ ان من أساسيات فكر الخوارج، رفضهم لوقف الخلافة على قريش، فهم يقولون أن أي رجل مسلم تتوفر فيه مقومات معينة يمكن أن يكون خليفة، قريشيا كان أو غير قريشي، بل قالوا أن الخليفة يمكن أن يكون من الموالي والعجم.. بل أن بعض فرقهم فيما بعد قالت أنه ليس من الضرورات الدينية أن يكون هناك خليفة للمسلمين، ولا نشك في أن تلك الفكرة قد نبتت اثر معركة الجمل.

3 ـ بعد تصارع الأقطاب على الحكم وموت بعضهم في موقعة الجمل ظهرت شخصية اسلامية جديدة تختلف اختلافا كبيرا عن تلك التي عهدناها في عهد الرسول ومن بعده أبي بكر وعمر، ومختلفة أيضا عن تلك التي كان في عهد عثمان بن عفان.. هذه الشخصية الجديدة صنعتها الأحداث الجديدة، وحملت عقلية جديدة انعكست على المواقف الحادة والمعتدلة التي كانت فيما بعد.. واذا نظرنا الى الخوارج كمجموعة وكحركة من هذا المنظور، نقول: أنهم عاشوا صراعا على السلطة قطباه اثنين من قريش هما علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان بعد أن خلت الساحة من بقية الأقطاب، وتهاوت الكثير من القيم، وأصبحت النصوص القرآنية مادة سياسية يستعين بها كل طرف ضد الطرف الآخر، وكذلك ما ينسب الى الرسول من الأحاديث النبوية، وهذا جعل من عرفوا فيما بعد بالخوارج يتجاوزون الخط الأحمر، ويتناولوا ما كان من قبل وقفا على غيرهم، من الصحابة المقربين، وقد كان مع الخوارج جمع كثير من المسلمين في ذلك التجاوز للخط الأحمر، وهذا ما جعلهم في البداية يناقشون علي بن أبي طالب في قضايا لم يكونوا يناقشوها من قبل، ويرتابون في بعض تحركاته وإجراءاته، ويبدو ان هذا الاتجاه قد اتسع بين صفوف المناصرين لعلي بن أبي طالب مما جعله يقول لهم: «أحمد الله على ما قضى من أمر وقدر من فعل، وعلى ابتلائي بكم أيتها الفرقة التي اذا أقرت لم تطع، واذا دعوت لم تجب. ان أمهلتم خضتم، وان حوربتم خرتم، وان اجتمع الناس على إمام طعنتم، وإن أجئتم الى مشاقة نكصتم. لا أبا لغيركم. ما تنتظرون بنصركم والجهاد على حقكم؟ الموت أو الذل لكم فوالله لئن جاء يومي ـ وليأتيني ـ ليفرقن بيني وبينكم وأنا لصحبتكم قال. وبكم غير كثير. لله أنتم؟ أمادين يجمعكم؟! ولا حمية

تشحذكم؟ أو ليس عجبا أن معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه على غير معونة ولاعطاء. وأنا أدعوكم ــ وأنتم تريكة الاسلام. وبقية الناس ــ الى المعونة أو طائفة من العطاء، فتفرقون عني وتختلفون علي؟ انه لا يخرج إليكم من أمري رضا فترضونه، ولا سخط فتجتمعون عليه، وان أحب ما أنا لاق الي الموت. قد دارستكم الكتاب، وفاتحتكم الحجاج، وعرفتكم ما أنكرتم، وسوغتكم ما مججتم، لوكان الأعمى يلحظ، أو النائم يستيقظ! وأقرب بقوم من الجهل بالله قائدهم معاوية! ومؤدبهم ابن النابغة(*)» [1].

ونستطيع أن نقول، أن الخوارج هم جمع من المسلمين وعوا حقيقة الصراع الذي كان يدور واكتشفوا قوانينه، فقرروا أن يكونوا هم أيضا أبطالا في ميدانها، ورفعهم شعار «لا حكم الا لله» في وجه علي بن أبي طالب يؤكد ذلك، فاذا أصبح الدين مادة للسياسة، فلماذا لا يتسلحوا بهذه المادة ويندفعوا بها في أتون الصراع؟..

أما الطرف الآخر، وهو معاوية ومن معه فقد كان يشكل الجبهة السياسية التي تواجه الجبهة الدينية بقيادة علي بن أبي طالب، وقد كان أركان معاوية من ثعالب السياسية من عمرو بن العاص الى المغيرة بن شعبة، وقد خاضوا الصراع منذ البداية بقوانين السياسية، مبدأهم الرئيسي ما صاغه معاوية وهو «أن لا استخدم سوطي حيث يكفيني لساني، ولا أستخدم سيفي حيث يكفيني سوطي». أما علي بن أبي طالب فلم يكن رجل سياسة بل كان رجل دين وسلاح كما وصفه ابن عمه عبد الله بن العباس، وعندما حاول أن يستخدم سلاح السياسة في بعض المواقف أرتدت عليه وكانت بداية النهاية بالنسبة له، ولم يكن من الهيّن أن يعود الى سلاح الدين بعد ذلك، فقد اختطف الخوارج منه هذا السلاح واستعملوه ضده «فلما أراد علي أن يبعث أبا موسى الأشعري للحكومة أتاه رجلان من الخوارج هما، زرعة بن البرج الطائي، وحرقوص بن زهير السعدي دخلا عليه فقالا له، لا حكم الا لله فقال علي: لا حكم الا لله فقال حرقوص: تب من خطيئتك وأرجع عن قضيتك وأخرج بنا الى عدونا نقاتلهم فقال لهم علي قد أردتكم على ذلك فعصيتموني وقد كتبنا بيننا وبينهم كتابا وشرطنا شروطا وأعطينا عليها عهودنا ومواثيقنا، وقد قال الله عز وجل: «وأفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون». فقال حرقوص ذلك ذنب ينبغي أن تتوب منه فقال علي: ما هو ذنب ولكنه عجز من الرأي وضعف من الفعل» [2].. هنا نجد عليا يستخدم لغة جديدة، فهو يستخدم كلمات ــ العجز من الرأي ــ والضعف من الفعل، ولكن خصومه من الخوارج بقوا يستخدمون اللغة القديمة، يستخدمون كلمات الذنب والتوبة، ولو أن الطرفين استخدما منذ البداية ألفاظ العجز والضعف بدل الذنب والتوبة وغيرها،

---

(1) نهج البلاغة، شرح الامام محمد عبده، ص 321.

(*) ابن النابغة يعني عمرو بن العاص.

(2) الطبري، التاريخ، 40/6.

لأخذت الأمور وجهة أخرى، ولما كان ذاك التشرذم والاقتتال. وقد تشبث الخوارج بمنطقهم الذي لا يستخدم سوى الدين، ولم يتراجعوا عنه أبدا لأنه قوتهم القوية الوحيدة، واذا تراجعوا فقدوا كل شيء، فهم كما أشرنا من القراء، ويجيدون استحضار الآيات التي تخدم كل موقف يتخذون، وقد حاول علي بن أبي طالب أن يعالجهم بنفس منطقهم ولكنهم تفننوا في المحاجة والمناظرة، «فعندما وصل علي بن أبي طلب الى الكوفة بعد عودته من صفين ومفارقة الخوارج له بعث اليهم ابن العباس فقال لهم: ما نقمتم من الحكمين وقد قال الله عز وجل: ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما». فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم، فقالت الخوارج: قلنا اما ما جعل حكمه الى الناس، وأمر بالنظر فيه والاصلاح له فهو اليهم كما أمر به، وما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه، حكم في الزاني مائة جلدة وفي السارق بقطع يده فليس للعباد أن ينظروا في هذا» (1). وما قاله الخوارج لابن العباس هو عين الصواب وقلبه، ولكن القول كان مجرد طلقات لفظية في معركة سجال، فهم لم يلتزموا بما قالوه في هذا الموقف، ولو طبقوا قولتهم هذه، لأدركوا أن موضوع الصراع الكبير بين معاوية وعلي من الأمور المتروكة للناس مثله مثل كل قضايا السياسة ومجريات الحياة، ولكنهم هم أيضا تمادوا في خلط السياسة بالدين، واذا أقحم الدين في السياسة فسد الاثنان ـ الدين والسياسة وهذا ما حدث بالفعل في تلك الأيام..

وبعد أن عجز علي والذين معه عن اقناع الخوارج بالحجة، اضطر الى مواجهتهم بقوة السلاح، فقاتلهم في النهروان حتى كاد أن يبيدهم أجمعين.. فرد عليه من نجا منهم بسلاح القوة، فقتله الخارجي عبد الرحمن بن ملجم.

وقد بقى الخوارج حربا عوانا على علي بن أبي طالب وأنصاره، وعلى الأمويين من بعد، فحارب الطرفان الخوارج بالسيف وبالدين. وفي حرب السيف صمد الخوارج ودافعوا عن مواقعهم بشجاعة وثبات، وما انتهت معركة بينهم وبين خصومهم الا مات فيها أكثرهم، ومن بقى منهم تفرق في أصقاع الوطن الاسلامي وتحصنوا في أطرافه مثل عُمان وشمال افريقيا.. أما في حرب الدين، فبعد أن يئس خصوم الخوارج من احراز نصر مباشر ضدهم من خلال الجدل والمحاجة، ذهب هؤلاء الخصوم مذهبا آخر في حرب الحجج الدينية، فوضعوا الكثير من الأحاديث المنسوبة للنبي (ص) حول الخوارج، والفوا أقوالا نسبوها الى بعض الصحابة يتنبأون فيها بظهور هذه الفرقة، ويصفونها بصفات تسلخها عن الاسلام..

روى ابن هشام في سيرته أن الرسول (ص) كان يقوم بتوزيع الغنائم عقب أحد الغزوات فجاءه رجل من تميم يقال له ذي الخويصرة وقال للرسول (ص)، لم أرك عدلت، فرد النبي غاضبا: «ويحك! اذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون»..ولما هم عمر بن الخطاب بقتل ذي الخويصرة قال الرسول: «دعه، فانه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين، يتبعون إقصاه حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية».. ونجد في كتب الحديث أحاديث كثيرة على هذه

---

(1) المرجع السابق.

الشاكلة.. وبعض الأحاديث التي أوردها البخاري في صحيحه تضيف أن «رايتهم رجل أسود مخدج اليد».. وروايات أخرى تقول «أن سيماهم التحالق».. وبعض المصادر الأخرى تقول أن أبا الخويصرة هو حرقوص التميمي أحد قادة الخوارج، ويقولون أنه هو ذي الثدية المخدج اليد.. وأن الأحاديث النبوية التي تتحدث عن الفئة المارقة ـ أي الخوارج ـ نزلت في هذا الحرقوص المخدج ذي الثدية!! ويذهب البعض الى أن حرقوص ما سمع بفتنة قط الا بادر اليها، وأنه من المحرضين والفاعلين في قتل عثمان بن عفان..

وأنظر في الأحاديث المنسوبة للرسول (ص) حول الخوارج، قال مسلم بن الحجاج في صحيحه: حدثنا عبد الله بن حميد ثنا عبد الرزاق عن همام ثنا عبد الملك بن أبي سليمان ثنا سلمة بن كهيل، حدثني زيد بن وهب الجهني أنه كان في الجيش الذين كانوا مع الذين ساروا الى الخوارج فقال علي: يا أيها الناس اني سمعت رسول الله (ص) يقول: «يخرج قوم من أمتي يقرأون القرآن ليس قراءتكم الى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم الى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم الى صيامهم بشيء، يقرأون القرآن، يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قضى لهم على لسان نبيهم لاتكلوا على العمل، وآية ذلك ان فيهم رجلا له عضد ليس لها ذراع، على رأس عضده مثل حلمة الثدي، عليه شعرات بيض».. هذا الحديث المنسوب للرسول، قد تم تأليفه في وقت متأخر ربما بعد مقتل علي بن أبي طالب، وقد يكون في العهد الأموي عندما استمر الخوارج في اشعال نار الثورة ضد الأمويين، وهو ما شابهه من الأحاديث المنسوبة للرسول لا يعدو كونه مادة دعائية تعبوية ضد الخوارج، ومن صياغة ولغة الحديث نكتشف أنه لا يمت الى الأحاديث النبوية بصلة، وما ينسب الى علي بن أبي طالب يوم النهروان بعد قتاله مع الخوارج قوله: «أنظروا فان فيهم رجلا احدى يديه مثل ثدي المرأة، وأخبرني النبي صلى الله عليه وسلم اني صاحبه، فقلبوا القتلى فلم يجدوه، وقالوا: سبعة نفر تحت النخلة لم نقلبهم بعد، قال: ويلكم أنظروا، قال أبو مؤمن فرأيت في رجليه حبلين يجرونه بهما حتى القوه بين يديه فخر علي ساجدا وقال: أبشروا قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار».. وهذا الحديث مثل سابقة مكذوب على علي بن أبي طالب وعلى الرسول (ص).. ولم يخف البزار الذي روى هذا الحديث شكه في صحته عندما قال أن أبا مؤمن لم يرو عن علي غير هذا الحديث. والقضية كلها لا تتجاوز استخدام تأثير الدين في معركة سياسية دنيوية، فالعلامات والتفاصيل التي نجدها في مثل هذه الأحاديث تدل على أنها وضعت بناء على أشياء وجدت فيما بعد، واذا علي بن أبي طالب بالفعل قد سمع كل تلك الأحاديث [1] عن الرسول (ص) والتي تحدد صفات رئيس هؤلاء المارقين الخوارج فلماذا قبلهم أن يكونوا بين صفوفه؟ واذا حرقوص السعدي قد خاصم الرسول وقال فيه ذلك الحديث بحضور نفر من الصحابة فكيف يرضى علي أن يجعله أحد جنوده، واذا كان عمر بن الخطاب مثلما تقول الأحاديث قد أراد قتل حرقوص لنقده للرسول (ص) وان الرسول (ص) منعه من ذلك، وقال فيه أنه

---

(1) اورد ابن كثير في تاريخه ـ البداية والنهاية ـ ما يقرب من عشرين حديثا نبويا حول الخوارج.

سيكون على رأس المارقين، فكيف يؤمر عمر حرقوص هذا على المسلمين عند فتح الأهواز؟ وان حرقوص قد اشترك في عهد عمر في فتح الكثير من مناطق بلاد فارس. واذا قلبت في كل الأحاديث المنسوبة للرسول (ص) في هذا الموضوع وجدت دون جهد أنها مجرد نصوص دعائية سياسية لا علاقة لها بالرسول من بعيد أو قريب، ولكن تلك المرحلة من مراحل التاريخ الاسلامي كانت تفيض بالاضطراب والقلق والانقلابات في القيم والعقيدة، فتقاتلت الناس بكل شيء، بالقرآن، وما نسب الى الرسول من أحاديث وما نسب الى الصحابة.. وذلك من الأسباب الأساسية في أن تلك الفترة هي التي صنعت بذرة الفرقة في السياسة والعقائد الاسلامية، وأنت لا تستطيع أن تنظر فيما هو ديني في العصور الاسلامية الأولى دون أن تجد نفسك في شباك المذاهب السياسية، ولا تستطيع أن تنظر في التطورات السياسية، منفصلة عن الاجتهادات والمزايدات الدينية.. والخلل الكبير الذي أصاب الاسلام والمسلمين هو أن الدين أصبح مبكرا تابعا للسياسة تبعية العبد للسيد، في كل مرحلة سياسية تستخرج كيفيات دينية تبرر تلك المرحلة أو تؤيدها، وخير ما يلخص ذلك هذا الحديث المنسوب لأبي أيوب الأنصاري قال علقمة والأسود: أتينا أبا أيوب الأنصاري عند منصرفه من صفين فقلنا له: يا أبا أيوب، ان الله أكرمك بنزول محمد (ص) وبمجيء ناقته تفضلا من الله حين أناخت ببابك دون الناس ثم جئت بسيفك على عاتقك تضرب به أهل لا إله الا الله. فقال: يا هذا ان الرائد لا يكذب أهله، وان الرسول (ص) أمرنا بقتال ثلاثة مع علي: بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، فأما الناكثون فقد قاتلناهم وهم أهل الجمل طلحة والزبير، وأما القاسطون فهذا منصرفنا من عندهم، يعني معاوية وعمرو بن العاص، وأما المارقون فهم أهل الطرفات وأهل السعيفات وأهل النخيلات، وأهل النهروان، والله ما أدري أين هم ولكن لا بد من قتالهم ان شاء الله.. قال: وسمعت رسول الله (ص) يقول لعمار: «يا عمار بن ياسر ان رأيت عليا قد سلك واديا سلك الناس غيره فاسلك مع علي فانه لن يدليك في ردىً ولن يخرجك من هدى، يا عمار من تقلد سيفا أعان به عليا على عدوه، قلده الله يوم القيامة وشاحين من در ومن تقلد سيفا أعان به عدو علي عليه قلده الله يوم القيامة وشاحين من نار» [1] وقد قال ابن كثير أن هذا الحديث موضوع، ولا شك في أنه من الأحاديث الكثيرة التي وضعتها الشيعة فيما بعد – أي بعد مقتل علي وقيام حزب الشيعة. ونحن نعالج كيمياء السياسة والدين في تلك المرحلة، لا ننسى قوة أخرى كان لها دور خطير منذ بداية الاسلام نقصد بهذه القوة، المنافقين، الذين يعلنون بألسنتهم أنهم من المسلمين وفي قلوبهم وأفعالهم الكفر والشرك.. وفي وجود الرسول كان الوحي يكشفهم ويبطل مفعولهم، أما بعد وفاة الرسول فلم يعد الى كشفهم من سبيل، ولا نعتقد أن تلك الفئة التي ظهرت في وجود الرسول وفي أثناء نزول الوحي، لا نعتقد أنها تختفي وتزول فيما بعد، بل العكس هو أقرب الى المنطق، وهو ان الظروف التي استجدت على المسلمين بعد الرسول، كانت مادة لتوليد المنافقين، والواقع أصبح مهيأ لأن يؤثروا فيه بقوة، فيفسدون

---

(1) ابن كثير – البداية والنهاية، 7–307.

الدين الذي فيه قوة المسلمين العقيدية، ويفسدون السياسة التي تقوم عليها قوة المسلمين المادية..

واليهود الذين حاربوا الرسول بالسلاح والقول، وطردهم الى خارج المدينة، لا نعتقد إيضا أنهم انسحبوا من الميدان بعد وفاة الرسول، وبعد تفجر الصراع بين المسلمين، بل كان ذلك الواقع الجديد هو بحرهم الممتع الذي فيه يسبحون، وما نراهم الا قد عملوا الكثير لافساد دين المسلمين وسياستهم، واستثمروا ما كان فألفوا الأحاديث ونسبوها للرسول وجل تلك الأحاديث تحرص على الفتنة وتبعد المسلمين عن قواعد التفكير المنطقي الصحيح..

هذه العوامل تسندها عوامل فرعية أخرى ساهمت جميعا في تكوين ظواهر سياسية في المجتمع الاسلامي، تضادت فيما بينها وتقاتلت في الغالب، وكلها يتلفع ببرقع الدين ويرفع شعاراته، وكلها يهدف الى الوصول الى سدة الحكم، ومن قبل الاسلام كانت مقومات تطلع كل مجموعة الى السيادة مقومات محتكرة مقفلة، تتوفر للبعض، ويحرم البعض الآخر منها حرمانا نهائيا، ليس الى تحليله من سبيل، فالعصبية القبلية لا تتوفر لكل العرب، وعامل النسب كذلك، ولكن ظهور الاسلام قلب المعايير الجاهلية، وأدخل مقومات جديدة لكل شيء، وهذا ما حاولت كل فئة استغلاله، ووجدت فيه الفئات التي كانت من قبل لا تملك أي مقوم من مقومات التطلع للسيادة، وجدت فيه ضالتها، وحاولت تفسير الدين وتكييفه بما يخدم مصلحتها..

وظاهرة «الخوارج» في التاريخ الاسلامي، ظاهرة تحمل الكثير، وتستحق التحليل والدراسة، لأن تحوي وتعكس رياح القلق التي هبت على المجتمع الاسلامي بعد أن استفاق المسلمون من نشوة الدين الجديد، الذي حقنهم بشخصية جديدة، فيها من الشحنات السماوية اكثر مما فيها من الدوافع الدنيوية الأرضية.. وما تشرذم الخوارج السرطاني الا عنوان لتلك الحقبة التي تفيض بالقلق والطموح والتوتر العام..

ولا نجد حركة في تلك الحقبة تعبر تعبيرا شاملا وكاملا عن ما يدور في نفسية الفرد والمجتمع قدر ما هي حركة الخوارج، والتعريف الذي اختاره الشهرستاني في كتابه ـ الملل والنحل ـ للخوارج، يعكس بداية ملامح تكون «الظاهرة السياسية الدينية» في المجتمع العربي فقد عرف الشهرستاني الخوارج، بأنهم «كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت عليه الجماعة، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أوكان بعدهم على التابعين باحسان والأئمة في كل زمان» (1).. وهذا التعريف يوضح تأثير الروح الدينية في المصطلح، مثلما كان تأثير الدين في الفعل السياسي، فقاعدة «السمع والطاعة»، التي اعتبرت القاعدة ـ الدستورية ـ الأساسية في الممارسة العامة والخاصة في المجتمع العربي، هي التي حددت «الحكم» الصادر على كل الأفعال التي تأتيها الرعية تجاه الامام أو الخليفة، أمير المؤمنين..

(1) الشهرستاني ـ الملل والنحل، 1-114.

27

السمع والطاعة
القوة ـ و ـ الضعف

27

السمع والطاعة
القوة ـ و ـ الضعف

ونحن ننظر في حركة الخوارج ـ كظاهرة، أو حالة، تعكس التطورات الخطيرة التي شهدتها النفسية أو الشخصية العربية في تلك المرحلة الخطيرة، نتتبع تفاعلات الدين والسياسية، بهدف معرفة أثر ذلك التفاعل في الفقه السياسي الاسلامي، وأثره السلبي على الدين والسياسة على حد سواء...

● فقد كانت قاعدة «السمع والطاعة» هي القوة الضاربة التي تسلح بها الخليفة، وتلك القاعدة جعلت عموم الرعية مجرد عربات على قضيبي السكة الحديدية في حين مثل الخليفة القاطرة التي تجر كل المجتمع وراءها، ولكن استعمال تلك القاعدة يختلف من خليفة لآخر، فعمر بن الخطاب، استعمل تلك القاعدة معتمدا على شخصيته «الأسطورية» التي تشكل، بلغة السياسة الحديثة «كاريزما» أي الشخصية القيادية الباهرة، التي تشد الناس إليها وتجعلهم يرون في شخصية القائد قدرات خارقة لا تتوفر في كل الناس، في حين استعمل خلفاء آخرون تلك القاعدة استخداماً فجاً، ولم تتوفر لهم قدرات شخصية خارقة، مما جعل الرعية أو بعضها تتململ وتثور.. وقد تكون الظروف العامة لا تقبل مبدأ الشخصية الباهرة الخارقة، وبالتالي تختل قاعدة السمع والطاعة، فتثور الرعية..

فلنناقش الأمر من المنظورين السابقين وأثر هذين العاملين على التطورات السياسية في المجتمع الاسلامي:

(1) قاعدة السمع والطاعة كقاعدة دينية.

(2) ظاهرة «الكاريزما» أو الشخصية الخارقة ـ كقاعدة إنسانية إجتماعية..

● لقد كان فعل هاتين القاعدتين ـ السمع والطاعة ـ والشخصية الخارقة ـ متفاوتا عبر التاريخ الاسلامي، وكان منعدما في حالة واحدة..

فبالنسبة للرسول (ص) كان تأثيره على الناس لكونه رسولا بعثه الله برسالة سماوية، ومثله مثل كل الأنبياء لاقى معارضة في البداية من مجتمعه القريب المحكوم بقواعد ومثل وقيم تتناقض مع ما أتى به الرسول، وكانت معارضتهم له إذن من خارج الاطار والمبادىء التي يؤمن بها ويدعو إليها، كانت علاقة تناقض وصدام، ولم يكن هناك بين الطرفين ما هو مشترك.. ولكن بعد فتح مكة، ودخول مكة والطائف والمدينة وأقاليم عربية أخرى الى الاسلام تكون مجتمع جديد كل من فيه يسلم تسليما كاملا للنبي في جميع الأمور، وحتى الردة التي ظهرت أثناء وجود النبي هي شكل من أشكال التصادم والتناقض وليست شكلاً من أشكال المعارضة..

● في عهد أبي بكر الصديق.. ظهرت الظاهرتان:

* التصادم والتناقض، في موقف المرتدين عن الاسلام جملة وتفصيلا وتمثلت في القبائل التي ظهر فيها أنبياء كاذبون، أدعوا النبوة تأكيدا لكفرهم بالاسلام..

* المعارضة السياسية، في موقف الممتنعين عن دفع الزكاة لأبي بكر، مع ايمانهم بالاسلام وشهادتهم بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

والذي يهمنا في هذا المقال هو الموقف الثاني، موقف المعارضة السياسية، أو ما عبر عنه الفقه السياسي الاسلامي فيما بعد «بالخروج» فهذا الموقف السياسي المعارض يتصل بالقاعدتين اللتين نحن بصددهما..

● فهؤلاء المعارضون لم يأخذوا أو يقتنعوا بقاعدة السمع والطاعة للخليفة الذي حكم المسلمين بعد وفاة الرسول وهو أبو بكر الصديق، رغم ايمانهم بالاسلام كعقيدة، فهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ولكنهم يرفضون الخضوع لأبي بكر الصديق كحاكم للمجموعة السياسية الجديدة التي خلقت في الجزيرة العربية بفعل الاسلام.. وقد ناقشنا موقف هؤلاء من الوجهة الدينية والسياسية في أوراق سابقة، ونضيف هنا ـ أن موقف أولئك كان مقدمة للظواهر السياسية التي تتابعت على المجتمع العربي الاسلامي فيما بعد.. ونحن نرى هؤلاء الذين أطلق عليهم «المرتدون» لمجرد أنهم رفضوا دفع الزكاة، نحن نرى هؤلاء من زاوية اعتراضهم على التصور السياسي الذي جد، ولم يكن اعتراضهم على الاسلام..

قد يكون اعتراضهم على صيغة الخلافة، أو يكون اعتراضهم على مبدأ السمع والطاعة وهي القاعدة السياسية الأساسية التي تقوم عليها فكرة الخلافة.. وقد يكون اعتراضهم على شخص أبي بكر الصديق فقط وليس على النقاط الأخرى.. ولكن أبا بكر حاربهم تحت شعار ديني محض، «حرب الردة».. منذئذ بدأ صراع الدين والسياسة، والتداخل بينهما، واستعمال الدين للمصلحة السياسية المحضة..

● أما القاعدة الثانية وهي ـ الشخصية الجذابة الخارقة ـ فلم تكن تتوفر في أبي بكر، وقد عبر المؤرخون عن ذلك عندما اجمعوا على لين شخصية أبو بكر وترددها، واذا كان البعض يذهب الى أن هذا اللين قد شجع بعض العرب على التمرد عليه، فنحن نرى أن ذلك الجانب في شخصيته قد أفقده الكثير من مقومات الشخصية الخارقة «الكرزماتية» وبالتالي اهتزت سلطته وكان التمرد الديني والسياسي عليه فيما أطلق عليه «الردة»..

● وفي عهد عمر بن الخطاب نجد نجاح فعل القاعدتين.. فقد تحقق لعمر السمع والطاعة، وتوفرت فيه الشخصية الباهرة الجذابة وتحققت له «الكاريزما» وهكذا كان القائد السياسي والديني الذي مزج بين الجانبين في قدرة نادرة، انعكست في ضبطه للمجتمع وفي فتوحاته العاتية السريعة الواسعة، ولم يدر بخلد أحد أن يخرج عليه أو حتى يواجهه على المستوى الشخصي..

● ورأينا شخصية عثمان، وكيف اختلت تأثيرات القاعدتين في عهده.

● نصل الى عهد علي بن أبي طالب، الذي تفجر فيه كل شيء، تفجرت الحرب الأهلية العربية الكبرى، وظهر الخوارج، ومن بعد ظهر حزب الشيعة، نصل الى هذا العهد، لنرى اختلال قاعدة السمع والطاعة مبكرا، منذ أن رفض نفر من الصحابة تطبيق هذه القاعدة بالنسبة لعلي.. فقد كانت معارضة طلحة والزبير وعائشة بداية التحطيم الكبير لقاعدة السمع والطاعة التي قام عليها الفكر السياسي الاسلامي منذ ولادته..

● أما شخصية علي، فرغم كل ما توفر فيها من تركيبات خصبة وغنية من الناحية العرقية والدينية والشخصية، بقدر يجعلها كافية لأن تكون جاذبة لعموم المسلمين، غير أن تحطم القاعدة الأولى أفقد القاعدة الثانية فعلها، وهذا أدى مع غيره من العوامل التي أوردناها الى اهتزاز القواعد الأساسية التي كانت تقوم عليها فكرة القيادة السياسية والدينية..

وبصدور حكم الحكمين عمرو بن العاص، وأبي موسى الأشعري، دخل التفكير السياسي الاسلامي مرحلة أخرى تختلف عن تلك التي حكمها التراث السياسي للخلفاء الذين سبقوه، وعلى أنقاض ذلك التراث ظهرت ثلاث مدارس سياسية لكل واحدة منها قوة تتبناها وتفكر على ضوئها، وتمارسها على أرض الواقع:

المدرسة الأولى: هي مدرسة [القدرة السياسية] التي أسسها معاوية بن أبي سفيان، ونبوغ معاوية وعبقريته تجلت في قدرته على تشخيص الأزمة التي كان يمر بها المسلمون كإفراد وكمجتمع، وقدرته على تقديم البديل المناسب، وإسلوبه الذي عبر عنه فيما عرف بـ «شعرة معاوية».. وبخاصة في اقامة توازن مطلوب، ومقبول بين الروح القومية، والاندفاع الديني المتوقد، وكذلك مرونته في التعامل مع كل التكوينات القبلية العربية، وتوظيف الطموحات الشخصية لأنصاره نحو مواقفه وأهدافه، كل ذلك جعل لمدرسته السياسية ملامح محددة، أعطت من أنتمى اليها هوية خاصة، ميزته عمن عداه، ومكنت له في الحكم وفي الحرب، كما مكنت لبني أمية من بعده لمدة من الزمن ليست قصيرة.. وعرف معاوية أيضا كيف يوظف الدين لخدمة السياسة دون خلط عشوائي غائم، فهو من كتاب الوحي، وأخو زوجة رسول الله (ص).. وكيف يتجاهل رجل مثل معاوية أثر الدين في السياسة، ونجد العديد من الأحاديث المنسوبة للرسول في تمجيد معاوية.. قال أبو هريرة «الخلافة بالمدينة، والملك بالشام»..

وقال معاوية «ما حملني على الخلافة الا قول رسول الله (ص) لي: يا معاوية ان ملكت فأحسن» ومن الأحاديث التي تدور هذا المدار ما نُسب الى ابن عباس اذ قال «أتى جبريل الى الرسول (ص) فقال: يا محمد أقرىء معاوية السلام واستوصى به خيرا، فانه أمين الله على كتابه

ووحيه ونعم الأمين». وعن عائشة قالت: «لما كان يوم أم حبيبة من النبي (ص) دق الباب داق، فقال النبي (ص) «أنظروا من هذا؟ قالوا: معاوية. قال أئذنوا له، فدخل وعلى أذنه قلم يخط به، فقال: ما هذا القلم على أذنك يا معاوية؟ قال: «قلم أعددته لله ورسوله» فقال له: «جزاك الله عن نبيك خيرا والله ما أستكتبك الا بوحي من الله، وما أفعل من صغيرة ولا كبيرة الا بوحي من الله، كيف بك لو قمصك الله قميصا ـ يعني الخلافة ـ فقامت أم حبيبة فجلست بين وقالت: يا رسول الله و إن الله مقمصه قميصا؟ قال نعم، ولكن فيه هنات وهنات. فقالت يا رسول الله فادع الله له، فقال: «اللهم أهده بالهدى، وجنبه الردى، وأغفر له في الآخرة والأولى»... ونسب الى الرسول أيضا قوله يدعو لمعاوية: «اللهم علمه الكتاب ومكن له في البلاد وقه العذاب».. وواضح من هذه الأحاديث أنها مجرد مادة دعائية وضعت في فترة متأخرة جدا من وفاة الرسول، والأرجح أنها وضعت عندما كان معاوية في الحكم، ونحن أوردناها هنا لنرى كيف وظف معاوية الدين أيضا لترسيخ سلطته، ولكن معاوية من سيرته وقراراته وأسلوبه في الحكم، لم يحاول أن يبني ملكه على أساس مبرر ديني مثلما سنرى عند الشيعة وقضية ولاية علي و إمامته، المستندة الى أساس عرقي بحكم قرابته من الرسول، ولم يتخذ من الدين مادة يستند عليها استنادا كاملا، به يحاجج من أجل شرعيته وفيه يُحارِب ويُحارَب مثلما الخوارج.. لم يكن ذلك فكر معاوية ولا سلوكه بل كانت حجته الأكبر وقوته الأساسية أنه في شخصه أهل للمكانة التي تبوأها. وحتى عندما عنّ له أن يولي ابنه من بعده لم يجتهد لاستخراج تبرير فقهي ديني، بل برر ذلك بالضرورات السياسية والخوف من اشعال الفتنة..

وقد أدرك معاوية بعبقرية نقاط الضعف والقوة في شخصه، وأدرك نقاط القوة والضعف في المجتمع الذي كان يعيش فيه، واستطاع أن يوجه المعادلة لمصلحته.. فهو من عمق قريش وأهله من بني أمية، وأبوه كان زعيم قريش الأوحد وتلك كانت مكمن ضعف ومكمن قوة. وكان هو وأبيه من الطلقاء الذين لم يؤمنوا الا بعد الفتح، وتلك نقطة ضعف.. ولكنه كان من كتاب الوحي وتلك نقطة قوة، ومن كل ذلك استخلص معاوية مدرسته الفكرية والعملية في السياسية، فقدم نموذجا جديدا للحكم فيه من الكسروية ومن القيصرية وفيه أيضا من ملامح الخلافة.. واستطاع أن يشد اليه الناس بالقوة أو بالتأليف، ولم يجابه أي معارضة هامة طيلة سنوات حكمه..

ونرى من هذا أن معاوية وضع قواعد جديدة للشرعية التي يستند اليها الحاكم، ولكنه في نفس الوقت ثبت قاعدة السمع والطاعة على ركائز جديدة فيها من الأسس الدينية وأخرى غير دينية.. أما الجاذبية القيادية، فقد صنعها معاوية لنفسه صنعا، مستفيدا في ذلك بالتراث السياسي لمجتمع الشام الذي كان مندمجاً في الامبراطورية الرومانية، ونجد النوادر، والحكايات التراثية التي نسجت حول شخصية معاوية تدور كلها حول قدراته السياسية الفائقة ودهائه السياسي الثاقب.. وتظهر قدرة معاوية أيضا في اختيار الشعار الملائم لكل موقف ومرحلة، فقد رفع في بداية مواجهته مع علي بن أبي طالب شعار «المطالبة بدم عثمان» على أساس أن معاوية

هو ولي عثمان، ولكن بعد التحكيم، تخلى معاوية عن هذا الشعار، وتشبث بالشرعية التي أعطتها له محكمة «الحكمين».. ونضيف أيضا، اعتماد معاوية على الخبراء والمستشارين السياسيين، ويكفي أن داهيتا العرب عندئذ وهما عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة كانا من أهم أركان نظام معاوية، والفتوحات التي قام بها من العوامل الهامة التي جعلت الجميع يسلمون بجدارته بحكم المسلمين، باستثناء أقلية تمثلت في الشيعة والخوارج..

وقد حدد معاوية بنفسه المقومات التي جعلته يستحق الخلافة، فقد جاء في شرح نهج البلاغة أن الحسن بن علي بن أبي طالب عندما بويع بالخلافة اثر مقتل أبيه أرسل الى معاوية يطلب منه البيعة، فرد عليه معاوية: «قد علمت اني أطول منك ولاية، وأقدم منك لهذه الأمة تجربة، وأكثر منك سياسة، وأكبر منك سنا، فادخل في طاعتي» (1). ولم يذكر معاوية في سرده لما يؤهله للخلافة، لم يعد يذكر دم عثمان، ولم يسوق أي أسس دينية، فكل ما أورده من باب المقومات الموضوعية السياسية..

وقد تأثر فقه «السنة» السياسي بهذه المدرسة، ونجد ملامح لها في المذهب الأشعري الذي هو القاسم المشترك بين أهل السنة، ويظهر هذا التأثر وهذه الملامح في الشروط التي وضعها هؤلاء للخليفة، غير أن ما ذهب إليه معاوية من تنصيب إبنه يزيد وليا للعهد قد خلق بعض الارتباك في أسس هذه المدرسة، وكذلك ما قام به الأمويون من تجاوزات دينية، وسياسية خاصة في أواخر عهدهم..

وحتى تلك المرحلة، لم يكن هناك أي إختلاف بين اثنين من المسلمين حول أي ركن من أركان العبادات، أو حول مفهوم من المفاهيم الدينية، ونحن نعلم أن ما يعرف الآن بالمذاهب السنية الأربعة قد ظهرت بعد هذه المرحلة بعشرات السنين، وكذلك الفقه الشيعي..

فقد كان المسلمون حتى نهاية الفتنة الكبرى مسلمون بلا مذاهب، لا اختلاف بينهم من الناحية الدينية في كبيرة أو صغيرة، وكل الاجتهادات التي ميزت طائفة عن أخرى ومذاهب عن اخر قد ظهرت بعد تلك الحرب الأهلية العربية، والخلاصة أن الاختلاف الديني ترتب على الاختلاف السياسي، لأن كل فرقة سياسية عندما انتظمت في حزب أرادت أن تميز نفسها عن سواها دينيا، فتعمدت الى وضع أحاديث ونسبتها للرسول، وحرفت بعض العبادات، وبعض جوانب الشريعة، ليكتمل تفردها وتميزها عن غيرها من الفرق، وهذا الاختلاف الديني الذي ترتب على الاختلاف السياسي، سعّر النار وأجج العداوة، ووسع دائرة الاقتتال والصراع، فلم يعد الخلاف مجرد تباين في الاجتهادات الدنيوية تجاه الأمور السيارة، بل أصبح خلافا مقدسا، غلف بالغيبيات، وشحذت له الأسلحة الدينية، حتى أصبح التاريخ الاسلامي عندئذ حلقات من الدماء يصنعها الدين بيد السياسة..

---

(1) شرح نهج البلاغة، ج16، ص36.



خاتمة

في الختام، آمل ان أكون قد استطعت قول ما أردت، فكثير من الافكار تربكها الصياغات، أو المفاهيم التي تجذّرت في الاذهان بشكل مسبق حول افكار معينة، ووقائع واحداث تاريخية محددة.

فما اردته من هذا الكتاب، هو محاولة للمساهمة في الاقتراب من منهج لمعالجة التاريخ، يساعدنا في الاقتراب من الحقائق الدينية. لقد ابتكر العرب ما عُرف بـ «علم الكلام» لمواجهة تطورات فكرية وجغرافية وبشرية استجدت عليهم بحكم انتشارهم بالفتوحات في اراض تسكنها شعوب تدين باديان تختلف عن الاسلام، وتحمل موروثات وتراث فكري يناقض بعضه الدين الاسلامي، وقد استطاع العرب المسلمون ان يحتلوا الارض بحد السيف، ولكن النفاذ إلى العقول يحتاج إلى حد المنطق والاقناع، بالاضافة إلى حد العقيدة الصحيحة المقنعة وهي «الاسلام». ابتكر العرب ذلك العلم «علم الكلام» لمواجهة الآخرين وفيما بعد استخدموه كلغة علمية ودينهم للتحاجج فيما بينهم، وكان في الحالتين، توظيف للعقل في خدمة العقيدة.

وقد اجتهد مفكرون وباحثون عرب في العصور القديمة والحديثة من اجل ابتكار مناهج وأدوات علمية تساعد على دراسة التاريخ الاسلامي بموضوعية وعلمية، تضمن خدمة العقيدة، وتدفع عنها الاثر السلبي الذي لحق بها، بسبب ردمها في اكوام التراث والخيال الشعبي.

والعرب المسلمون يقفون اليوم امام عواصف وزوابع فكرية وسياسية واجتماعية في الداخل، ومن الخارج، ولا مناص لهم من قدح زناد العقل، والتوسع والتعمق في الدرس حتى يتمكّنوا من العبور والانطلاق نحو المستقبل وفق خارطة فكرية صحيحة، لا تشوّه خطوطها ورموزها الموروثات التي تراكمت فوق الحقائق الدينية والتاريخية.

هذه الرحلة التي جاهدتُ ان تكون علمية، مع تاريخ صدر الاسلام، هدفها ان نرى فعل العقيدة، وفعل الفرد، آليات السياسة، فقد كان فيها من الفصل ما فيها، وكذلك من التداخل

والتأثير والتأثر... والنتائج يمكن ان نطلق عليها، السطور الاولى في صفحات سفر الحضارة العربية الاسلامية، فقد كانت العقيدة صحيحة قوية نقية وكان الفرد «الحاكم»، «الخليفة» مفعم بقوة العقيدة، وكانت «العملية السياسية» أي تدبير امور الامة، تدور في بيئة بسيطة مشدودة إلى الآخرة اكثر مما هي محكومة بضرورات الحياة، وطموحاتها. كانت تلك حلقة استثنائية في حياة العرب... وقد ابتدع المسلمون الأوائل ـ الخلفاء ـ من الاساليب والقرارات والادارة ما يخدم قوة العقيدة وقوة الامة، دون تناقض بين الهدفين.

الذي يفيدنا اليوم من تاريخ الأوائل، ليس ان ننسخ حياتهم، أو نكرر سلوكهم أو اسلوب ادارتهم، ولكن المفيد هو «المنهج» الذي واجهوا به زمانهم، بما فيه من واقع سياسي واجتماعي واقتصادي وجغرافي. قوتهم الذاتية ومقاييسهم كانت العقيدة ذاتها التي لم تتغير ولن تتغير. اما البيئة التي فعلوا فيها افعالهم، والادوات التي فعلوا بها، ومكونات الفرد والمجتمع، والطموحات التي كان يتحرك نحوها الفرد والامة، فانها تختلف عن التي نحياها اليوم، والتي ستعيشها الاجيال القادمة من بعدنا. ومن يقرأ تاريخ صدر الاسلام بمنظار العقيدية يصير إلى السلام النفسي والعقلي اقرب من اولئك الذين ينظرون فيه بمنظار مسبق مصنوع من غشاوة التراث والمقاصد المحددة سلفا، والدرس الصحيح يقود إلى الاستنتاج الصحيح، وهذا يجعلنا ندعو إلى دراسة تاريخنا وتراثنا بروح اسلامية، تنبع من جوهر العقيدة وهو القرآن، الذي لا يأتيه الباطل، وهو وحده الذي لا يأتيه الباطل، اما ما عداه فهو عرضة لكل شيء، كأي شيء.

★ فالتطرف،

★ والتفرق،

★ والتقاتل،

كلها ضد جوهر الدين الاسلامي، وافتعالها أو أي منها باسم الدين، لا يحتاج إلى كبير عناء للبرهان على انه لا يمت للدين بصلة.

ومن دراستنا لتلك المرحلة الاساسية والجوهرية في التاريخ العربي الاسلامي نستطيع استخلاص ما يلي:

ان العقيدة الدينية ليست نظاماً سياسيا أو اقتصاديا ولكنها عندما توقر في نفس المؤمن وتسري بقوة في مفاصل المجتمع يولد من خلال تفاعلها مع الواقع الاجتماعي والجغرافي والبشري يُولد سلوك اجتماعي متميز، ويتراكم هذا السلوك من خلال التجربة الحياتية الانسانية، تتولد ثقافة ويُصنع تراث، يتفاعل مع الواقع الانساني في الاشمل والاعم من حيث المكان والزمان، ومن تلك الكيمياء الالهية الانسانية البيئية تولد حضارة، تلك الحضارة تنضج فيما بعد نظمها السياسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية وهكذا يمكن القول ان العقيدة تخلق حضارة والحضارة تنضج نظمها الخاصة بها.

★ فالاسلام يشكل «الشخصية» الذاتية للفرد «المؤمن».

★ والفرد المؤمن مع خلال تعاقله وتفاعله مع غيره من المؤمنين ينتج «كتلة» سلوكية اجتماعية تحدد ملامح المجتمع المسلم.

★ هذا المجتمع الاسلامي يتفاعل مع بيئته الطبيعية بدوافع طموحاته وعقيدته، متأثرا بتراثه والمجتمع الانساني المتصل به.

★ كل تلك الخطوات تتقاطع وتتداخل لتنضج نمطا من السلوك الاجتماعي العام المقنن أي «حضارة»، أي صيغة متميزة من العلاقات، والتي تنضج بدورها انظمة من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية وتلك المنظومة تتجدد وتتطور لعوامل خلفية ـ وامامية، أي بالموروثات الفكرية والطموح الاجتماعي المستقبلي، في ضوء تأثير العقيدة الدينية.

★ فالعقيدة قوة، والحضارة فعل.

والاسلام كعقيدة سماوية معصومة قادرة على خلق حلقات من الحضارات على مر الزمن ولكن وفق شروط انسانية، يتوفر لها من قوة الدفع ما يمكنها من النهوض والفعل.

والله أعلم، والحمد لله رب العالمين.